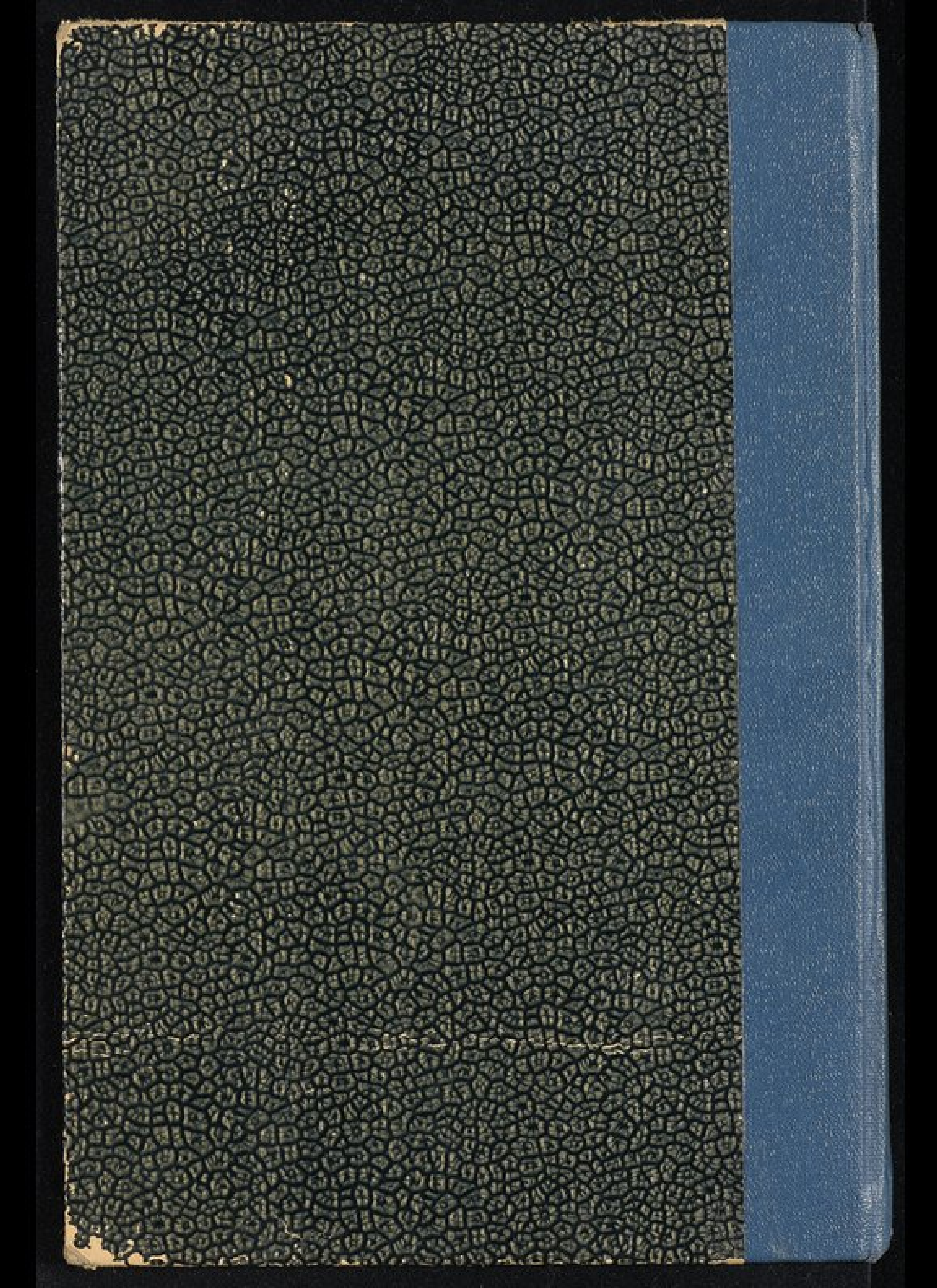
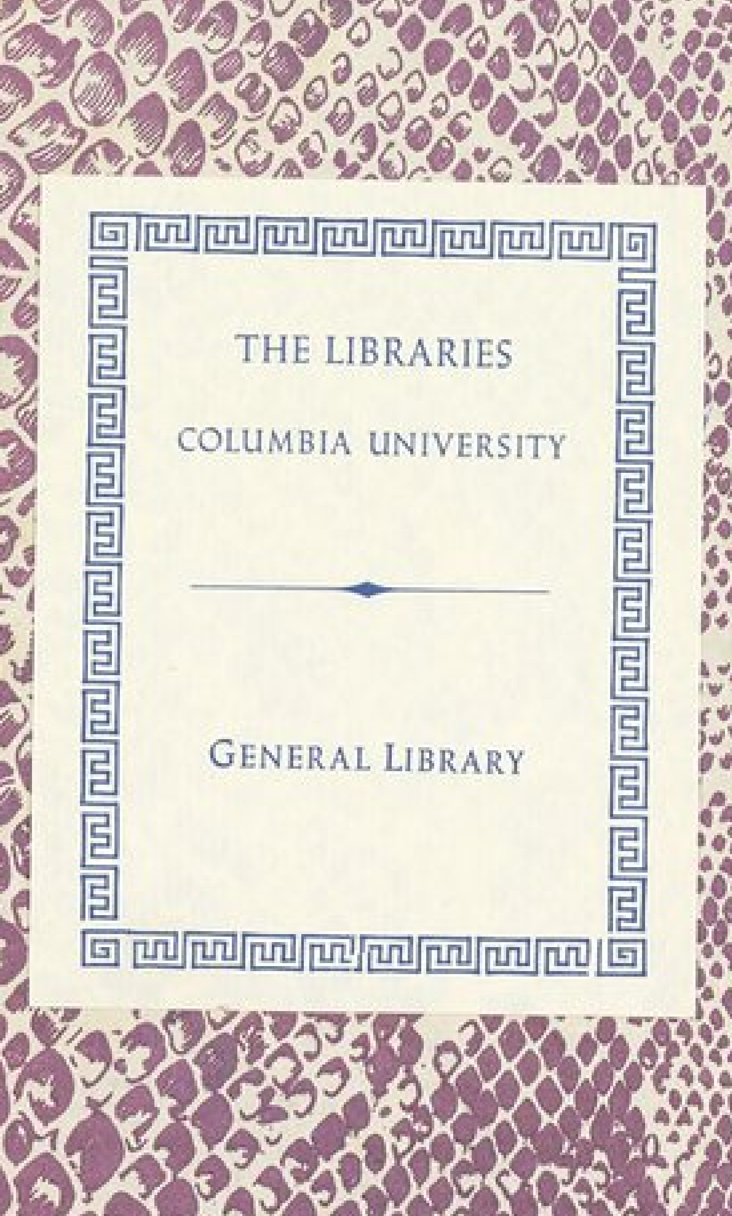
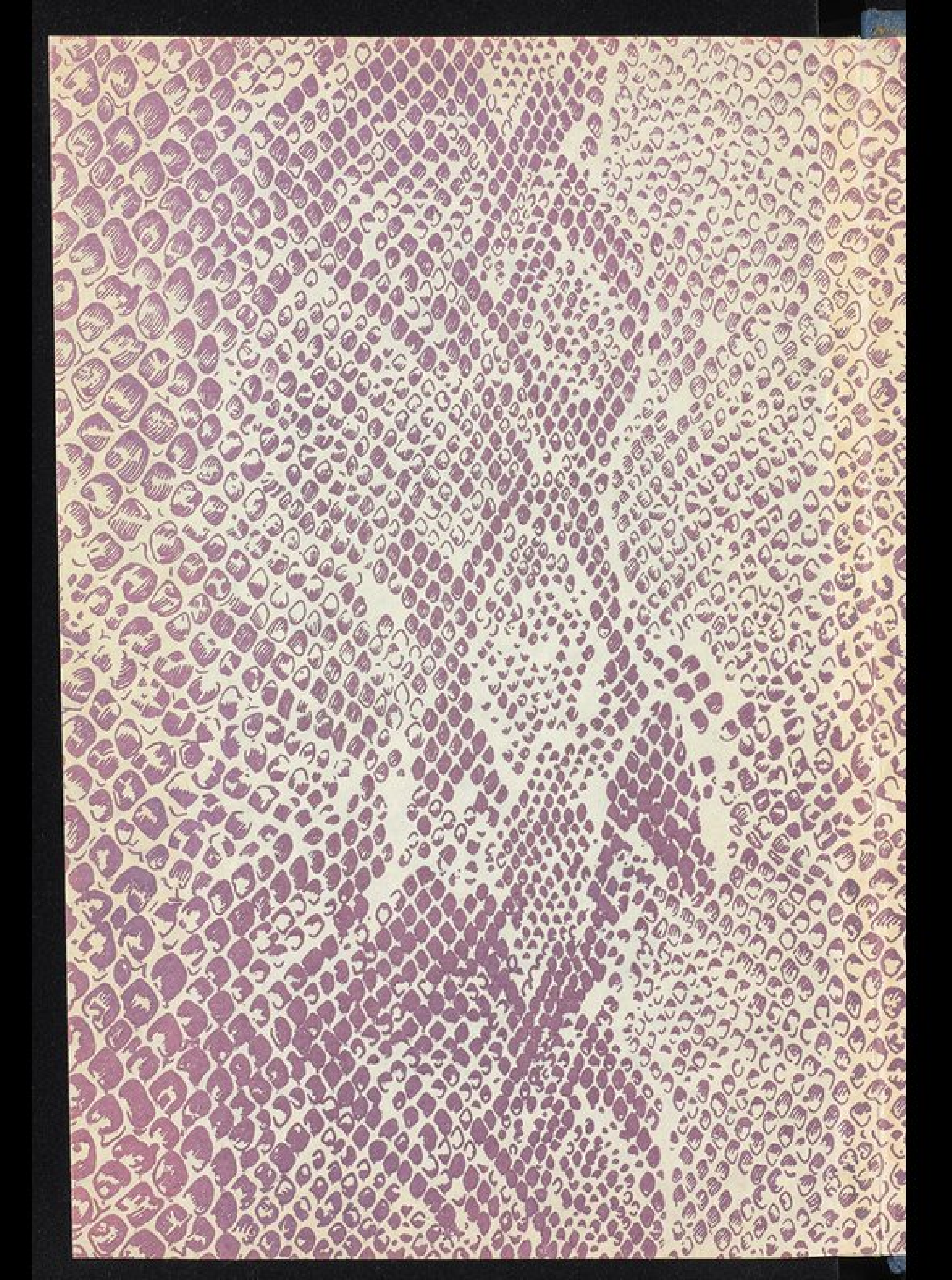
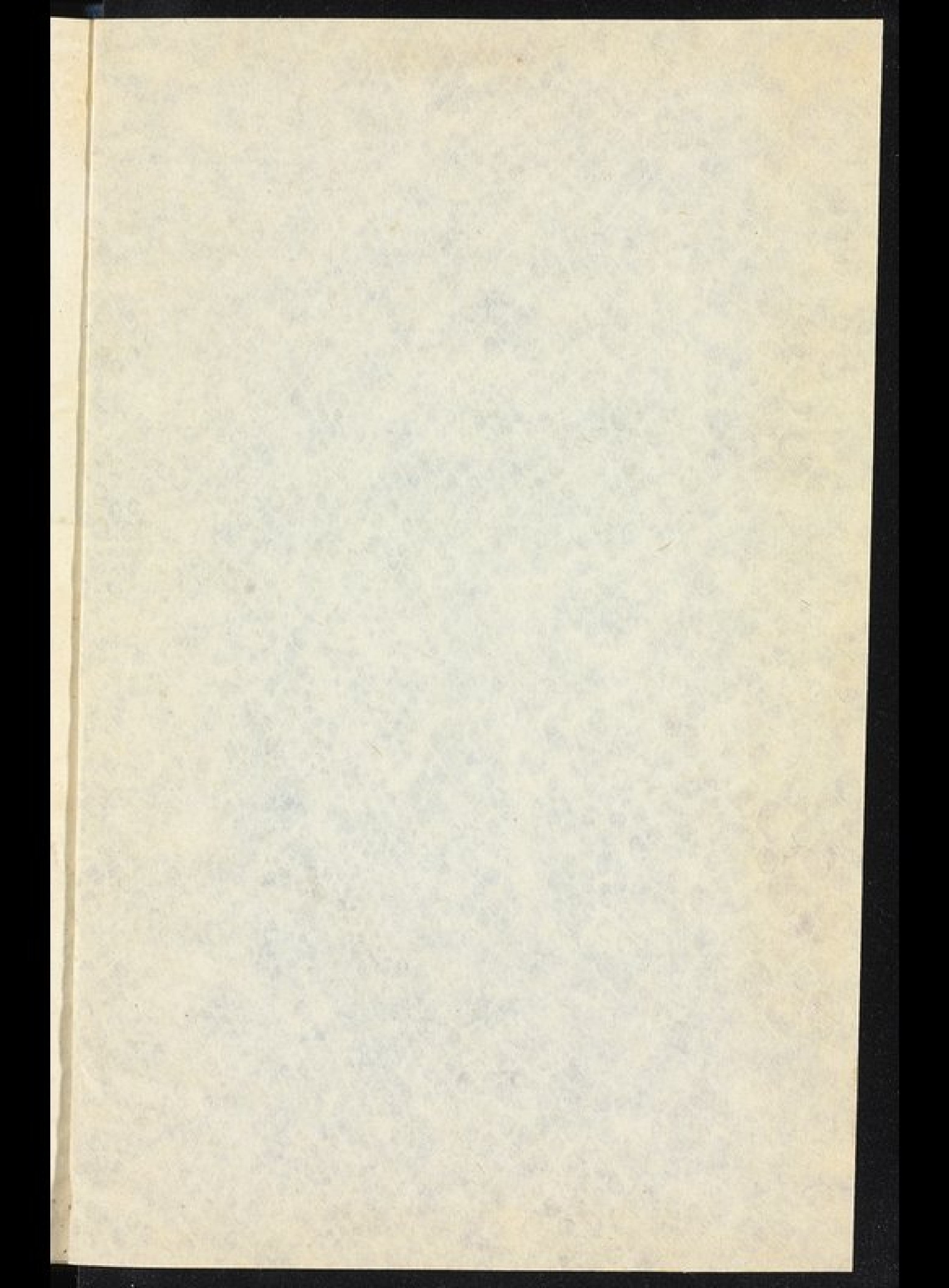
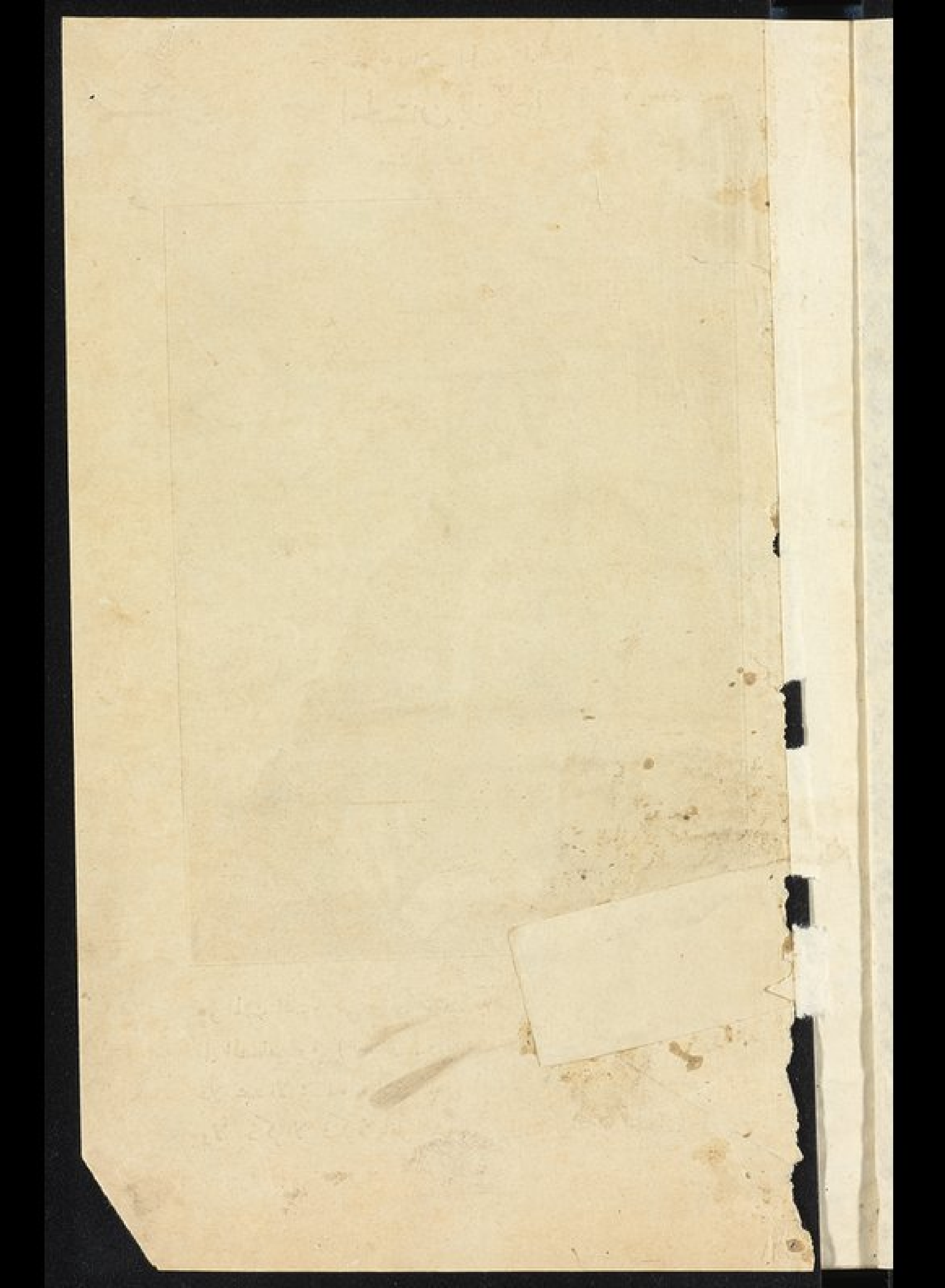






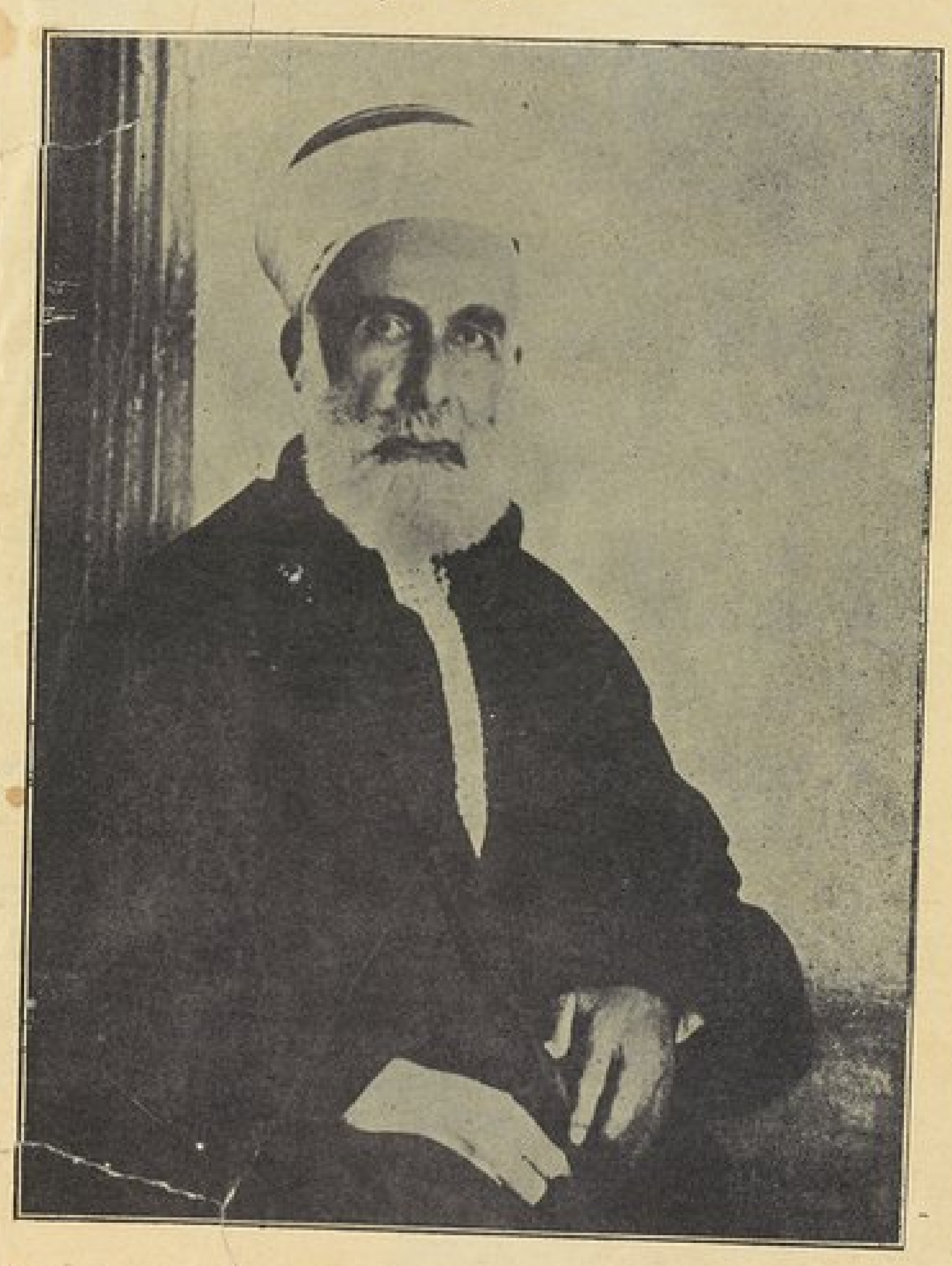




حضرة صاحب الجلالة الهاشمية

الحسين بن علي

ملك العرب الأكبر



هو الملك المختار من خير هاشم ... على عرشه يسمو بمجدٍ الى جدّ

الى المصطفى يرقى (الحسين) وانه ... على فضله أهل المفاخر والمجد

فلا مجد الا مجده صادق العلى ... ولا جد الا جده صادق الوعد

ولا ذكر الا ذكرهُ عاطر الشذا ... يؤرجُ (تذكار الحجاز) على البعد

المؤلف

تذكار الحجاز

(خطرات ومشاهدات في الحج)

بقلم

الحاج عبد العزيز صبري بك

من الجيارية — مركز المنصورة

١٣٤٢

المطبعة السلفية - بمصر

لصاحبيها : محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله .
والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله ومصطفاه . وعلى آله وصحبه وذريته ومن والاه

أما بعد فقد حملتني الروح على أجنحة العزيمة . بفطرتها السليمة .
الى حج البيت العتيق . في مكانه السحيق . وما كان لاحد من فضل عليها . في هجرتي التي دعاها الله اليها . ولا لمخلوق منة فيما همت به من الوفاء . لخالق الارض والسماء

هي التي تشد الرحال . وتطير لادراك المحال . لها القوة الخارقة على اختراق أبعد المجاهل . لورود أعذب المناهل

فقد خرجت بي أنا الضعيف (المعروف) . عن حد المألوف .
وقد كنت فى عرف عشيرتي الاقربين . واحداً من (المتمدنين) .
ولكن خاب فألهم . وكذب نقلهم . وطارت بي الراضية المرضية .
الى بلوغ كمال الامنية . وهجرت بي متاع الغرور . فهاجرت الى البيت المعمور ولم أحسب . لمتاعب الجسد حسابا . ولا للدنيا مآبا . بل شق على الروح في الحياة هذا الالم . من قراع الندم . وما اقترفته النفس

اللوامة في معارك الندامة . وما اجترمته من اللمم . في مصارع الهمم . وشاقها الوقوف بين يدي ربها . في طهارة من جلبابها . ولم يكن لي عليها من سلطان . ولا في قدرتي لها عصيان . بل كانت هي الآمرة الناهية . في اجابة القوة الداعية . وانتبذت بي مكاناً قصياً . كانت به ارادتي نسياً منسياً . فما زالت تقذف بي براً وبحراً . وعامراً وقفراً . حتى استقرت واستقر بها النوى . وخمدت بين الضلوع نار الجوى

هذه الروح الطائرة . قد لذت لها ذكرى الايام الغابرة . فدوى صوتها في اعماق الوجدان « على رسلك أيها الانسان » . « قل اللهم مالك الملك . تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء . بيدك الخير انك على كل شيء قدير »

أيتها الروح : نعمى لك في الطائفين . ومرحى بك في العاكفين. أنت لي دائماً نعم الرفيق . وفي الملمات أوفى صديق . ونبراسي الى طريق السلامة . وسياجي في منعة الكرامة . انت الجمال الذي ملك جميع مشاعري . والكمال الذي أدين له بكل مفاخري

لا فخر لي ياذات البهاء الساطع . والسناء اللامع . الا يقيني انك البقية الطاهرة . والباقة العاطرة . في هيكل جثماني . أنا الفاني

أنت أنت الروضة الفيحاء . والجنة الزهراء . التي أسرح في جنباتها وأمرح . والهو بزهرها وأفرح . أكاد لا أرى في الدنيا حياة رغيدة . الا اذا كنت أنت السعيدة . لمطالعك المشرقة على النفس .

بهجة تزدري بمطالع الشمس . وكم لمسراتك في الفؤاد . من أثر يحرك الجماد

وأنت أنت النار الموقدة . التي تطلع على الافئدة . فكم أحرقتني بالسنة التأنيب . وآلمتني باسنة التعذيب . فلم ترحمي ضعفي وعيائي . ولم تشفقي على آلامي وبكائي . وكم أثرت في نفسي . حرباً على نفسي . ونصرت فيها جنود اليقين . على جنود الشياطين

اليوم وقد ملكت زمامي . وأسعدت أيامي . وبلغت ما تشتهين . وفزت في بيت الله بما تحبين . ألا تجدين ان خير ما يهتف به الجنان . ويذكره اللسان . هو ذكر المآثر . ونشر المفاخر

اليوم وقد عدت الى مسقط الراس . ومرتع الامس . وقرب الاهل والولد . والدنيا في هذا البلد . الا يجمل بى ان أسطر كلمات بايجاز . في (تذكار الحجاز)

نعم ينبغي ان يعرب اللسان عما يكن الجنان . من ذكريات عزيزة على القلب . وصور منشورة فيه على صحائف الحب . ومحاسن تبعث فيك شوقاً جديداً . وأملاً عتيداً . وحباً شديداً

تلك أيام مضت في لذة العيش والمقام . بين زمزم والمقام . والنظر الى الحمائم المرفرفة . حول الكعبة المشرفة . والتأمل والتحديق . في مسارح البيت العتيق . والسباحة في غمار الطائفين . والخشوع بين صفوف القانتين . ومشاهدة الانوار . ومناجاة الابرار . تحت الاستار . في العشية والابكار . وسبحان مقلب الليل والنهار

فالى القلوب الذاكرة ، والارواح الطاهرة ، والنفوس الكريمة . والعقائد السليمة ، والسجايا الشريفة العالية ، والاخلاق الاسلامية السامية . أتقدم بهذا الكتاب . تذكرة لأولى الالباب

سطور سطرها القلم الضعيف . في سبيل الوفاء للدين الحنيف . فلم أكتب الا ما أملاه الوجدان . ليكون ذكرى للمسلمين في هذا الزمان . لعلهم يذكرون واجبهم نحو هذا الدين . وان الذكرى تنفع المؤمنين

فيا أنصار مجد الاسلام . الذي كان له اسنى مقام . اليكم القول الصريح . وعبرة التاريخ الصحيح . فيما آل اليه دين الحق والكمال . من النبذ والاهمال . وانهدام صرح الجامعة الاسلامية . بمعاول العناصر الاجنبية . حتى صار المسلمون فى الارض شيعاً . وأصبحوا لغيرهم تبعاً . لانهم صدعوا منعة الدين فتمزقوا . والله تعالى يقول « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . »

أين المجد الذي كان يطاول السماء . أيام الراشدين من الخلفاء ؟ بل أين الهيبة الاسلامية . التي كانت شعار الدولة العربية ؟

لم يبق الا ذكرها بخالج النفوس . فلا نحسن بعدها الا طأطأة الرؤوس . واحتساء الكؤوس . واجتلاء العروس . وبئس حال أمة قلوبها خربت ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت

لا أريد أن أشق عليكم . بل أنتهي بتقديم هذا الكتاب اليكم . وهو مقالات في الحج هذا العام . وتاريخه في الجاهلية والاسلام .

مصدراً بكلمة في تاريخ العرب . لارتباطه بتاريخ الحج في النسب

وما دعاني الى التوسع في تاريخ هذه الامة . والمقام لا يسع مثل هذه المهمة . الا رغبتي في تمام الالمام . بما خلدت من الاثر في مجد الاسلام. والتاريخ شاهد عدل . على ان للعرب فى الاسلام كل الفضل. وان الدولة الاسلامية لم تكن الا بهم . وان دين الحق لم ينتصر الا بغلبهم . حتى دارت الايام دورتها . وصالت العناصر الاجنبية صولتها. وحل بالدولة ما حل . من تشتت وانحطاط وذل

هذه شهادة التاريخ على مر الايام . يدعونا الى الصراحة بها دين الاسلام . ومن شهد بالحق فقد كفاه ربه . لانه تعالى يقول : « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه . »

وفى الكتاب الذى بين أيديكم . دليل الى الحقيقة يهديكم . ولا تنكروا للوارثين آلاءهم . فالله تعالى يقول : « ولا تبخسوا الناس أشياءهم . »

هدانا الله الى طريق السداد . انه رؤوف بالعباد

عبد العزيز صبرى



الى صاحب الجلالة الهاشمية ملك العرب الاكبر

يتقدم الى سدتكم المهيبة واحد من أبناء مصر شقيقة الحجاز يحمله عرفان الجميل بهذه الكلمة الخالصة معبراً بها عما يخالج نفسه من شكر واعجاب وود ووفاء ورجاء

فأما الشكر فعلى ما قلدتم به اعناقنا من قلائد الكرم والرعاية والفضل يوم انزلتمونا في اكنافكم منزلا مباركا وما آتيتمونا من كمال العناية والاكرام ، ما اثلجتم به صدورنا انشراحاً . وافعمتم به قلوبنا افراحاً . واطلقتم به السنتنا ثناء وارتياحا

وأما الاعجاب فيما شهدناه وآنسناه من آثار النهضة العالية التي كنتم ليثها الغضنفر وسيفها المظفر ، تلك النهضة العربية التي لمسنا فعلها ناطقا بآيات الامان والسلام . ولواءها مرفرفا على ربوع الحجاز الطاهرة مناديا في ساحاتها الزاهره : « كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »

وأما الود ففيما فتحتم له قلوبنا من اخلاق برئت مما يعيب وشمائل تسري مع النسيم غماما نديا ينزل على أديم النفوس فينشر فيها اكمام الاخلاص والحب

واما الوفاء لكم فخلق أشربت به كل نفس اخلصت في ودها وانتم خير من يخلص في حبه الاوفياء

واما الرجاء فالى الله سبحانه وتعالى ان يقدركم على بلوغ غاية الكمال والاسعاد . في طريق السداد . وان يلهمكم دائماً العمل الناجح لخير الاسلام والمسلمين . وصون الحرمين الشريفين من عبث العابثين

اتقدم بهذه الكلمة الصادقة الى اعتاب جلالتكم السامية مسطورة على صفحات هذا الكتاب . الذى ارفعه الى سدتكم الهاشمية الجليلة ـ هدية صغيرة على قدر مهديها . وما أردت بها الاّ اظهار ما يكنه صدري من عواطف الاجلال والوفاء لعلي أكون قد اديت بعض ما يجب من فروض الاخلاص لعرشكم المنيف . أدام الله للاسلام مجدكم . وابقى للعرب والمسلمين كافة عزكم ونصركم آمين

من عبدكم الخاضع

عبد العزيز صبري



تذكار الحجاز

وذكرى للمسلمين

لله تذكار الحجـاز .. فمكة ... ومقام ابراهيم والحرمان
ارض بهـا نشأ النبي محمـد ... وترعرع الاسلام في احضان
ارض بهـا نزل الامين بوحيه ... من ربه لهـداية الانسان
ارض بها البيتُ العتيق وساحة ... خصّت بخير عبادة الرحمان
ولقد نعمت بقربها وتمتعت ... نفسي باطهر بقعة ومكان
فجرت بي الذكرى الى ذكرى العلى ... والفضل والعرفان والاحسان
ذكرى (النبي محمد) وجهاده ... أهلَ العناد وشيعة الكفران
ذكرى المحامد من (ابي بكر) الى ... (عمر) خليفته الى (عثمان)
والى (علي) صاحب السيف الذي ... نصر الهـدى بالعلم والايمان
ذكرى جهاد الراشدين ومبعث الـ ... ـمجد الرفيع وعزة السلطان
ذكرى محاسن اشرقت في خاطري ... وتهللت بجمالها الروحاني
أبصرتها في كل ليل انجماً ... ترنو الى البيت العظيم الشان
ولمحتها في كل فجر اعيناً ... مابين زمزم والحطيم تراني
فنهلت من ورد الخواطر نهلة ... اشهى من السلسال للظمآن
ودعوت ربي ان يعيد مفاخر ... الاسلام تشرق في ذرى الاكوان
ويعز شأن العاملين لمجده ... والقائمين به مدى الازمان
ويزيد ملكك يا (حسين) مهابة ... ورعاية في منعة وامان

فلقد نصرت الدين نصرة عادل ... ان الجزاء بحكم القرآن
« ان تنصروا الله » ابتغاء هداية ... « ينصركم » حقا على الديان
وقضيت بالشرع المنيف عدالة ... بين الرعية وهو خير ضمان
ونشرت الوية السلام على الحجا ... ز فصار يخفق فوقك العلمان
علم الهدى الموروث بعد محمد ... في آل هاشم من بني عدنان
يزهوبه علم على الملك الذي ... بالعدل اضحى ثابت الاركان

***

قالوا خرجت على (الخلافة) تاركا ... (للانكليز) حماية الاوطان
ولو اهتدوا علموا بانك آخذ ... حقا قديما ليس في الحسبان
ما لام غير الجاهلين لانهم ... حسبوا النهوض خيانة (الخاقان)
ولو انتهوا من غيهم لتبينوا ... وجه الحقيقة ناطقا بلسان
(ان الخلافة منعة الاسلام لا ... ان الخلافة في بنى عثمان)

***

أفهل غدا شرف الخلافة لعبة ... في كف لاعبة من الحدثان
أم هل غدا نهباً يمزق عرضه ... حراسه بقواطع البهتان

***

آمنت من خلع الخليفة بالذى ... قد كان اذ ما كان غير جبان
لكنهم جاؤا لنا بخليفة ... جعلوه مثل (البطرق الروماني)
سلبوه (سلطان الزمان) لأنهم ... خافوا تحكم ظالم خوان
ولو اهتدوا تركوا له سلطانه ... متأيدا بفوارس الميدان

ووفوه بالرأي السديد فاصلحوا والرأى قبل شجاعة الشجعان
لـكنهم من رنة السيف الذي قطعوا به يوماً يد اليونان
سكروا بخمرة نصرهم فتدافعوا متحمسين بسورة النشوان
ظنوا الخلافة منصباً للترك أو ان الخلافة مصدر الخسران
خلعوا الخليفة وهو ظالم نفسه لـكنهم لم ينصفوا في الثاني
غلوا يديه بقيدهم وكانهم خلعوه بالتقييد والحرمان
والامر امر المسلمين وقد غدا هذا الخليفة غير ذاك (الخان)

* * *

اما (الحسين) فما اراد خيانة بل نهضة ترقى الى العمران
فالاتحاديون باستخفافهم بالعرب كانوا مبعث العدوان
حملوهمُ فوق الاسنة مركباً بعدائهم فضوا بكل سنان
حتى اذا ولوا بشر هزيمة في الشام يوم إذ التقى الجيشان
و (جمال) يضرب بالمشانق امة عربية تأبى المساق لجان
قطع الصلات عن الحجاز فاحرقت نار الجفاء اضالع العربان
ورأوا يدا ممدودة بمعونة وقد انقضت بجياعهم عامان
جاءوا بواد غير ذي زرع وهل يأبى الجياع معونة المعوان
قبلوا صلات الانكليز وانها ليست صلات مذلة ودهان
كلا ولا للانكليز حماية بصلاتهم بل نجدة الاعوان
طرفان معترك الحياة دعاهما لتعاهدٍ فتعاهد الطرفان
لو كان للاتراك رأى عدوهم لم يقطعوا صلة مع الاخوان

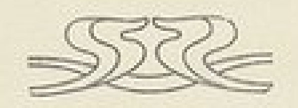
ولما اضاعوا مجدهم ودماءهم هدراً فداء مطامع الالمان

***

يافتية الاتراك حسبكمُ الذي أخنى على من قبلكم بهوان
لم ينصفوا اخوانهم فى الدين بل فصموا رباط مودة الأقران
واذا بهم في الحرب لم يجدوا لهم غير العداء ومورد الخذلان
لاتجعلوا هذا الطريق سبيلكم للمجد ان المجد في الاحسان
مدّوا يداً بالاتحاد كريمة للمسلمين فكلهم متدان
وخذوا من العرب النصير فانهم خير الرجال ونخبة الفرسان

***

ملكَ الحجاز وانت قرّة هاشم مرْحَى بمُلكك شامخَ البنيان
مُلكٌ على الاسلام اصبح قائماً ومكللاً بجواهر العرفان
لازلت بالشرف الرفيع متوّجاً ومؤيداً بالعدل والايمان
واعزّ بالحرمين عرشك دائماً وحباك فى الاسلام خير اماني
وادام نصرك في العلى حتى ترى كل العدى خرّوا الى الاذقان



نبذة في تاريخ العرب

(١)

بلاد العرب

١ — حدودها

اذا اريد ببلاد العرب جزيرتهم فحدودها الطبيعية أربعة: الشرقي الشمالي يبدأ من الجنوب الى الشمال بخليج فارس من شواطيء عمان فالبحرين الى مصب الفرات ودجلة ثم على طول الفرات الى أعالي سوريا والغربي الشمالي يمتد من الفرات شرقي سوريا الى فلسطين الى خليج العقبة. والشرقي الجنوبي على طول البحر الاحمر الى باب المندب والجنوبي الغربي هو بحر العرب على شواطيء اليمن وحضرموت والشحر الى شواطيء عمان حيث ابتدأ الاول

والعرب يدخلون في جزيرتهم برية سينا وفلسطين وسوريا فحدودها عندهم تبدأ من الشمال من قنسرين على شاطيء الفرات ويمتد مع الفرات في مجراه جنوباً بشرق حتى يصب في البحر عند البصرة والابلة ومنها الى خليج فارس دائراً حول سفوان والقطيف وهجر واسياف البحرين وقطين وعمان ثم ينعطف الى الغرب فالجنوب بشواطيء بحر العرب على الشحر وحضرموت الى عدن ثم ينعطف

الى الشمال الغربي على شواطيء البحر الاحمر الى خليج الابلة وساحل راية الى القلزم (السويس) ومنها الى بحر الروم (الابيض المتوسط) ويسير على شواطيء فلسطين وسوريا فيمر بسواحل عسقلان والاردن وبيروت الى قنسرين حيث بدأ . فحدود الجزيرة عندهم باشتمالها على سينا وفلسطين وسوريا أقرب الى التحديد الطبيعي لان الاصل في الحدود أن تكون انهاراً أو أبحاراً أو جبالاً

على أنه اذا اريد ببلاد العرب البلاد التي يسكنها العرب على الاطلاق فحدودها تختلف باختلاف العصور والدول فقد كانت في الزمن القديم تمتد من ضفاف الفرات شرقا الى ضفاف النيل غربا لان بعض قبائلهم كانت على عهد الفراعنة تضرب خيامها في البادية بين النيل والبحر الاحمر وكان المصريون يعتبرون كل ما هو شرقي الى حدود بابل بلاداً واحدة يسكنها العرب

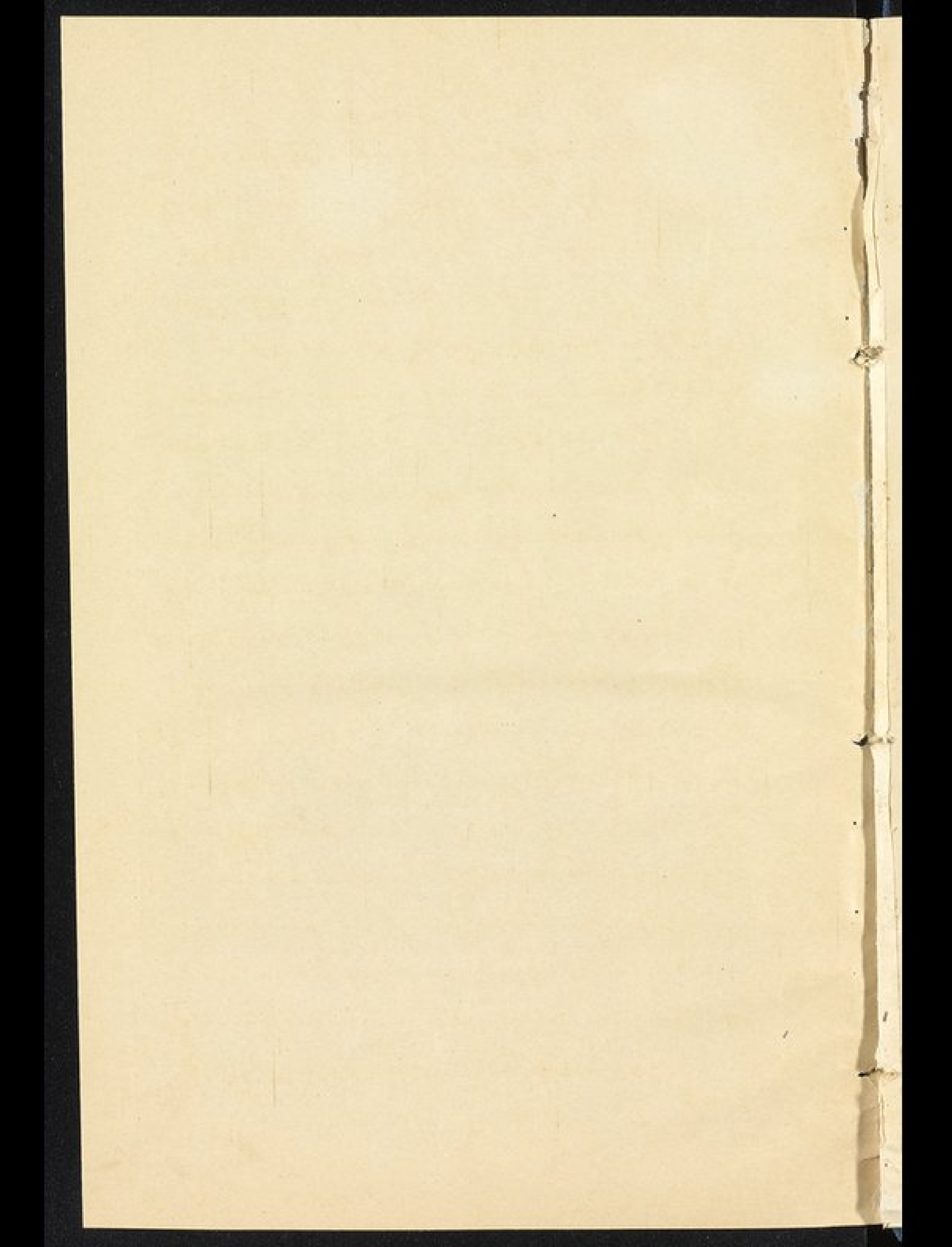
٢ — أقسامها

واختلفت أقسامها أيضا باختلاف الاعصر فكانوا يقسمون الجزيرة قديما باختلاف طبائع أقاليمها : (البادية) في الشمال و (الحاضرة) في الجنوب . فالاولى تشتمل على القسم الشمالي من الجزيرة من مشارف الشام الى حدود نجد والحجاز . والثانية تشمل القسم الجنوبي وهو سائر جزيرة العرب وفيها الحجاز ونجد واليمن وغيرها . واضاف اليونان قسما ثالثاً سموه (بطرا) الحجرية في وادى موسى جنوبي فلسطين . فكانت بلاد العرب عند بطليموس القلوذي ثلاثة أقسام :

البادية والحجرية والسعيدة . ومما ذكره من مدنها في البادية : تيماء وحويلة ودومانة (دومة الجندل) وحوران . وفي الحجرية : بطرا وبصرى وجرش وعَمان واذرع وليزا . وفى السعيدة : سبا ومأرب وظفار وحضرموت وعُمان والحجر وغيرها

اما العرب فيقسمونها الى اقسام طبيعية باعتبار الاقاليم واساس تقسيمها عندهم (جبل السراة) وهو اعظم جبال الجزيرة لانه سلسلة جبال تمتد من اليمن الى اطراف بادية الشام شمالاً فتجعل الجزيرة شطرين غربيا وشرقيا . فالغربي ينحدر من سفح ذلك الجبل ويمتد حتى يصل الى شاطيء البحر الاحمر فصار هابطاً أو غائرا فسموه الغور أو تهامة. والشرقى يمتد صاعداً شرقاً الى مسافة طويلة على ارتفاعه الى اطراف العراق والسماوة فسموه نجدا . وسموا الجبل الفاصل بين تهامة ونجد (الحجاز) وهو جبال تتخللها المدن والقرى . وجعلوا ماتنتهى به نجد في الشرق الى خليج فارس بلاد اليمامة والبحرين وعُمان وما والاها ويسمونها العروض وسموا القسم الجنوبى وراء الحجاز ونجد بلاد اليمن وحضرموت والشحر

فجزيرة العرب تقسم بهذا الاعتبار الى خمسة اقسام كبرى : الحجاز وتهامة ونجد والعروض واليمن . وكل منها يقسم الى اقسام فالحجاز يشمل كل شمالي جزيرة العرب والطائف وجدة ورابغ وينبع وغيرها وفيها تهامة . ونجد يشمل القسم الشرقي فيما وراء الحجاز . واليمن يشمل معظم بلاد الجنوب ويمدون حضرموت والشحر منها واشهر مدنها



حضرة صاحب السمو الملكي الجليل

الامير علي بن الحسين

ولي عهد المملكة الهاشمية وأمير المدينة المنورة



(عليّ) الرضى حامي حمى حرم الجد — (ولي) الندى والفضل والنبل (والعهد)

أمير من الفرع العليّ وأصلهُ — علي وان الفرع والاصل كالعقد

أحييه من وادي الكنانة انه — كريم السجايا يملك القلب بالود

المؤلف

(٢)

من هم العرب ؟

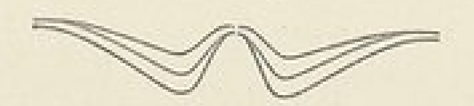
اذا قيل (العرب) اليوم فالمراد بهم سكان جزيرة العرب او العراق والشام ومصر والسودان والمغرب . أما قبل الاسلام فكان المراد بالعرب سكان الجزيرة فقط . لان أهل العراق والشام كانوا من السريان والكلدان والانباط واليهود . واهل مصر من الاقباط واهل المغرب من البربر والفندال واهل السودان من النوبة والزنوج

فلما ظهر الاسلام وانتشر العرب في الارض توطنوا هذه البلاد . وغلب لسانهم ونسلهم على اهلها الاصليين فصاروا عرباً .

أما في التاريخ القديم على عهد الفراعنة والاشوريين والفينقيين فكان يراد بالعرب اهل البادية من القسم الشمالى من جزيرة العرب الى شرقى وادي النيل في البقعة الممتدة بين الفرات في الشرق والنيل في الغرب ويدخل فيها بادية العراق والشام وسينا ومايتصل بهامن شرق الدلتاوالبادية الشرقية بمصر بين النيل والبحر الاحمر . وكان وادى النيل هو الفاصل الطبيعي بين (ليبيا) في الغرب وبلاد العرب في الشرق وكان المصريون يسمون الجبل الشرقى الذي يحد النيل فى الشرق (جبل العرب) او بلاد العرب ويسمون الجبل الغربي جبل ليبيا

ولفظ (عرب) فى التاريخ القديم كان يرادف لفظ (بدو) أو (بادية) في هذه الايام وهو معنى هذا اللفظ في اللغات السامية . ومنها

فى العبرانية (البادية) يقابلها في اللغة العربية (العرابة) في وادي موسى. والاعراب سكان البادية خاصة . ولا مفرد لها . على ان العرب كانوا يسمون جزيرتهم (عربة)[١] . ولما تحضر بعض قبائل العرب قديماً وأقاموا في مدن اليمن والحجاز وحوران وغيرها لم يعد لفظ العرب محصورا في البدو وتنوع معناه كما تنوع مسماه فجاؤا بكلمات تميز بين العربين فاستعملوا لفظ (الحضر) لاهل المدن (والبدو) لاهل البادية. ولم يعد للفظ العرب من معنى البداوة الآن الا في مثل قولهم (أعرابي) وهو البدوي نسبة الى اعراب المفردة كما تقدم. وكان أهل سبأ الى تاريخ الميلاد اذا ذكروا بعض قبائل الحضر وبدوها قالوا «القبيلة الفلانية واعرابها» . وكان اولئك العرب أو البدو سكان تلك البادية فى شمال الجزيرة يقسمون الى قبائل وبطون وعمائر كما كان حالها قبل الاسلام وبعده



(١) ياقوت ص ٦٣٣ ج ٣

(٣)

العرب العدنانية

ويراد بعرب الشمال على الاجمال (الاسماعيلية) أو (العدنانية) فى اصطلاح كتاب العرب ومنازلهم شمالى بلاد اليمن في تهامة والحجاز ونجد وما وراء ذلك شمالا الى مشارف الشام والعراق. وهم يرجعون بانسابهم الى اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليهما السلام. وحكاية اسماعيل عند العرب تتفق ورواية التوراة من خروج اسماعيل وامه هاجر الى برية بئر سبع وسكناه فى برية (فاران). وان أولاده آباء القبائل التي أقامت ما بين (حويلة) الى (شور) وحويلة خولان في شمالي اليمن وشور عند برزخ السويس وبينهما الحجاز ونجد وتهامة ومدين وسينا. الا أن العرب يجعلون المكان الذى أقام فيه اسماعيل وامه (مكة) بدل (فاران) المذكورة في التوراة. وانه تزوج فيها امرأة من بنى جرهم أصحاب مكة فى ذلك العهد فولدت له اثنى عشر ولدا. وانه كان راميا بالقوس شأن أهل البادية. وبرية فاران أو جبل فاران كلاهما عند العقبة شمالي جزيرة سينا فى رواية التوراة. ويسهل تطبيق الروايتين اذا علمنا أن جبال مكة أو جبال الحجاز تسمى أيضا (فاران) (١). فيكون المراد أن البرية التى أقام فيها اسماعيل هى برية الحجاز أو أنه أقام حينا فى سينا ثم خرج الى الحجاز وسكن وتزوج فيها

---

(١) المشترك لياقوت ص ٣٢٧

وأقدم ما ذكره العرب من أخبار الاسماعيلية أن اسماعيل لما نزل مكة (بعد نزول ابيه ابراهيم من قبله لما بنى الكعبة) كان فيها بقية من جرهم وآخرهم مضاض بن بشير فتزوج اسماعيل من بناتهم وتناسل فيهم

ولم تذكر التوراة اسماعيل بعد خروجه من بيت ابيه الا عند حضوره دفنه على عادتها في الاختصار في ذكر مايخرج عن تاريخ امة اليهود أو ديانتهم

وأولاد اسماعيل هم العرب الاسماعيلية ويسمونهم (المستعربة) لانهم دخلوا فى العرب بدخول ابيهم وهو ليس منهم كما كان القحطانية في اليمن قبلهم

وأشهر أولاد اسماعيل (قيدار) الذي توَّجه اخواله (جرهم) وعقدوا له الملك عليهم بالحجاز وأسمه وارد في التوراة . وتناسل من قيدار اعقاب كثيرة حتى ولد (عدنان) والعرب مختلفون في عدد الآباء بين اسماعيل وعدنان . قال بعضهم انهم اربعون وقال آخرون غير ذلك ولا محل للبحث في هذا الاختلاف هنا

ومن عدنان تناسل العرب العدنانية . فولد عدنان عكاً ومعداً ومعد هو أبو القبائل العدنانية . وأولاده نزار وقنص وولد نزار انمار ومضر وقضاعة وربيعة وإياد . وجاء من مضر آباء قريش

وكانت العرب العدنانية بادية اقامت فى تهامة والحجاز ونجد الا قريشا فقد تحضروا فى مكة

(٤)

حضر العدنانية فى مكة

اختلف المؤرخون فى أصل اسم (مكة) وترجح أنه بابلي لان (مكا) فى لغة بابل معناه (البيت) وهو اسم الكعبة عند العرب . يدل ذلك على قدم هذا البلد كأنه سمى بذلك من عهد العمالقة على أثر هجرتهم من بين النهرين فسموا المكان بهذا الاسم اشارة الى امتيازه بالبناء الحجرى عن سائر ما يحيط به من البادية . واختلفوا أيضا فى بدء بناء مكة كما اختلفوا فى الامم التى توالت عليها . والاشهر ان أول من سكنها العمالقة ، قلوا وخلف العمالقة عليها جرهم وهي فرقة من القحطانية نزحت من اليمن قديما . وجاءها ابراهيم واسماعيل عليهما السلام كما تقدم ، ثم الازد بعد سيل العرم . ثم خزاعة فكنانة فقريش

اقامت الاسماعيلية والجرهمية معاً فى مكة وما يليها حتى جاءتهم خزاعة وهى طائفة من عرب اليمن ورئيسها عمر بن لحي ونزلت مكة واخرجت جرهما منها . وعمرو بن لحي هذا مشهور بادخال الوثنية على عرب الحجاز واليه ينسبون كثيراً من أوابد الجاهلية . وفى الحديث النبوي الشريف « رأيت عمرو بن لحى يجرُّ قصبه في النار » يعنى احشاءه

وقلوا ليست خزاعة وحدها التى اخرجت جرهما من مكة وانما

استعانت على ذلك بكنانة وهي بطن من مضر وفرت جرهم الى اليمن ثم تنازعت خزاعة وكنانة ، وغلبت خزاعة واستقلت بأمر الكعبة وجعلت لمضر اعمالا تتولاّها في الحج وهي الاجازة بالناس يوم عرفة والافاضة بهم غداة النحر . والجمع الى منى ونسيء الأشهر الحرم

واقامت خزاعة وكنانة على ذلك مدة والولاية لخزاعة . وقد تشعبت بطون كنانة ومضر وصاروا احياء وبيوتا متفرقة يقيمون بظواهر مكة

قصي بن كلاب

جد بني هاشم

ولقصي بن كلاب شأن كبير في تاريخ مكة لانه احدث فيها امورا هامة تعتبر بدأ تاريخ قريش كما يظهر فيما يلي :

خلف كلاب ابنه قصياً في حجر امه وهي بعنية فتزوجها ربيعة بن حرام من عذرة فاحتملته الى بلاد بني عذرة وكان لها من كلاب ولد آخر اسمه زهرة تركته في مكة . ولما شب قصي وعرف نسبه عاد الى قومه . وكان وليّ الكعبة يومئذ رجل من خزاعة اسمه حليل بن حبشية فاعجب بقصي وزوجه ابنته فولدت له عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبد قصي . ومات حليل وقد انتشر ولد قصي وكثر ماله وعظم شرفه . فرأى قصي انه احق بولاية الكعبة ومكة من خزاعة

وكان حليل قد اوصى بها له قبل مماته

فأبت عليه خزاعة ذلك فمشى برجالات قريش ودعاهم الى نصرته فاجابوه وكتب الى اخيه رزاح من امه فى عذرة مستجيشا بهم فقدم مع اخوته من ربيعة ومن تبعهم من قضاعة لنصرة قصي . ووقعت بسبب ذلك حروب ومنازعات انتهت بولاية البيت لقصي واستقر بمكة وجمع قريشا في منازلهم بين كنانة الى مكة . وقطعها ارباعا فانزل كل رهط منهم في منزله وكأنه نقلهم من البداوة الى الحضارة . وكان ذلك في اوائل القرن الخامس للميلاد

فقصي اول من اصاب من عدنان ملكا اطاعه فيه قومه فصار له لواء الحرب وحجابة البيت . وتيمنت قريش برأيه فصرفوا مشورتهم اليه فاتخذ (دار الندوة) ازاء الكعبة لمشاورتهم وجعل بابها الى المسجد فكانت مجتمع الملأ من قريش في مهماتهم ، ثم تصدى لاطعام الحجاج وسقايتهم باعتبارهم أضياف الله وزوار بيته ففرض على قريش خراجا يؤدونه اليه لذلك وكانوا يردفونه به زيادة على ذلك فحاز شرفهم كله وكانت له الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء

ولما أسن قصي وكان بكره عبد الدار ضعيفا ، فاوصى له ثم هلك قصي وقام بامره بنوه من بعده . واقاموا على ذلك مدة وسلطان مكة لهم ثم ظهر بنو عبد مناف على بنى عبد الدار وزعيمهم في ذلك عبد شمس اسن ولد عبد مناف

وانقسمت قريش بين هذين البطنين وأجمعوا للحرب وتأهبوا

لها ، ثم تداعوا للصلح ، ورضي بنو عبد الدار أن تكون لهم السقاية والرفادة واختص بنو عبد مناف بالحجابة واللواء وتحاجز الناس

فلما دنت وفاة عبد مناف أوصى بالسدانة (الحجابة) لهاشم دون عبد شمس . وكان لعبد شمس ولد اسمه (أمية) جد بني أمية فحسد عمه هاشما على الرئاسة فآل ذلك الى المنافرة فكره هاشم أن ينافر ابن أخيه . فلم تتركه قريش حتى نافره على خمسين ناقة والجلاء عن مكة عشرين سنة . فرضي أمية وتحاكما الى كاهن خزاعي كان يقيم بعسفان ، فقضى لهاشم بالغلبة فاخذ هاشم الابل فنحرها واطعمها وغاب امية عن مكة بالشام عشرين سنة حسب الشرط وكانت تلك اول عداوة وقعت بين هاشم وامية توارثها اعقابهما حتى ظهرت في الاسلام . وتولى الكعبة بعد هاشم ابنه عبد المطلب جد النبي ﷺ

(عبد المطلب وواقعة الفيل)

وولد لعبد المطلب عشرة أولاد منهم عبد الله والد النبي عليه الصلاة والسلام . وست بنات : وفي ايامه حصلت واقعة الفيل المشهورة وعرف عامها بعام الفيل . وسببها معروف في التاريخ من ان ابرهة الحبشي لما بنى (القليس) واراد ان يجعلها حجاً للعرب ليصرف الناس اليها عن الكعبة . فتحدث العرب بذلك وغضب رجل من بني فقيم فذهب الى القليس ونجسها بالاقذار فلما علم ابرهة ان الذى فعل ذلك من

اهل الكعبة غضب وحلف ليسيرن الى الكعبة ويهدمها وتجهز وركب هو على فيل اسمه محمود ووراءه عدة افيال على عادة الاحباش . ولما تسامع العرب خبر حملته على مكة تنافروا من طريقه حتى دنا من مكة فبعث رجالا انتهبوا اموال اهلها وفيها مائتا بعير لعبد المطلب سيد قريش وانفذ رسولا اليه يقول « لم آت لحربكم بل لهدم الكعبة » فطلب عبد المطلب مقابلة ابرهة فلما لقيه قال له « لم آت لاحمي الكعبة فان لها ربًا يحميها وانما جئت لأطلب ابلي » فردها اليه فرجع الى قريش وأمرهم أن يخرجوا من مكة ويتحرزوا في الجبال

اما ابرهة فحدث في معسكره اضطراب واصيب قومه بالوباء قيل انها طير خرجت من البحر يقال لها أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ، فتراجعوا عن مكة وزادت الكعبة بذلك تشريفا

ورجع عبد المطلب الى مكة في قومه وقد زاد رفعة واعتزازا واستخرج من بئر زمزم تمثالين من ذهب واسيافا كانت جرهم قد دفنتها فيها عند خروجها . فضرب عبد المطلب التمثالين حلية للكعبة وضرب الاسياف باب حديد لها

وكانت منزلة قريش من سائر قبائل العرب منزلة السيادة فكانوا لا يؤدون أتاوة ولا يتكلفون دفاعا . يحكمون على الناس ولا يحكم عليهم احد

(٥)

حكومة العرب في الجاهلية

المراد بالعرب بنوع خاص عرب الحجاز وبالأخص قبيلة قريش لأن فيها ظهر الاسلام وبها قام التمدن الاسلامى وسار فى أقطار الأرض

والحكومة فى الجاهلية متشابهة عند سائر أهل البادية فان المصالح التى تمد عند أهل التمدن بالعشرات تجتمع عندهم فى شخص الامير . فهو الملك والقاضي وصاحب بيت المال وقائد الجند

وكانت السيادة في أهل مكة لسادن الكعبة . ولما أفضت السدانة الى قريش صارت السيادة لهم فى كل شيء

وكانت الكعبة مصدر ارتزاق أهل مكة ولولاها لم يستطيعوا المقام في ذلك الوادي وهو غير ذي زرع

ونظراً لكثرة أسفارهم واختلاطهم بالعالم فى أطراف العراق والشام صاروا أوسع العرب علماً وأكثرهم خبرة ودراية . ولعلاقة الكعبة بأسباب معائشهم بذلوا العناية في ادارة شؤونها وسهلوا على على الناس القدوم اليها فأنشأوا فيها أماكن للسقاية وأخرى للطعام وجعلوا ما يجاورها حراما لا يجوز فيه القتال . ومازالت المصالح تتمدد في مكة حتى أصبحت قبيل الاسلام بضع عشر مصلحة . وهي عبارة عن مصالح الدولة في ذلك العهد اقتسمتها قريش في بطونها . وكان

لكل منها مصلحة تقوم بها ، وهي (السدانة) أو حجابة الكعبة و(السقاية) وهي سقاء الحجاج و (الرفادة) وهي خرج تخرجه قريش لصاحب الرفادة فيصنع منه طعام الفقراء و(العقاب) وهو لواء قريش و(الندوة)وهي الدار التي بناها قصي للشورى بجانب الكعبة لايدخلها الا من بلغ الاربعين وكان لا يتزوج رجل أو امرأة الا في تلك الدار ولا يعقد لواء الحرب الا فيها و(القيادة) وهى امارة الركب وصاحبها يسير أمام الركب في أسفارهم للقتال وكانت في بنى امية وصاحبها منهم في أول الاسلام أبو سفيان و (المشورة) وهي لصاحب الرأي في المهمات و (الاشناق) وهي الديات والمغرم و(القبة) وهي التى تضرب اذا خرجوا للحرب فيجمعون فيها ما يجهزون به الجيش ؛ و (الاعنة) وهي أعنة الخيل وصاحبها يتولى خيل قريش اثناء الحرب و (السفارة) وهي مهمة السفير في المخابرات والمنافرات والمفاخرات وكان آخر سفراء قريش فى الجاهلية عمر بن الخطاب قبل اسلامه و(الايسار) وهي الازلام التي كانوا يستقسمون بها للاستخارة اذا هموا بأمر من سفر أو قتال بما يشبه الاقتراع و (الحكومة) وهي الفصل بين الناس وتشبه القضاء فى الاسلام و(الاموال المحجرة) وهي الموسومة للاصنام وفيها النقد والحلي وهي أشبه ببيت المال و(العمارة) والمراد بها منع الناس من الكلام فى المسجد الحرام بهجر أو فسوق

فترى مما تقدم أنهم جمعوا بين السياسة والدين والادارة

والحرب ولكنهم اقتسموها بينهم بما يشبه الحكومة الشورية من بعض الوجوه ولاشبه لهم فى رئاستهم بالحكومات الا بما كان لصاحب السدانة ودار الندوة من السلطة العليا . وهي فى بني هاشم

(٦)

النهضة العربية قبل الاسلام

ان تاريخ العرب قبل الاسلام على غموضه وابهامه بين لنا امورا تدعو الى الاعتبار والتروى . منها أن العرب على اختلاف القبائل والبطون لم تكثر نوابغهم من الشعراء أو الخطباء أو الحكماء الا بعد دخولهم فى القرن الاول قبل الهجرة

فنبوغ الشعراء والخطباء والحكماء فى القرن الاخير قبل الاسلام دفعة واحدة هوما يعبر عنه بالنهضة العربية أو الادبية

ويتبين استعداد العرب العدنانية للنهوض واهليتهم للتمدن مما فطروا عليه من صفاء الذهن وسرعة الخاطر ولكنهم لم يكونوا يستخدمون مواهبهم فيما استخدمها فيه جيرانهم القحطانية وذلك لانشغالهم بالغزو وتماديهم فى فطرة البداوة . والانسان قلما تظهر قواه الا بالاحتكاك أو الضغط شأن القوى الطبيعية . وقد لا يسعى فى طلب العلى غالبًا الا اذا دفعه فقر وأحرجه طلب الرزق أو نافسه منافس فى أمر يبعث على الاستئثار والغلبة والامم انما يدعوها الى

طلب العلى حروبها الخارجية أو ثوراتها الداخلية ، والاولى أشد تأثيراً لما يرافقها من مخالطة الامم الاخرى ، وفى ذلك من الاحتكاك مايدعو الى الاقتباس والمنافسة

ومن هـذا القبيل ما أصاب العرب فى القرنين الاخيرين قبل الاسلام من سطو الحبشة على اليمن ثم على الحجاز لفتح مكة وهـدم الـكعبة فى أواسط القرن الاول قبل الهجرة ، فجاء الاحباش بأفيالهم وعدتهم مما لم يتعود أهل مكة شيئاً منه لما للـكعبة من المنزلة الرفيعة فى نفوس القبائل وغيرهم . فلما رأوا خطر الاحباش يتهددهم أحسوا بافتقارهم الى الاتحـاد لدفع المغير وتنبهت أذهانهم وأخذت مواهبهم فى الظهور . ولم يقتصر تأثير ذلك الاحتكاك على تلك النهضة الدينية أو الادبية ولـكنها أنتجت رجالا نبغوا فى السياسة والقيادة والادارة وكانوا بعد ذلك من أهم العوامل تأثيراً فى سرعة نشر الاسلام

على أن عام الفيل لم يكن أول نهضتهم ولـكنها بدأت بغزو الاحباش اليمن وتمت بقدومهم الى الحجاز . ومهما كان السبب فان بلاد العرب كانت قبل الاسلام تتمخض عن نهضة أدبية فكرية دينية تمهيدا لقبول الدعوة الاسلامية والقيام بنصرتها



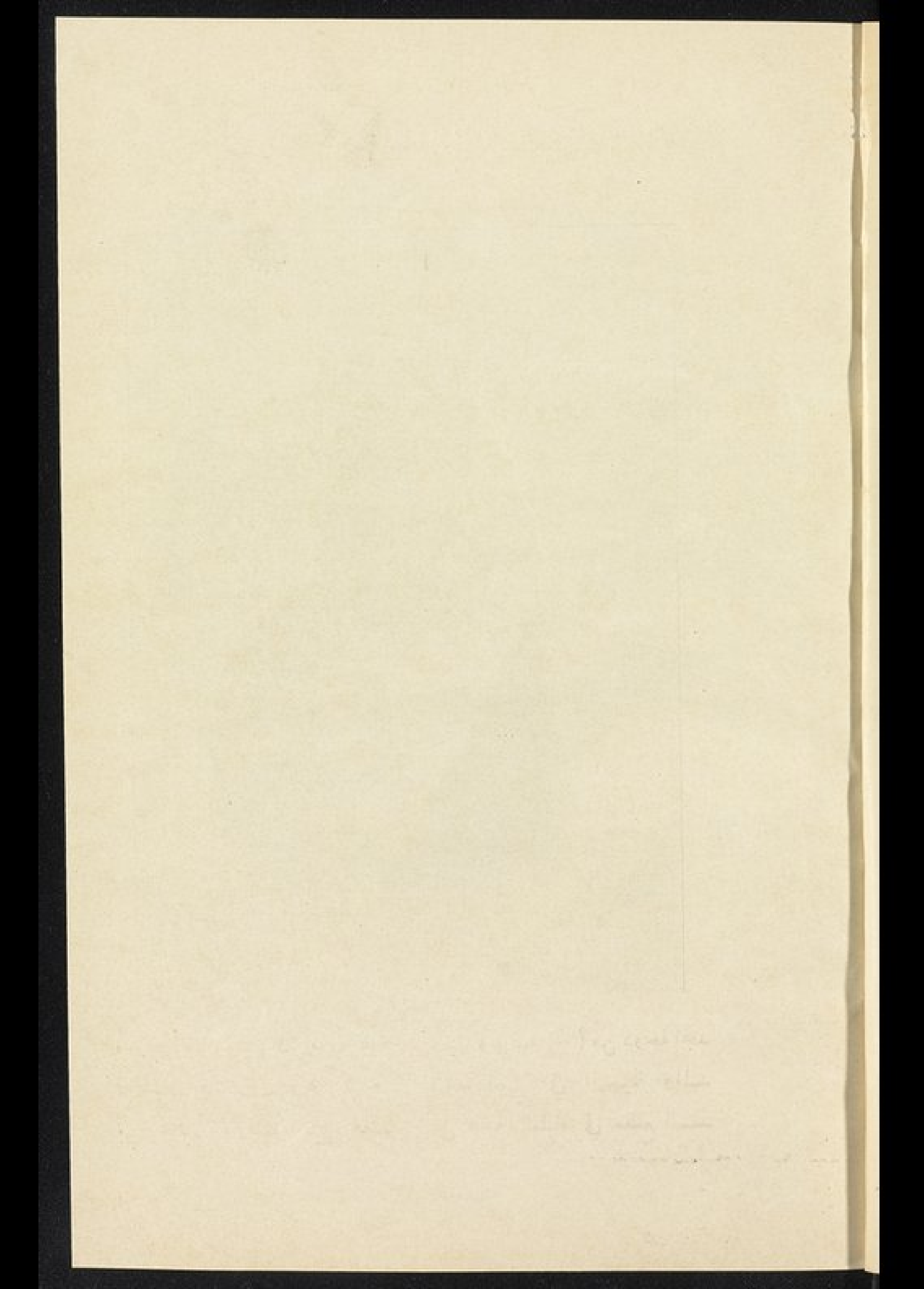
(٧)
الدعوة الاسلامية والعرب

تلك كانت حال العرب في الحجاز لما ظهر صاحب الشريعة الاسلامية عليه الصلاة والسلام ودعا الناس الى التوحيد . فاظهر دعوته سنة ٦٠٩ للميلاد وعمره اربعون سنة ولا يسع المقام تفصيل سيرته وانما نذكر منها مايتعلق بموضوعنا لبيان الاسباب التي رافقت ظهور الدعوة وساعدت على نشرها في انحاء العالم

ولد صاحب الدعوة الاسلامية ﷺ وقد مات ابوه وبعد ست سنوات ماتت امه فكفله جده عبد المطلب سادن الكعبة وصاحب المقام الرفيع في قريش ولكنه توفي بعد سنتين فكفله عمه ابو طالب وكان وجيها محترما فشب سيدنا محمد ﷺ في بيته كاحد اولاده وكان ابو طالب صاحب تجاره مثل سائر قريش . فكان اذا خرج في تجارته صحبه في اسفاره فاشتهر منذ حداثته بالحصافة والذكاء وصدق السريرة حتى لقبوه بالامين . واشتهر في مكة بهذا اللقب فعرفته خديجة بنت خويلد وكانت ذات ثروة وتجارة فعهدت اليه الاتجار بمالها فتاجر وربح فازدادت اعجابا به فعرضت عليه الزواج منها فتزوجها . ولما بلغ الاربعين من عمره مال الى الخلوة واعتزال الناس فآوى الى الجبال . وفي رمضان من تلك السنة وهو يتعبد في غار جبل حراء على ثلاثة اميال من مكة رأى الرؤيا الاولى واخبر ﷺ ان جبريل ظهر له وقال له « اقرأ باسم ربك الذي خلق » الآية

ثم خرج الى الجبل فسمع صوتاً ينـاديه من فوقه « يامحمد انت رسول الله وانا جبريل » فذعر واسرع الى خديجة زوجته واخبرها الخبر . فذهبت الى ابن عمه ورقة بن نوفل وكان مشهورا في مكة بسعة العلم وقراءة الكتب والنظر فيها ومخالطته أهل التوراة والانجيل وسماع أقوالهم . فاخبرته خديجة بما كان فقال « والذي نفس ورقة بيده لئن صدقتني يا خديجة لقد جاء الناموس الاكبر الذي كان يأتي موسى وانه نبي هذه الامة »

ورجع محمد صلى الله عليه وسلم الى مكة وهو لايجسر على اظهار دعوته . فعمد الى بثها سراً بين اقرب الناس اليه . فقضى في ذلك ثلاث سنين فاجتمع له نفر قليل منهم ابن عمه علي بن أبي طالب وكان غلاما . وابو بكر الصديق وكان وجيهاً من وجهاء قريش وابو عبيدة بن الجراح وغيرهم فهمّ بالدعوة جهارا وبدأ بعشيرته الاقربين فاستخفوا به وكان اشدهم وطأة عليه عمه ابولهب لكنه لم يفشل ولم تضعف عزيمته وجمع قريشا الى وليمة فلما فرغوا من الطعام قال « ما أعلم ان انسانا في العرب جاء قومه بافضل مما جئتكم به فقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله أن أدعوكم اليه فأيكم يؤازرني على هذا الامر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم » . فظلوا صامتين فتقدم علي ابن عمه وقال « انا يانبي الله اكون وزيرك عليهم » فاخذ النبي برقبته وقال « ان هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له واطيعوا » فقام القوم يضحكون ويهزأون ويقولون لابي طالب « قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيعه »



حضرة صاحب السمو الملكي الافخم

الامير عبد الله بن الحسين

أمير الاردن



أمير به (الأردن) قد ماس عزةً — وتيهاً و (عبد الله) من دوحة المجد

له سيف عدنان ونحر كنانةٍ — ومجد قصيٍّ في الرجولة والمهد

بني هاشمٍ لازلتمو تاج هاشمٍ — على هامة العلياءِ في مطلع السعد

المؤلف

على ان استخفافهم هذا لم يقعده عن عزمه ولا أبعده عن قومه وجاهر بسب الاصنام ونسب الى أهله وآبائهم الكفر والضلال . فلما علموا بسب أصنامهم أجمعوا على عداوته ومقاومته وتعمدوا أذيته . فما زال يدعوهم الى الهدى وما زالوا يلحقون به الاذى حتى أظهره الله عليهم بعد أن يئس من أهله وعشيرته فهاجر الى المدينة مع من تبعه من المهاجرين سنة ٦٢٢ للميلاد فنصره أهل المدينة على محاربة الكفار من قومه . وبهذه الهجرة بدأ تاريخ الاسلام الى الآن

لقي النبي صلى الله عليه وسلم ترحاباً عظيما من أهل المدينة فاشتد بهم ازره وتحول بهم الى مكة وحارب اهلها في عدة غزوات اعظمها غزوة بدر الكبرى التي انتصر فيها على كفار مكة وكانت فاتحة انتصارات الاسلام حتى أخضع جزيرة العرب كلها وفتح مكة وأسلمت قريش كافة

ثم وجه النبي صلى الله عليه وسلم التفاته الى العالم وخاطب الملوك يدعوهم الى الاسلام كما هو مدون في كتب التاريخ مما لا مجال للافاضة فيه الآن

انتشار الاسلام والعرب

وأول عمل باشره النبي بعد نزوله المدينة المعاهدة بين المهاجرين معه من أهل مكة والانصار من اهل المدينة . وكانوا من قبل لا يخلون من منافسة فجعل الاسلام واسطة الاتحاد بينهم . وكتب بين الفريقين كتابا يعترفون فيه بأنهم أمة واحدة . ثم خصص المهاجرين من قريش والانصار من أهل يثرب بعهود أخرى سموها عهود المؤاخاة . فآخى

بين أصحابه المهاجرين والانصار بعهد وثيق

وكان هـذا هو الحجر الاول من أساس الدولة الاسلامية والمسلمون يومئذ بضع عشرات • ففرض الزكاة والصيام واقام الحدود بين الحلال والحرام وغير ذلك من دعائم الاسلام التي اقامها النبي ﷺ

فلما فرغوا من ذلك قاموا بنشر الدعوة الاسلامية بحد السيف لما عرفوه من عناد أهل مكة واضطهادهم فعمدوا الى مناوأتهم بالقتال • فحدثت الغزوات المشهورة وهي أول الحروب الاسلامية • بدأت بالغزو والقتال على عادة العرب وانتهت بفتح المدن والممالك

واهم تلك الغزوات (غزوة بدر الكبرى) التى فاز فيها المسلمون فوزاً عظيما قوى عزائمهم ونشطهم على موالاة القتال • ثم جاءت بعدها (واقعة احد) التي عاد فيها اهل مكة بعد كسرتهم فاجتمعوا وقائدهم ابو سفيان وتهيأوا للاخذ بالثار وساروا لمهاجمة المدينة • فلما أقبلوا عليها تشاور النبي ﷺ وأصحابه وكان رأيه البقاء فى المدينة للمدافعة • ولكن اكثرهم أشار بالخروج • فرضى النبي برأي الاكثرية وخرج في ألف • ففشل المسلمون في هذه الواقعة وقتل منهم خلق كثير • وكانت هذه الواقعة أشد ما أصاب المسلمين في ذلك الحين ولكنهم لم يهنوا ولم يضعفوا وعادوا الى مواصلة القتال حتى كانت (واقعة الخندق) وهى على أبواب المدينة أيضاً وسميت الواقعة باسم خندق حفروه امام المدينة لمنع المهاجمين من الاحزاب الذين خرجوا لنصرة القرشيين بعد أحد • ولم ينالوا منالا وعادوا بشر هزيمة

وقد هان على اهل مكة مهادنة المسلمين بعد واقعة الخندق فعقدوا معهم صلحاً في نحو السنة السادسة للهجرة . خاصاً باجتياز الطريق وأمانه للطرفين الى مكة للحج والى اليمن والطائف لاهل المدينة والى الشام والمشرق من طريق المدينة لاهل مكة

وتفرغ المسلمون لنشر الدعوة الاسلامية وكان لفشل الاحزاب مع كثرتهم تأثير شديد على قبائل العرب وعظم شأن الاسلام في نفوسهم فصاروا يفدون على المدينة لقبول الدعوة من تلقاء أنفسهم . واعتز المسلمون واتسعت آمالهم . وبعث النبي ﷺ رسله الى ملوك الارض يدعوهم الى الاسلام وبعث جنداً لمحاربة الروم في الشام

وحدث في اثناء ذلك حادث افضى الى نقض الصلح بين المسلمين وقريش . فسار المسلمون حتى اقبلوا على مكة وهم عشرة آلاف وفيهم المهاجرون والانصار وقبائل العرب المحالفين . ثم فتحوها ودخلوا فسار النبي الى الكعبة فكسر الاصنام التى كانت حولها ونزع ما كان على جوانبها من الصور الوثنية وكان ذلك آخر عهد الوثنية في جزيرة العرب . وعادت الكعبة الى عبادة الله وحده وأسلم أهل مكة وفيهم أبو سفيان وأولاده ومنهم معاوية مؤسس الدولة الاموية

وسمى النبي ﷺ أشراف مكة الذين أسلموا بعد الفتح (المؤلفة قلوبهم) اشارة الى انهم بتأليف قلوبهم تتألف بهم قلوب أقوامهم تعزيزاً للاسلام ونصراً للمسلمين

ثم عاد بالمسلمين الى المدينة في نحو السنة التاسعة للهجرة وقد اعتز

جانبهم وذاع سلطانهم في كل جزيرة العرب بعد فتح حنين والطائف وغيرها فتدفقت اسراب الناس على المدينة لاعتناق الاسلام

ولما اعتز الاسلام ودانت له جزيرة العرب عاد المسلمون الى توسيع دائرة الفتح فامر النبي ﷺ سنة ٩ هـ بالتجهز لاعادة الكرة على الروم فجهزوا جنداً عدده ثلاثون الفاً فيهم عشرة آلاف فارس. فصالحهم صاحب ايلة على الجزية وهي مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام في رأس خليج العقبة. وفي اثناء ذلك خرج خالد بن الوليد على صاحب دومة الجندل بين المدينة ودمشق وهو عربي نصرانى من كندة فاخذه خالد ومعه قباء من ديباج مخوصاً بالذهب وارسله الى المسلمين. ثم عادوا الى المدينة

وفي السنة الحادية عشرة للهجرة قُبض النبي ﷺ والاسلام لايزال حديثاً فسعى الذين حط الاسلام من نفوذهم او وقف في سبيل أغراضهم الدنيوية بالفتنة بين المسلمين فارتد كثير من قبائل العرب الا أهل المدينة ومكة والطائف وأصبح الاسلام في خطر شديد لو لم يوفق الله أبا بكر الصديق الى ماقام به من نصره وعودة الاسلام الى مجده وانتشاره

العرب فى صدر الاسلام

بحث اهل النقد كثيراً في الاسباب التي ساعدت العرب على فتح بلاد الروم والفرس وقهر القياصرة والاكاسرة برجال يكاد لايزيد عددهم على عدد حامية مدينة من مدن اولئك مع ما كان عليه العرب

يومئذ من سذاجة العيش وقلة الدربة في فنون الحرب وضيق ذات اليد وضعف المدة . وفضلاً عن قلتهم وسذاجتهم فقد خرجوا مهاجمين في بلاد لا يعرفونها ولا نصير لهم فيها . واغرب من ذلك انهم فتحوا مملكتي الروم والفرس جميعاً في بضع عشرة سنة . ولكن اذا عرف ان العرب أصبحوا بعد الاسلام غيرما كانوا عليه من قبل : كانوا قبائل مشتتة فاصبحوا أمة واحدة على قلب رجل واحد . ثم العقيدة واليقين بصدق الدعوة التى دعوا اليها . اعتقادهم انهم انما يفتحون الدنيا في سبيل الدين وان الله يدعوهم الى نشر الاسلام في الارض ومن مات منهم فهو شهيد والآخرة خير وأبقى

اما الاتحاد بالاسلام فظاهر في كل أعمالهم . ويؤيده ان الاسلام عنوان التوحيد . وتكاد لاتخلو خطبة من خطب الخلفاء والامراء في صدر الاسلام من الاشارة الى تلك الوحدة وتذكير المسلمين بما كان عليه آباؤهم في الجاهلية من التفرق والتشتت ومايدعوهم اليه الاسلام من نزع العصبية وتوحيد الكلمة

أما اعتقاد العرب صدق الدعوة الاسلامية وانهم انما يعملون لآخرتهم لا لدنياهم فظاهر من أقوالهم وأعمالهم أثناء الفتح كقول المغيرة لما قال له رستم الفارسي في واقعة القادسيه « انكم تموتون فيما تطلبون » فقال المغيرة « يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم النار ويظهر من بقي منا على من بقي منكم » وكقول عبادة بن الصامت للمقوقس صاحب مصر لما خوّفه بجموع الروم فقال عبادة « ياهذا

لاتغرن نفسك ولا اصحابك . اما ماتخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم واننا لا نقوى عليهم فلعمري ما هذا الذى تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه . فان كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم وأشد لحرصنا عليهم لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه وان قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته . وما شيء أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك . واننا منكم حينئذ لعلى أحدى الحسنيين . إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم أو غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا ولأنها أحب احدى الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا . وان الله عز وجل قال لنا في كتابه « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » وما منا رجل الا يدعو الله صباحاً ومساء أن يرزقه الشهادة وأن لا يرده الى بلده ولا الى أرضه ولا الى أهله وولده ، وليس لاحد منا هم فيما خلفه وقد استودع كل منا ربه أهله وماله وولده وانما همنا ما أمامنا . وأما قولك اننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن فى أوسع السعة لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه . »

وأمثال ذلك كثيرة في تاريخ الاسلام

وأما الذي ساعدهم على الفتح فهي صفاتهم وفطرتهم التي فطرهم الله عليها من نشاط وخفة واعتقاد فى الله سليم ومهارة فى الحرب وركوب الخيل ورمي النبال وضرب السيف • واختصاص صدر الاسلام برجال منهم توفرت فيهم شروط النصر . وقد امتاز ذلك

العصر بنبوغ الرجال العظام منهم . فكأن الله قدر للعرب النصر فاختصهم بقواد من نخبة رجال العلم في الحرب والسياسة والدهاء والحكمة أمثال : خالد بن الوليد وخالد بن سعيد وأبي عبيدة بن الجراح وسعد بن ابي وقاص ويزيد بن أبي سفيان وحمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب ممن اشتهروا بضروب البسالة وقيادة الجند . وأمثال عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة وزياد بن ابيه من أهل الدهاء والسياسة . وأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب من أهل الحزم والتقوى وصدق العزيمة

ومن صفاتهم المشهورة فى فتح الاسلام : الصبر والمطاولة والنجدة العربية . وقد كان الاسلام فى أول أمره نهضة عربية والمسلمون هم العرب ، حتى أصبح اللفظان مترادفين فان قالوا العرب أرادوا المسلمين وبالعكس . فكان العرب أقرب الأمم للدخول في الاسلام لما اختصهم منه دون غيرهم من الافتخار به وتمكن ذلك في الأذهان خصوصاً لما أمر عمر بن الخطاب باخراج غير المسلمين من جزيرة العرب فخرجوا وأصبح أهل الجزيرة كلهم مسلمين وهم لا يزالون كذلك الى اليوم

ومن أخص الصفات التي اشتهروا بها في الاسلام المساواة بين طبقات الناس . ومن أوضح الأدلة عليها ما كان من أمر جبلة بن الأيهم ملك غسان لما أسلم في زمن عمر بن الخطاب وجاء المدينة بخيله ورجله وفرح عمر باسلامه على أن ذلك لم يمنع عمر من اقامة الحد

عليه لما وطيء أحد بني فزارة ازاره وهو يطوف بالكعبة فرفع جبلة يده وهشم أنف الفزاري فشكاه الى عمر فبعث الى جبلة وسأله فقال نعم يا أمير المؤمنين انه تعمد حل ازاري ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف . فقال عمر « قد أقررت على نفسك فاما أن ترضي الرجل واما أن أقيده منك فآمره بهشم أنفك كما فعلت » فقال « وكيف ذلك يا أمير المؤمنين ، وهو سوقة وأنا ملك ؟ » فقال عمر « الاسلام جمعك وأياه ، فلست تفضله الا بالتقى والعافية » فلم ير جبلة مخرجاً من حكم عمر الا بالفرار فهرب الى القسطنطينية ولم يرجع الى بلاد العرب . ومثلها حكاية القبطي الذى ضربه ابن عمرو بن العاص فذهب الى عمر بن الخطاب في المدينة ، فاستعاذ به فبعث الى عمرو وابنه فاستقدمهما فلما جاءا أعطى عمر الى القبطي سوطا وأمره أن يضرب ابن عمرو فضربه وأراد أن يضرب عمرواً فقال عمرو انما ابني الذي ضربه فقال عمر : « يا عمرو مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ »

ولا يخفى ما كان لهذه المناقب من التأثير في النفوس فكانت من أهم الأسباب في تعجيل الفتح لأن أهل الشام ومصر والعراق كانوا يشكون من استبداد حكامهم واحتقارهم . فلما علموا بعدل المسلمين ورفقهم مالوا اليهم ، واستقبلوهم في بلادهم احسن استقبال

وجملة القول أن العرب لم يساعدهم على الفتح الاسلامي الا قوة يقينهم بالنصر على أساس الدين مع ما كانوا عليه من المهارة في الفروسية

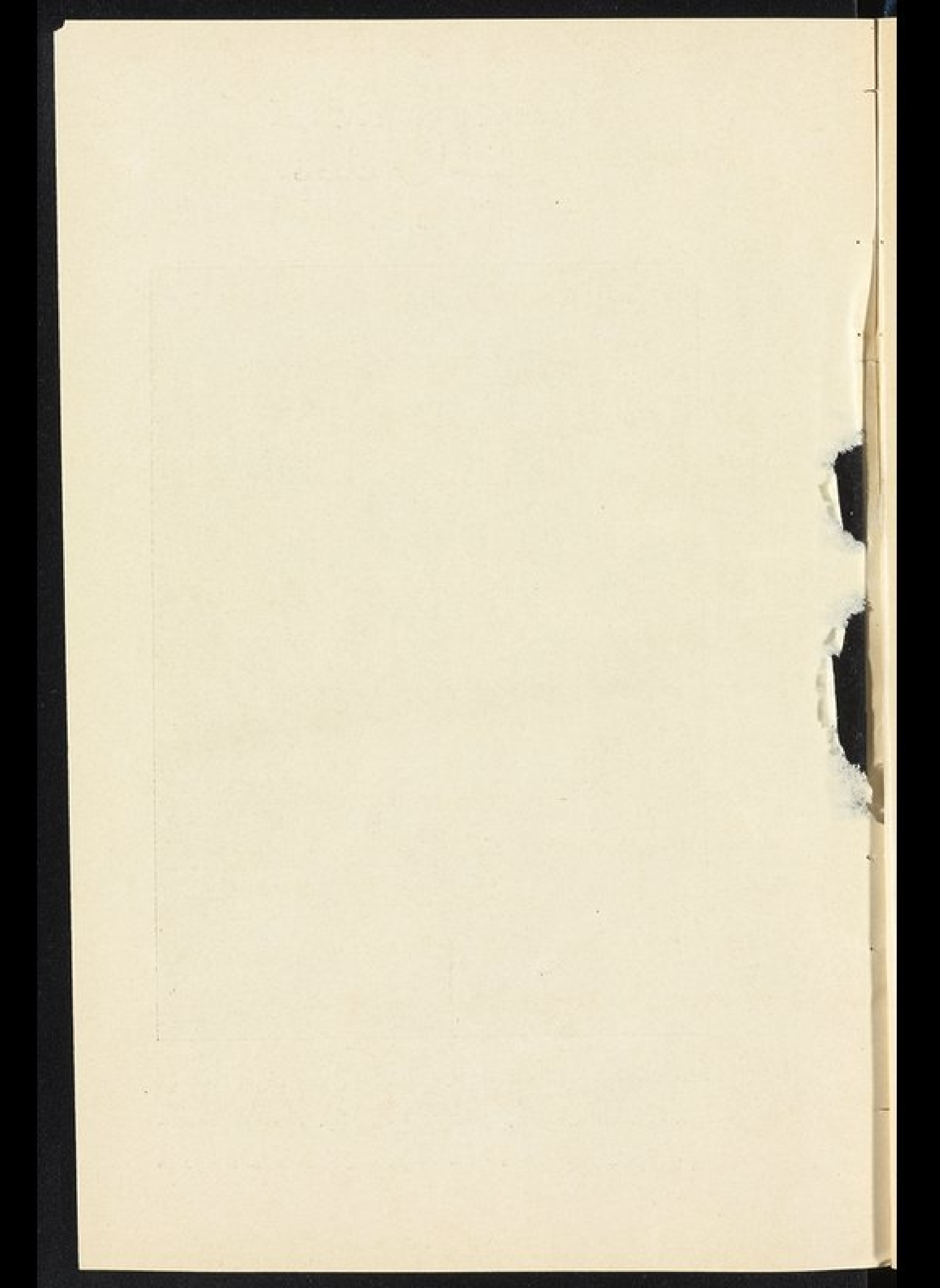
والنشاط من عيشة البداوة مع الصبر والمطاولة في حروبهم ونبوغهم في الرأي والشجاعة مع العدل والقسط والرفق والمساواة

الخلفاء الراشدون والدولة العربية

كان النبي ﷺ أمير المسلمين في حياته وقائدهم في الحرب وإمامهم في الصلاة وقاضيهم في سائر أحوالهم : فلما توفي ولم يخلف ذكراً ولا أوصى بالخلافة لأحد من بعده اختلفوا فيمن يخلفه واولى الناس بالخلافة أصحابه وهم المهاجرون والأنصار، فقال المهاجرون نحن أحق بها لأننا أهل النبي وأصحابه وقد تركنا أهلنا وبلدنا وهاجرنا معه . وقال الانصار نحن أحق بذلك لاننا نصرناه . واشتد الجدال بينهما حتى كاد يفضي الى النزاع فذكرهم أبو بكر بحديث قاله النبي على مسمع منهم وهو قوله ﷺ « قريش ولاة هذا الامر . » فأذعنوا وتراجع الانصار

ولكن الخطر مازال يتهدد المسلمين من اختلاف المهاجرين على ذلك المنصب العظيم . فأحس عمر بن الخطاب رجل الاسلام بذلك ولعلمه ان الاسلام لم يقم الا بالاتحاد بادر الى أبي بكر فبايعه والناس ينظرون وكانوا يخافونه اذا طلب الخلافة لنفسه لشدة بطشه وقوته ومكانته فى الاسلام فلما رأوه سبقهم الى مبايعة ابى بكر بايعوه معه

اما مبايعتهم ابا بكر دون سائر المهاجرين واهل بيت النبي وفيهم العباس عمه وعلي بن أبي طالب ابن عمه وغيرهما من بني هاشم ففيه



حضرة صاحب الجلالة الملكية المعظم

فيصل بن الحسين

ملك العراق



لك العز ياعرش العراق بفيصل — فتى الملك والعلياء من سالف العهد

جـدود وآباء مـلوك أعزة — مكين بهم عرش السيادة كالطود

لهم دولة الاسلام مذ كان جدهم — خيار قريش من كنانة في المجد

المؤلف

نظر كثير واختلفت الاقوال فيها مما لا محل لذكره هنا انما غرضنا ان نبين فضل العرب في نشر الاسلام وفتوحه على وجه عام . ولا عبرة باختلاف الآراء فى تفضيل بعض الصحابة على بعض للخلافة فكلهم من رسول الله ملتمس

وقد جمع ابو بكر رضي الله عنه الامتياز بالسن وسبق الاسلام والتقدم على سائر قريش وفوق ذلك فان النبي ﷺ لما مرض انابه للصلاة بالمسلمين وهي من حقوق الامامة

وتوفي ابو بكر سنة ١٣ هـ وقد اوصى بالخلافة لعمر بن الخطاب وهو اكبر سائر المهاجرين سناً بعد أبي بكر وفى ايامه جرت اهم الفتوح الاسلامية فى الشام والعراق ومصر وإفريقية وغيرها

وتوفي عمر رضى الله عنه سنة ٢٣ هـ من طعنة ابي لؤلؤة فلما أحس بدنو الاجل دعا نفراً من الصحابة وأوصاهم ان يجتمعوا في بيت عائشة زوج النبي ﷺ ويختاروا منهم واحداً للخلافة من بعده فاختاروا عثمان ابن عفان وهو من بني امية واكبر الصحابة سناً

واعتز بنو امية به ، وكان رجلا صالحاً ورعا تقيا ، ولكنه آثر ذوى قرباه ، فولاهم الأعمال في الأمصار ، فشق ذلك على الصحابة ، وحدثت أسباب أخرى يطول تفصيلها آلت الى نقمة أهل الأمصار على عثمان فجاؤا المدينة وفيهم أهل مصر والكوفة والبصرة وطلبوا اليه أن يخلع نفسه فأبى فقتلوه

ومهما يكن في عملهم هذا من خرق حرمة الخلافة فانه دليل صريح على ماكان عليه العرب من الأنفة والحرية وعلو الهمة وإباء الضيم

ولما قتل عثمان اختلفوا فيمن يخلفه. أما أهل المدينة فقد كانوا يريدونها لعلي بن أبي طالب جرياً على عادتهم من أول الأمر فى نصرة بيت النبي صلى الله عليه وسلم

وانضم الى أهل المدينة فى نصرة علي ربيعة ويمن وغيرهما. فبايعوا علياً وبايع بعدهم طلحة والزبير مكرهين. ثم خرجا الى مكة ومنها الى العراق للاعتزاز باحزابهما هناك فتبعهما علي بجنده فجرت بين الفريقين واقعة الجمل المشهورة بجوار البصرة. وقتل طلحة والزبير وخلصت الخلافة لعلي. فنقل عاصمة الاسلام من المدينة الى الكوفة. ويقال انه اخطأ فى تخليه عن احزابه فى المدينة واعتماده على أهل العراق

وكان في الشام رجل عظيم يطلب البيعة لنفسه هو معاوية بن أبى سفيان ورأى سبيلا لالتماس الخلافة فعرض قميص عثمان الملطخ بالدم في جامع دمشق، ودعا الناس لطلب ثأره، واتهم علياً واصحابه بقتله، واستنجد رجالاً من دهاة العرب يغلب على نظرهم في الاسلام طلب الدنيا وفيهم عمرو بن العاص فاستدناه معاوية ووعده بولاية مصر وكان عثمان قد عزله عنها

فحارب معه في واقعة صفين الشهيرة سنة ٣٧ ﻫ وكادت رجال علي تظفر بمعاوية واصحابه لولا حيلة عمرو بن العاص التى أخرجت الخلافة من أهل البيت الى بنى امية. وكان ما كان من رفع المصاحف على

اسنة الرماح طلباً للهدنة وانخداع أصحاب على وموافقتهم على التحكيم ثم ما كان من احتيال عمرو بن العاص على ابي موسى الاشعري حتى خلع علياً صاحبه واقر عمرو معاوية صاحبه واقتسام أصحاب علي عليه حتى آلت الخلافة الى معاوية فى خبر طويل

فترى مما تقدم أن دولة الخلفاء الراشدين تأسست على التقوى وشيدت على العدل . فلم يكن الخلفاء يعبأون بالمال وكان ذلك شأن سائر الصحابة فى ايامهم ولعل السبب كان لقربهم من زمن النبوة

وكانت مدة حكمهم نحو ثلاثين سنة اتسعت فيها الفتوح الاسلامية حتى بلغت خيل العرب من افريقية في الغرب الى اقاصي خراسان فى الشرق وعبرت النهر الى سمرقند

الدولة العربية الاموية

انتقلت الخلافة الى بنى امية واولهم معاوية بن أبي سفيان وتمتاز فى عهدهم بانها سلطنة دنيوية يحكمها خليفتها بالدهاء والسياسة والارهاب وبذل المال خصيصا لبني هاشم تخفيفاً لما في انفسهم من النقمة عليه لاستلابه الخلافة من ايديهم

واقتبس معاوية من الروم اسباب البذخ ودواعي الترف وقلدهم في ابهة الملك فاقام الحراس والحشم يحملون الحراب ويقومون بين يديه اذا مشى أو قام للصلاة . وبنى لنفسه قصرا ونصب فيه السرير ووقف الحاجب ببابه وبنى مقصورة لصلاته بالمسجد ولعله اتخذها خوفاً من

الاغتيال كما اغتيل علي وكاد أن يصاب هو غيلة يومئذ . وقلد الروم في لبس الخز والديباج . وهو الذي وضع نظام البريد على مثال ماكان عند الفرس والروم وأنشأ ديوان الخاتم وغير ذلك من قواعد الملك

ومما استحدثه معاوية فى الاسلام انه جعل الخلافة ميراثا لولده بعد أن كانت انتخابا فى المسلمين . فكان أول من بايع لابنه يزيد وحمل الناس على مبايعته بولاية العهد

وبقيت الدولة الاموية عربية بحتة مؤيدة السلطان بالمال والدهاء والسياسة والحزم حتى اضطربت أحوال بني أمية وخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فتداعى ملكهم وبدأت الدعوة العباسية

دولة بني العباس

لما تولى أبو بكر الخلافة كان المسلمون في مبايعته بها يأبون أن تجتمع النبوة والخلافة فى بني هاشم فبايعوا سواهم من قريش . أما بنو هاشم فكانوا يعدون ذلك عدولاً عن الحق لانهم أولى قريش بذلك الامر وجعلوا يسعون في سبيله وهم في طلبهم الخلافة فروع : منهم العلويون من أبناء علي بن أبي طالب وهم فئتان : إحداهما تدعو لابناء فاطمة الزهراء والاخرى تدعو لمحمد بن الحنفية ابن علي من غير فاطمة . ومنهم العباسيون سلالة العباس عم النبي ﷺ . فكان كل من هؤلاء يدعو الناس الى نفسه وهم يبايعونهم سراً . فلما ظهر ضعف بني امية

واضطرابهم هان على الناس الخروج من طاعتهم لاعتقادهم أن بني هاشم أولى الناس بالخلافة

وتوفق العباسيون يومئذ الى رجل فارسي من خراسان اسمه ابو مسلم وكان ذا بطش وبسالة فأنفذوه في طلب البيعة لهم في خراسان فتوفق توفيقاً عجيباً . فحارب عمال الامويين وجاهد حتى أدنى الخلافة من بني العباس وسلم ازمتها الى السفاح أول خلفائهم سنة ١٣٢

ومهما قيل في دولة بني امية فانها كانت عربية حقيقية . وأما بنو العباس فما كاد يستتب لهم الامر حتى غلب في دولتهم العنصر الفارسي لان الفرس هم الذين نصروهم وسلموا اليهم مقاليد الدولة فاتخذوا منهم الوزراء وكانوا هم أول من اتخذهم واشهر خلفائهم أبو جعفر المنصور وهو من أعظم رجال الاسلام دهاء وسياسة وشجاعة . بنى مدينة قرب الكوفة سماها (الهاشمية) ثم بنى (بغداد) وهي اشهر عواصم الاسلام

وكانت ايامه كلها أيام حروب وفتوح ثم خلفه ابنه محمد المهدي ثم موسى الهادي فهارون الرشيد فابناه الامين والمأمون

وفي أيام الرشيد والمأمون بلغت الدولة العباسية قمة مجدها وشأو سلطانها وازدهت العلوم والمعارف وتفجرت ينابيع الثروة

والرشيد هو الذي أوعز فنكب البرامكة نكبتهم المشهورة لما خاف من تطاول سلطتهم على مقامه، فاراد أن يتخلص منهم فقتلهم

وكان همُّ المأمون من بعده منحصراً فى توسيع دائرة المعارف والعلوم وكانت أيامه خير ايام الدولة العباسية علماً وثروة

وخلف المأمونَ المعتصم سنة ٢١٨ هـ فأكثر من استخدام الاتراك وكان صبيان الاتراك يحملون الى بلاط الخلفاء في أوائل الدولة العباسية هدايا من عمال الامصار فى تركستان وكانوا يسمونهم المماليك

ثم أكثر الخلفاء من اقتنائهم حتى بلغ عددهم فى عهد المعتصم بضعة وعشرين الفاً . وكانوا قد اعتنقوا الاسلام وتعلموا فظهرت مواهبهم فولاهم كثيرا من مصالح الدولة وما زالوا يرتقون حتى اتصلوا الى أعلى مناصب الامارة وقيادة الجند . ثم تعددت العناصر الاجنبية فى الدولة وكثرت الايدي المعترضة فآل ذلك الى ضعف الخلفاء واستبداد العمال فى الولايات ثم تقلصت سلطة الخلفاء حتى انحصرت فى مدينة بغداد

ومع كل ما لحق الخلفاء من الضعف لم يخطر للفرس ولا لغيرهم من غير عرب قريش أن ينزعوا الخلافة من أعناق بنى العباس

وما زالت الخلافة العباسية فى بغداد حتى جاءها التتر من مفازة الصين ففتحوها وقتلوا خليفتها سنة ٦٥٦ ففر من بقى من أهله الى مصر والتجأوا الى سلاطينها المماليك الى أن فتح السلطان سليم العثماني مصر سنة ٩٢٣ فاخذ الخلافة منهم . وهو أول خليفة غير عربي فى الاسلام

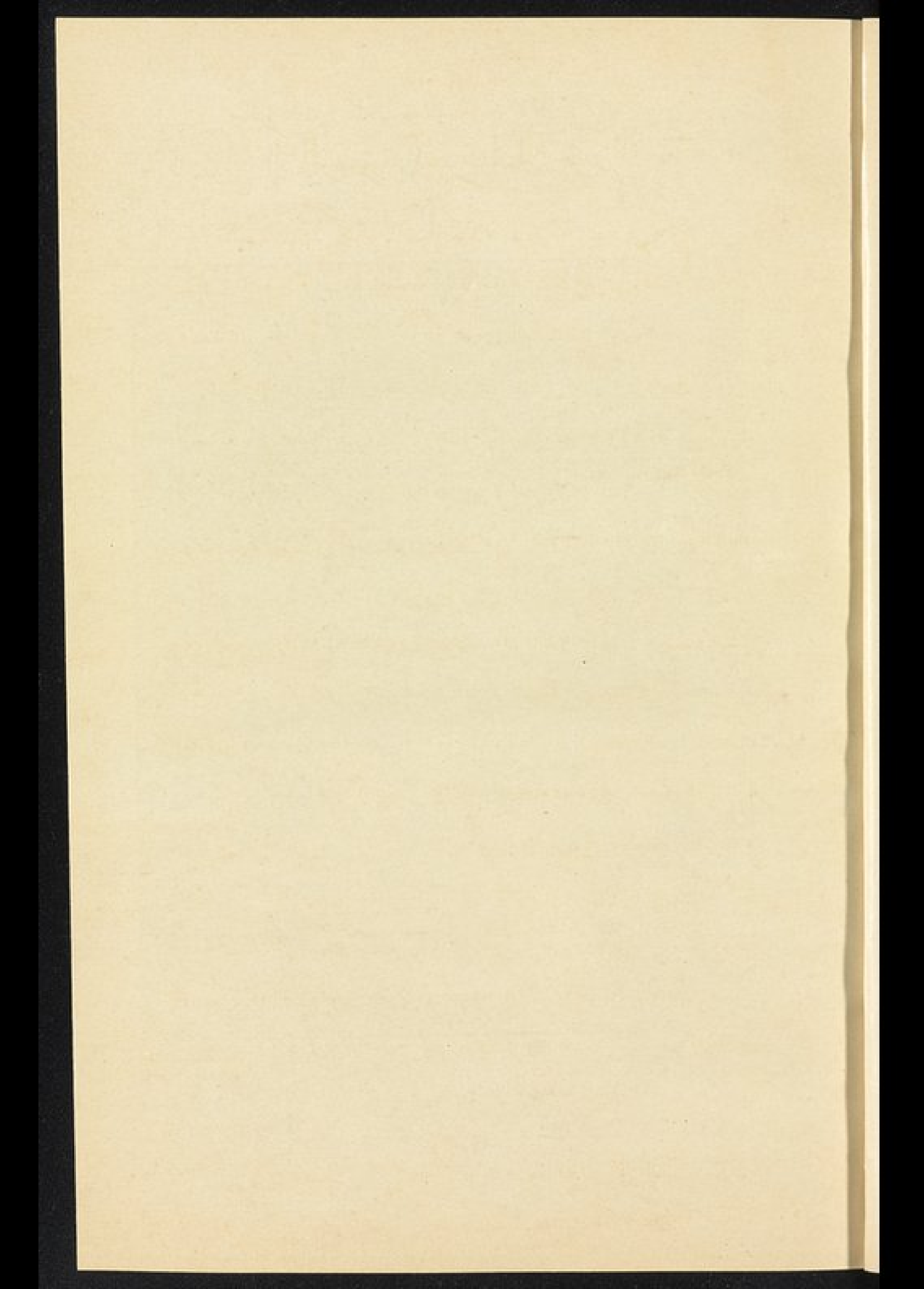
واذا اردنا تعداد الدول الاسلامية طال بنا الكلام . والخلاصة ان دول الاسلام التي ظهرت من أول ظهور الاسلام الى اليوم مائة وتسع دول عدد رؤسائها ألف ومائتان وفيهم الخلفاء والسلاطين والملوك والامراء والاتابكة والاخشيدية والخديويون والشرفاء والبايات والدايات وغيرهم من العرب والفرس والاتراك والشراكسة والكرد والهنود والتتر والمغول والافغان وغيرهم . ومن عواصمهم المدينة والكوفة ودمشق وبغداد ومصر والقيروان وقرطبة والاستانة وصنعاء وعمان ودلهي وكابل ومكة وغيرها

هذه مقدمة تاريخية صغيرة في كيفية تأسيس الدولة الاسلامية العربية ونشأة التمدن الاسلامي العربي فى العالم . وقد رأينا أن المسلمين انشأوا دولاً كثيرة قامت في عصور مختلفة . ولكن الاسلام لم يبلغ ابعد شأوه في المجد وعزة السلطان الا في دولته العربية من يوم الفتح وعهد الخلفاء الراشدين والامويين حتى اندست العناصر الاجنبية غير العربية فى حكومة الدولة العباسية ابتداء من عهد المعتصم حتى فقدت الدولة الاسلامية صبغتها العربية . وبدأ الانحطاط يتوالى بتوالي الولاة من الامراء غير العرب على الممالك الاسلامية واستبدادهم بالاحكام دون الخلفاء معتمدين علي اعوانهم وجنودهم من أبناء اجناسهم من الترك والفرس وغيرهم ممن كانوا لا يعرفون من حقيقة الاسلام الاّ تقلد زمام الاحكام . فانحلت الرابطة الاسلامية وضعفت شوكة الاسلام مما نراه ماثلاً امام الاعين الى الآن

النهضة العربية الاخيرة

واليوم يسطر التاريخ اخبار نهضة عربية جديدة في ربوع جزيرة العرب تتسع دائرتها الى الحدود الطبيعية لبلاد العرب فتناولت الشام وفلسطين والعراق والحجاز وغيرها من البلاد العربية.

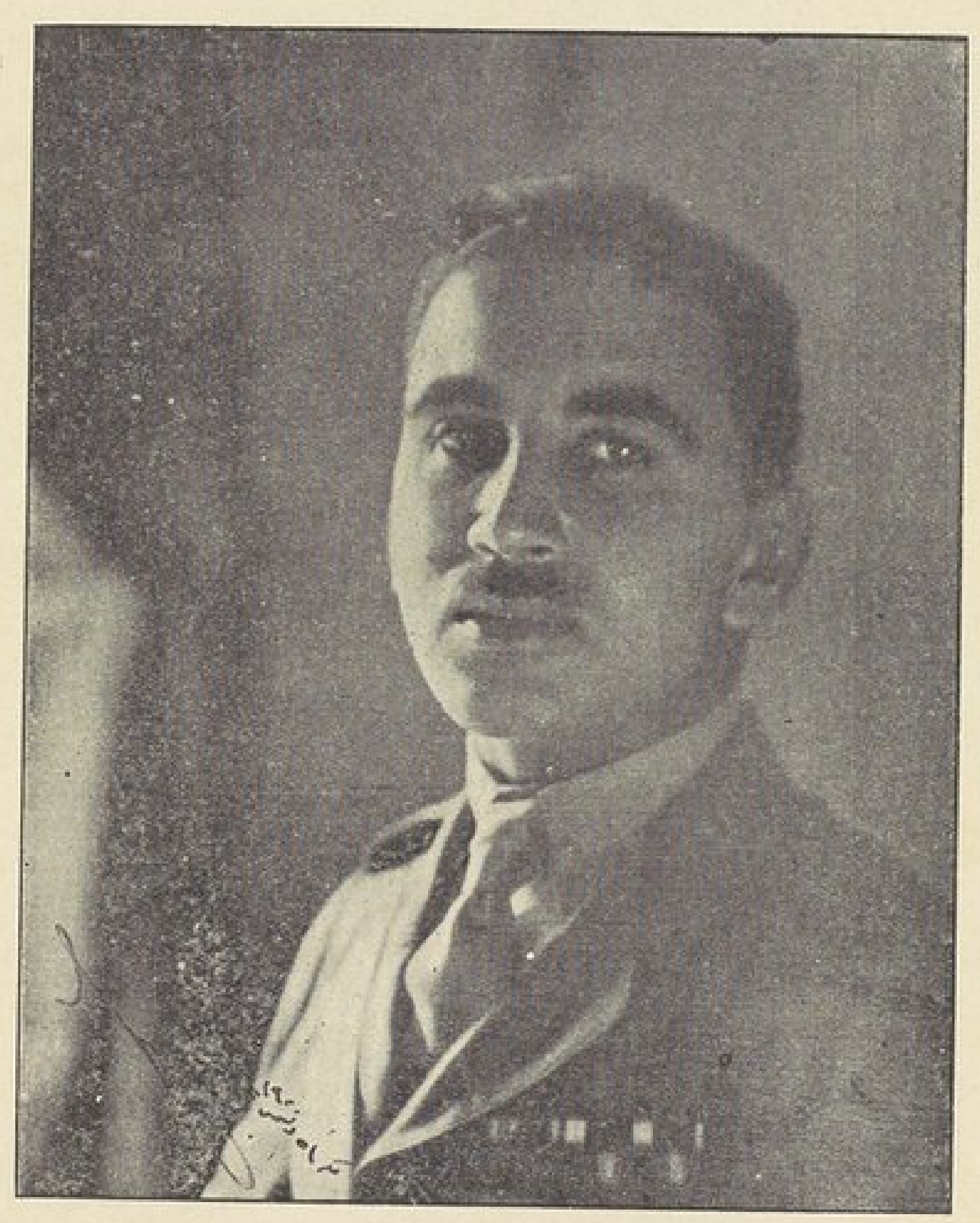
وتاريخ هذه النهضة قديم أى انه لا يبتدىء بتاريخ الحرب الاوربية الاخيرة. ولكنها ظهرت آثارها في سنتي ١٩١٥ و١٦ اتم ظهور على اثر دخول الدولة العثمانية غمار الحرب وكان يتولى ازمة الاحكام فيها حزب سياسي، مؤلف من خليط من الاتراك والارمن واليهود، واسمه حزب (الاتحاد والترقى) وعلى رأسه انور باشا وجمال باشا وغيرهما من جماعة الاتحاديين الذين ساقوا الدولة الى الحرب وهي في حالة من الضعف والوهن بعد اعوام طويلة قضتها في الحرب مع اليونان والبلغار والصرب في البلقان والطليان في طرابلس الغرب. وكانت سياسة الاتحاديين لا تتلاءم مع مصلحة الدولة فنفروا العرب منهم وآلموا نفوسهم بأذى كثير وحرموهم من مناصب الدولة مع أهليتهم وكفاءتهم واستبدوا بهم في بلادهم وهم أهل أنفة وإباء كما هو معروف في تاريخهم. فكان ذلك كله من الاسباب التي أثرت في موقف العرب ازاء الاتراك في حربهم خصوصاً وان الحرب لم تكن من مصلحة الدولة في الوقت الذي كان يرى عقلاء العرب ان الحياد خير وابقى



حضرة صاحب السمو الملكى الكريم

الامير زيد بن الحسين

امير الموصل



فتى الهمة العلياء (زيد) فتى الوغى   وهل كان هذا الشبل الا أخا الأسد

به (الموصل) استعلى فآزر واستوى   على عرشه يختال بالمجد والجدِ

أمير تسامت بالحسين أصوله   الى بضعة المختار فى النسب الفرد

المؤلف

وكان القائد التركي في الشام وهو جمال باشا قد احس بالتواء العرب على سياسة الاتحاديين وسعيهم في نشر الدعوة العربية فاراد ان يظهر عليهم ببطشه وقوته ففعل فعلته التي جاءت ضغثاً على ابالة فقتل كثيراً من فضلائهم وادبائهم . فلم يكن عمله الا ليكون سببا في اتقاد نار الحماسة في قلوب العرب فاعلنوا العداء للاتراك وقاموا بنهضتهم القومية خير قيام

وشاءت المقادير ان تساعدهم على تحقيق آمالهم . فتقهقر الجيش التركي في فلسطين والشام . فتقدم الجيش العربي الحجازي وعلى رأسه الامير فيصل (ملك العراق الآن) واستولى على الشام . وتأسست المملكة العربية الهاشمية في الحجاز وعلى رأسها كبير العرب الملك الهاشمي الجليل حسين بن علي بحسن سياسته وحكمته وعلو همته

ولا غرابة في ذلك فهو فرع من الشجرة الهاشمية القرشية التي هي أصل الدولة الاسلامية الكبرى التي انتشرت أغصانها في جميع أنحاء العالم

ثم تأسست مملكة الشام وتولى الامير فيصل ملكاً عليها ولكن الفرنساويين لمآرب سياسية قديمة دسوا دسائسهم فوقعت الفتنة في الشام . ولم يشأ الملك فيصل ان يهرق دماء العرب وهم في حداثة عهدهم بالملك وتنقصهم عدة الحرب وسلاحها الحديث ، فانتقل الى العراق واسس مملكتها العربية وتولى ملكها الى الآن

ثم انشأ الامير عبدالله أحد انجال الملك حسين بن علي امارة

شرق الاردن وتولاها بحكمته وسداده الى اليوم

ثم انشئت كذلك امارة الموصل العربية التابعة لمملكة العراق وتولاها الامير زيد بن الحسين

ملوك زانهم شرف رفيع من الشرف القديم الهاشمي

فمن يتتبع آثار هـذه النهضة العربية المباركة لا يشك في أنها قامت على أساس القومية الثابت ولا عبرة بقول القائلين ان انكلترا هي التي ساعدت على انشاء هذه الدول العربية لمآربها الاستعمارية . لان الانكليز ولو انهم ساعدوا العرب بالمال والسلاح نكاية في الاتراك اعدائهم واعانوهم على نجاح القضية العربية لاتمام المآرب الاستعمارية الا ان تاريخ العرب قبل الاسلام وبعده لايدل على انهم كانوا صنائع الامم الاخرى أو انهم فرطوا في استقلالهم يوماً ما . ولو تتبعنا أثرهم في التاريخ الاسلامي بنوع خاص لتحققنا ان المتشيعين للاتراك مخطئون في اتهام العرب بما هم براء منه . بل لعلمنا ان العرب اسبق الامم في طلب الاستقلال . وان الاسلام لم يبلغ ما بلغه من المجد الشامخ في إبان نشأته الا على صرح الدولة العربية ، فالعرب أهله وحماته ولو كره الكافرون

على انهم ما مدوا بايديهم الى انكلترا لتعاونهم على تحقيق آمالهم الا لانهم يعلمون أنها اقدر على ذلك من سواهم . خصوصا وان الامم الاسلامية على ما هي عليه من الجمود والانحطاط . فضلا عمن يناوئهم من المسلمين باتهامهم بخيانة دولة الخلافة . فكيف بهم لا يقبلون امداد

الانكليز (ولو كان الانكليز لا يعدونهم الا لمآربهم السياسـية) فانهم (العرب) في حاجة كبرى لتأسيس نهضتهم الى المال والمؤن والعـدة . وبلادهم كما نراها لا زرع فيها ولا ضرع . وهم فى ذلك على حد قول الشاعر :

ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى   عدواً له ما من صداقته بد

وغاية القول انا نبشر الاسلام بنهضة عربية اسلامية جـديدة سيكون لها شأن عظيم فى تاريخ الاسلام . وسنفصل ما شاهدناه في الحجاز من آثار هذه النهضة الميمونة في فصول هذا الكتاب

حقق الله آمال الاسلام والمسلمين بعودة المجد القديم آمين



الفصل الاول

(في سبيل الله)

لاأود أن أطيل في ذكر المشاق والمتاعب . والآلام والمصاعب التي عاناها حاج هذا العام في سبيل الواجب المقدس ـ الى بلد ولم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس

ولكن أرجو أن تسمح لي الكريمة الوفيه (حكومتنا السنية) بكلمة في ما أصابت به نفوسنا من الارهاق والازهاق . وصدورنا من تضييق الخناق عنوانها :

(ألا في سبيل الله ما حلَّ بى منكِ)

وكلمة أخرى من هذا القبيل . الى ذات الخصر النحيل والطرف الكحيل . (شركة بواخر شميل) التي لم تجد في جراب الآلام والآثام من شائك وجارح ، الا توجت به رأس كل غاد ورائح . عنوانها :

(ولا بد دون الشهد من ابر النحلِ)

والى كل معاند منهما ومكابر أسوق قول الشاعر :

اذا لم تستطع أمراً فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

فرحى لنا بما أصابنا . قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا

فيا اخواننا في الوطن والدين من رجال حكومتنا (العاملين) ما قولكم فى عمل لم توفقوا فيه الى الاحسان وغرض الى الخير انقلب علينا وعليكم الى غاية الخسران

نعم وألف مرة نعم لم تحسنوا اختيار السبيل الى الخير فكان فيما عملتم لنا كل الشر . احسسناه يعصر أبداننا ويقطع نياط قلوبنا

وان أول ما أسأتم به الى ركبنا (الفخيم) . ان شحنتمونا شحناً في ذلك القطار الزنيم . (المخصوص) بالهم والغم والكرب العظيم . الذى مضى يختال في تسكعه البارد . فيما بين الزقازيق وفايد . ولم يشأ أن يقطع هذه الجولة . الا في يوم وليلة . وما كان يكيد لنا بهذه العجلة الا دأبه على احتراق (العجلة) . فما أقبلنا على السويس حتى نسيت أن أشكره . وما أنسانيه الا شيطانه أن أذكره

ثم اتبعنا سبباً ، ورأينا في البحر عجباً

هل كان حقاً أن حكومتنا الساهرة . قد ندبت من عاين الباخرة . الكويت (الفاخرة) ؟ وهل رأى انها صالحة لحمل الحجاج من ابناء مصر . وتقول الحكومة أنها تعمل لسلامتهم في البر والبحر ؟ . . .

وهل تطاوع هذا (المندوب) نفسه فيرى أباه أو أمه أو أخاه يسبح في بحيرة من البول والاقذار بين الف وسبعمائة راكب لا فرق بينهم في درجاتهم الثلاث . يتوسد بعضهم رقاب بعض . وقد حشروا في الباخرة ذات الشمال وذات اليمين . كأنهم في (علبة السردين) ؟

هل طاوعتكم قلوبكم الرحيمة . يا رجال الحكومة . فتأخذون الناس هذه الاخذة الرابية . كأنهم أعجاز نخل خاوية

خمسة أيام بلياليها . لم يذق جفن طعم النوم الا تمويها . ولم يحس المضجع جنب الا عليلا . ثم تريدون بعدئذ على سوء عملكم دليلا ؟ . .

رحماك اللهم يارحيم الارض والسماء . فقد لعبت بنا يد الاهواء . حتى كادت الارواح تصعد اليك ياحنان . لتشكو ظلم الانسان بأخيه الانسان

قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم . ولكنكم لا تكونون من بني الانسان اذا لم تكن لكم آذان تسمع وابصار ترى وقلوب تحس وترحم . وها نحن اخوانكم وابناؤكم ثم تلقون بنا (بايديكم) الى التهلكة

هل علمتم ما كانوا يفعلون بالماء الذي قال الله تعالى تعظيماً لشأنه (وجعلنا من الماء كل شيء حي) . كانوا كأنهم يقولون لنا تشبها بجبروت الله تعالى (وما ننزله الا بقدر معلوم) . والاطفال الصغار وذوات الخمار . والشيوخ الكبار . ينظرون الى قطرات الماء يتطاحن عليها الاقوياء . وهم لا يستطيعون اليها السبيل . وحسبنا الله ونعم الوكيل

وعدد ما شئت من صنوف المذلة والهوان . التي قاساها الحجاج من ابناء اليونان . وجل موظفي باخرتي (شميل) من هؤلاء الاراذل . الذين كانوا يصبون علينا الآلام كل يوم (بالجرادل)

أقول لم يكن لشميل غير باخرتين . هما (الكويت والبحرين) . ثم يقولون انها (شركة بواخر) . وخير ما قيل فيها قول الشاعر :ـ

هل في الكويت أم البحرين آلامي	أم المصائب قد أودت باحلامي
ما زلت في سفري أدعو على نفر	منا أضاعوا سلامي بعد اسلامي
حتى الى الله لا يرضون لي سفراً	الا بقلب جريحٍ مدنفٍ دام

قد شيعونا باذلال وموجدة ... واستقبلونا بايذاء واجرام
كأننا وسبيل الله مقصدنا ... لا نستحق لديهم بعض اكرام
(شميل) لا كان ماترجوه من أمل ... فيما جناه علينا بعض اروام
خدعتنا بدعاو كلها كذب ... فكان ما كان من غش وايهام
ان الكويت وما ادراك ماحملت ... من حولنا من حثالات وانعام
كانت سفينة نوح دونها مثلاً ... في خلطها بين انعام واقوام
والناس في بطنها صرعى قذارتها ... لم يفرقوا بين مخدوم وخدام
لا بارك الله فيها يوم روحتها ... ويوم عودتها من بعد ذا العام
ولا أرانا قذى البحرين ثانية ... بعد الذى كان من ضيق وآلام

(وبعد) فالمراد بهذه الكلمة البريئة ان تخفف الحكومة المصرية الجليلة عن نفسها هذا العبء الثقيل. وتدع للناس حرية السفر والاقامة شأن كل الحكومات الحرة. لأننا رأينا عجزها ظاهراً ملموساً بارزاً في سوء اختيارها وسائل العناية بالحجاج براً وبحراً. فهي والله في غنى عن كل هذه المتاعب لنا ولها. ولا سيما بعد الذي امضنا من سلوك موظفيها وشرطتها في ميناء السويس. حتى كاد يخيل الينا ان سوء سلوكهم مع الحجاج في الذهاب والعودة كان مقصوداً بالاساءة اليهم وهؤلاء الجند الاشرار لم يتركوا سبباً من اسباب التحرش بهم إلا طلبوه متكئين على قوة الحكومة وسلطتها

لم يسمحوا ـ قاتلهم الله انا ثقفوا ـ لواحد من الحجاج المساكين ان يتخطى باب الميناء الا بعد غروب الشمس. فمكثوا من أول النهار

الى آخره بغير طعام ولا شراب تحت نار الشمس المحرقة في ارتقاب ساعة النزول بالباخرة حتى كاد الاعياء وشدة الحر يذهب بهم شر مذهب

ولو كان هماً واحداً لاحتملته ولكنه هم وثانٍ وثالث

فلا ندري ما هي الحكمة في هذا التحكم السخيف في رقاب الناس يسومونهم سوء العذاب ولم يذنبوا نحو الحكومة في شيء الا انهم متوجهون الى طاعة الله واداء ما فرضه على المسلمين

من ذا الذي يرضى بهذا التصرف الشائن بحجاج بيت الله الحرام الا من كان أعمى القلب ضليلا . « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا . »

هل خيل الى رجال الحكومة (المتمدينين) اننا وقد استسلمنا لهم في هذا السبيل ــ سبيل الطاعة والهجرة الى الله ــ فقد حقت علينا مساويهم وصدقت فينا دعاويهم ــ فلا ينظرون الينا الا كما ينظر الراعي الى قطيع الاغنام ؟ كلا فليس كذلك أمرنا أيها الكرام . بل نحن بشر مثلكم نحس ما تحسون . ولنا كرامة نشعر بها كما تشعرون

هل تريدون ان نضرب لكم الامثال على ان حكومة (البادية) التي بهرتنا بصفاتها العالية . تحمل بين يديها من وسائل الراحة لنا والامن علينا خيراً مما تحملون ؟ سنذكر لكم طرفاً مما عاملتنا به حكومة الحجاز فى بلادها من جدة ومكة وغيرها في السفر والاقامة عند الكلام على حالة الحج هناك مما لا يدع مجالاً للريب في انكم لا تنظرون الى

(قطمان) الحجاج كما هم اليهم ينظرون . وسنذكر لكم أيضاً كيف انكم لم تحسنوا عملاً في اعادة المحمل مع الحجاج المرافقين بغير حج وهم محرمون . ومهما قلتم في هذا الصدد من العبارات المنمقة والبلاغات المزوقة في تحبيذ هذه العودة . وتبرير موقفكم فيها . فستعلمون انه لم يكن حقاً لكم أن تمنعوا ما أمر الله به أن يوصل . ولا كان عملاً صائباً أن تشاكسوا حكومة الحجاز الكريمة وهي تحمل خمسة آلاف من أبنائكم واخوانكم وأمهاتكم وبناتكم على أكف السلامة والكرامة . وليس أشنع ولا أفظع من أن تجدوا من ورائكم أبواقاً شتى المقاصد الدنيئة تدوي في مصر ذلك الدوي الشائن الذي كان يهز منا بين أكنافهم المضاجع ، ولانجد من هؤلاء العرب الكرماء الا استرسالا في اكرامنا ورعايتنا . وكأنكم كنتم تريدون بنا شراً ولا يريدون هم بنا الاخيراً . ولكن ستعلمون الى أي حد تجري بكم الدسائس الشريرة وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون



الفصل الثاني

(في ميناء جدة)

كان نزولنا من الباخرة الخبيثة (الـكويت) الى ميناء جدة حوالي الظهر بعد أن سارت سيرها الممقوت خمسة أيام نحوساً . في المسافة التي لا تزيد البواخر العادية فى قطعها عن يومين وبعض يوم . ولـكن ما حيلتنا وهذ النحس (المصرى) قد لزمنا فى رحيلنا من أول يوم وهو يرفرف علينا حتى بلغنا الى حيث بدلنا الله بما أثلج صدورنا بعد العناء . وأفعم قلوبنا بالمسرة والهناء . وكيف لا وقد تخلصنا من آلام وهموم كنا نخشى أن تكون لنا بالمرصاد لا أن تكون معنا في الزاد . فرأينا غير ما ظننا والفينا خلاف ما توهمنا . رأينا اهتماماً بنا من رجال تلك الحـكومة الفتية . أبناء الأمة العربية الزكية . عرفنا من بينهم رجلا فذاً في الفضل والأدب لا أكون مبالغاً اذا قلت انه ليس فى الحـكومات المتمدينة كثير من أمثاله أعني به الشهم الـكريم محمد بك الطويل ناظر الرسـوم الجمركية في جدة . رأيناه لا يألو جهداً وهمة في تذليل المصاعب فى سبيل راحة الحجاج المصريين خاصة . حتى لم نجد منهم الآ من عطر لسانه بالثناء عليه . وذكره بأطيب ما يذكر به الفضـلاء . وانه لحق علينا أن نشاركهم فى ذكره بأجمل ما يجب لأهل الوفاء

ورب متحكك بالمحمل وحادثته فيهرف بما لا يعرف . ويتهم حكومة

الحجاز بما هي بريئة منه . فيقول انها كانت عناية مدبرة وان اكرام المصريين كان مقصوداً . لحاجة في نفس يعقوب . . . وهو قول مردود على قائليه رداً خبيثاً . لانهم قوم لا يكادون يفقهون حديثاً

لسنا يا قوم من الغباوة بحيث تنطلي علينا هذه الاكاذيب وخيركم من هذبته دروس التجاريب . والاخلاق القويمة لا تحتمل المغالطة في الحق . وتأبى في مواقف التمحيص الا قول الصدق

وهل يرضى أحدكم أن يجلب على نفسه عوامل الشر أم يقول « لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير . »

وهل يرفض الخير والرزق الا ذوو الجهالة والحمق . وخير ما تجيبكم به أمة استقلت . « رمتني بدائها وانسلت »

أعود الى ما كنت أتحدث عنه من تعديد المناقب المحمودة في رجال الحكومة الهاشمية بجدة . ولا أخشى الصراحة اذا قلت انني مدين بواجب الشكر لهذا الرجل الكريم الجليل . محمد بك الطويل . عن نفسي وعن جميع الحجاج المصريين الذين لا أظن واحداً منهم لم يشعر بهذا الواجب عليه نحوه لما شهدناه في ذهابنا وعودتنا من اهتمام بنا لم يكن من أعمال وظيفته ، مما دلنا على كرم عنصره وطيب أخلاقه ومروءته ، حتى لقد كان يأتينا من قبله ضابط الشرطة كل مساء يسأل عن راحتنا في المنازل التي نزلنا فيها وبمثل هذا نحدث عن مناقب محافظ جدة (القائمقام)

رجال كلهم شهم كريم   وبعض صفاتهم همم الرجال

ويسوءني كما يسوء كل منصف أن ينسب الى هؤلاء الرجال الكرام أنهم اساءوا استقبال طبيبي البعثة المصرية وهما الضبع افندي وابراهيم سليم افنـدى . والذي علمناه علم اليقين انهما بعد نزولهما من الباخرة معنا توجها تواً الى حيث أقاما بجوار ادارة الجرك ونصبا خيمة أحضرا فيها ما كانا يحملانه من منشورات مصلحة الصحة المصرية وطفقا يوزعانها على الحجاج وغير الحجاج بواسطة مساعديهما ، وأن بعض هذه المنشورات وقعت في أيدي رجال الحكومة العربية فأبلغوا أمرها الى مركز الحكومة فى مكة فأمروا بمنع نشرها لما حوته من التحذيرات المخيفة خاصة بماء زمزم مما يبعث الرعب في نفوس الحجاج ولان أمر البعثة المذكورة وقد أسمتها الحكومة المصرية (بعثة طبية فوق العادة) لم يبت فى بشأنها بين الحكومتين . وكلف رجال الحكومة العربية فى جدة أن ينصحوا لطبيبي البعثة المشار اليها بالكف عما همت به من العمل بغير اذن حكومة الحجاز حتى يحضر المحمل بركبه وتجري مفاوضة جديدة بشأن هذه البعثة . ولم يحدث غير ما أذكره حادث يدعو الى مايتهمون به رجال الحكومة الهاشمية فى جدة من اهانة للطبيبين الآنف ذكرها . الا أنهما أصرّا على (تنفيذ أوامر) الحكومة المصرية بالعمل فهددا بالمنع بالقوة فامتنعا وبقيا فى جدة مع من حضر معهما من المساعدين حتى جاءت باخرة المحمل بين تحمل وحصل ماحصل مما سيذكر فى بابه

هذا هو الحق الذي فيه يمترون . ولعن الله قوماً ضاع الحق بينهم

قد كان هناك متسع من الوقت قبل زمن الحج لتبادل المخابرة بين الحكومتين في أمر ترى الحكومة المصرية انه عمل صالح دعا الى اهتمامها . ولكن الطريق التي سلكتها لاتمامه محفوفة بالظنون . ولانها لم تهيء لها اسباب السلامة فاندفعت فجأة في طريقها تحمل في احدى يديها (أمر قبول البعثة بلا قيد ولا شرط) . وفي اليد الاخرى أمر عودة المحمل بما يحمل من كسوة الكعبة وارزاق مسبلة لفقراء مكة . فبلغت المسألة حداً من سوء الظن بنا لم يكن من الحكمة ان نصل به لاغضاب حكومة اسلامية نحن في رعايتها وكنفها . فاثبتنا للناس اننا لا نحسن التفاهم بل نتقن اسباب التقاطع

لا يمكن لمن يحس قلبه ذرة من الاشفاق والحنان ان يقر مصر على حرمان الفقراء والمساكين عند بيت الله المحرم رزقاً لهم . ولا يقدم على ذلك انسان له قلب ووجدان

فياقوم لا تجعلوا للضغن على اخوانكم فى الدين سبيلا الى نفوسكم فقد أسأتم الى أنفسكم والى غيركم من المسلمين . ولا تريدون الاقرار بما أخطأتم . وتمادون فى قول الباطل تبريراً لما فعلتم . حتى حرمتم الكعبة المشرفة من كسوتها . فتطاول غضبكم على حرمتها فكنتم كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وتشبهتم فى عملكم هذا بالذين « يريدون ان يطفئوا نور الله بافواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره . »

كيف جاز لكم ان تقطعوا ما أمر الله به ان يوصل . وهذه احداث

آبائكم واجدادكم لا تهدأ مضاجعها مما تجرمون . تضرع الى الله ان تكونوا على آثارهم مهتدين

حقا لقد صرنا الى زمن أصبح القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر . خصوصاً في بلد العجائب مصر

وبعد نخير لي ان أعود الى منازل جدة فنحن على قدم الرحيل الى بلد الله الحرام . ولا أطيل في وصفها . فهي ميناء صغير . على الطراز الشرقي القديم . لولا ضرورة المقام فيه يوماً أو بعض يوم لتجهيز الراحلة الى مكة . لفضلت مواصلة السفر من البحر الى البر توا وبغير امهال . لان هواء جدة كثير الرطوبة مع شدة الحرارة فلا يمر يوم على النازل فيها الا متوعك المزاج . مضطرب الاعصاب . فاتر الهمة والنشاط . فهواؤها على الاطلاق غير صالح للاقامة هناك وخصوصاً اذا جمعنا اليه قذارة المأكل ورداءة المشرب . وفساد الجو من تقلب الهواء . ومع كل هذا واجتماع الجموع الغفيرة من الحجاج على اختلاف اجناسهم وطبقاتهم فقد شهدت اهتماماً مشكوراً من رجال الحكومة العربية لتسهيل المقام فيها بقدر الامكان فاصبحت في العهد الجديد خيراً منها في العهد القديم

أما منازلها فتكاد تشبه من بعض الوجوه منازل مكة بناؤها من احجار الجبل لا يلفت النظر منها الا بناء دار الحكومة فهو خيرها وأنسقها .

والنظام الجمركي فيها على بساطته جميل . بهمة الرجل المدرب

محمد بك الطويل · الذي ترجع خبرته الواسعة الى العهد القديم فقد كان في ذلك العهد مأمور التحصيلات وبقي الى أن تبدل الحال غير الحال.

وشتان بين الفوضى وبين النظام في الاعمال

قد كان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن السبب

الفصل الثالث

(في طريق مكة المكرمة)

خرجنا من جدة قبيل غروب الشمس من اليوم الثاني . تحملنا تلك الهوادج الهزازة (الشقادف) على ظهور الجمال العربية الضامرة . وكنا في النصف الثاني من ذي القعدة · وبالرغم من تلك الاهتزازات العنيفة التي آلمتني في أول الامر فقد كنت منشرح الصدر طروباً كلما مررت بتلك التلال الجرداء الشامخة في صفيها على طول الطريق الى مكة

غربت الشمس بعد ان ودعت الطبيعة الحجرية ساعة على رؤوس الجبال وكللتها باكاليل نارية هوجاء تأخذ حرارتها المتأججة في التلاشي ساعة بعد أخرى

ساد سكون رهيب يظلل تلك الرؤوس الشامخة على جانبي الطريق وساورتنا ظلمة موحشة لا يخفف من روعتها على النفس الا ما يتخللها من أناشيد بعض الحجاج رجالاً ونساء · وناهيك بحداء الابل الذي

يعيد الى المخيلة ذكرى الماضي البعيد . كلما ضربت بأخفافها الى الرمل في سيرها الهادىء المنتظم . ذلك الضرب الذي يرن صداه في انحاء الطريق فيطرق الأذن منه صوت الايام الخوالي مرددة ذكرى المجد القديم . مجد العرب في الاسلام . مجد أولئك العظماء من الرجال الذين شادوا بناءه الخالد على أساس التقوى والاتحاد . أولئك الذين كان شعارهم الأسمى قول الله تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » أولئك الذين أحسنوا فى الحياة الدنيا . وكان سعيهم مشكوراً

أطل علينا القمر مشرقاً من وراء الجبال . فبان عن منظر جليل أفعم النفس بجلال الطبيعة البدوية الصماء الذي لم تستطع يد الانسان أن تعبث بعظمته الرهيبة على تعاقب الدهور والأزمان . تلك العظمة الخالدة التي يدوي صداها في رؤوس الجبال السامية . المكللة بأنوار القمر الزاهية . تناجيه أحاديث الأيام الخالية . فيناجيها حديث الاغيار . على مر الليل والنهار :

ياذات القمم الشامخة والقدم الراسخة . ما شأن الذين كانوا يملأون السهل والجبل . بمحاسن القول والعمل . نبئينا عن آبائنا الفاتحين . وأبنائهم الغابرين . حدثينا عن الاسلام يوم الفتح المبين . والعز المكين . والشرف العظيم . والمجد القديم . حدثينا عن سيد المرسلين وخلفائه الراشدين . ان الذكرى تنفع المؤمنين

وأنت أيها القمر الساري مع الاجيال . فيما مقامك بين رؤوس الجبال فتجذب الانظار . الى تلك الرسوم والآثار . فهل تجد ربح ابن

الخطاب . في ثنايا الحزون والهضاب . وما هذا السـواد الذي يجلل أستارها . أهو شعار الحداد على آثارها ؟ . . .

كأن هاتفاً يهتف بي من الجبل : لا تكن يا فتى مصر في وجل . ولا تخش على مدنية عدنان . أن تذهب بها يد الحدثان

ان مدنية عمر وأبي بكر . منقوشة في المسلمين على كل صدر . يتوارثها الابناء على مر القرون . لا كما يتوارثون أحجار (مينا) وبقايا (توت عنخ أمون) تلك مدنية الرؤوس والصدور . وهذه مدنية القبور . واعلم يابني ان الاقدار . لها حكمها في هذه الدار . فلقد بقيت مدنية الاسـلام . منشورة الاعلام . أيام كان المسلمون بأحكامها عاملين . وبآثارها مهتدين . حتى اذا كان اليوم الذي فترت فيه الهمم وضاعت من نفوس المسلمين مزايا الشمم . وتفرقوا فلولاً في ثنايا الامم . وتساهلوا فى أحكام الدين . وغشيهم ماغشيهم من ضعف اليقين . سقط من بينهم ذلك العضد المتين . وحلت بهم نكبة المتدهورين

ذلك شأن المسلمين اليوم . لايبرحون في سنة من النوم . واسألوا ان استطعتم اجدادكم . يجيبوكم بقوله تعالى « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . »

أيها المنادي من وراء الجبال ، إنا لله واليه المآل

الهي أنت للاسلام رب فلا تعجل علينا بالعـذاب
الهي أنت ذو فضـل عظيم فبلغنا الى حسن المآب
الهي ليس للاسلام الا سناؤك فاهدنا سبل الصواب

الهي اننا قوم ضعاف فقدرنا على نيل الثواب
دعوت الى العلى فأتيت اسعى الى مسعاك يارب المتاب
بحق البيت عندك والمصلى وكعبتك الكريمة والكتاب
أعد يارب للاسلام مجداً تولته مساعير الذئاب
وأعزز شأنه حتى ترانا على آثار مرفوع الجناب
وزدنا قوة في الدين حتى نبوء برحمة يوم الحساب

أصبح الصباح وأشرقت الشمس على البطاح . ولم تزل بنا القافلة تسير . وانا متكيء على ذلك (السرير) . انظر ما حولي من آيات الله في الارض وفي السماء . (وفى انفسكم أفلا تبصرون) .

بحرة

وما ادراك ما بحرة . قطعة من السعير . وشرها مستطير . ولولا لطف من الله ورحمة . لقلت ان هذا المكان مهبط النقمة

حططنا الرواحل . ونزلت بنا النوازل . سحابة نهار . كله نار لولا بضعة اكواخ منصوبة . يقدمون فيها الشاى والقهوة المصبوبة لكان الموت فى هذا المكان بعض ما فيه . خصوصاً وخصوصاً من مائه الكريه . فأضرع الى الله ان يوفق الحكومة الهاشمية . الى وسيلة لازالة هذه البلية . انه لطيف خبير . وعلى كل شيء قدير

على ابواب مكة المكرمة

سارت بنا القافلة من بحرة بعد العصر . فحدث عن سرورنا من البعد عنها فهي بحرة الشر . فقد بقي اثرها في المعدة ناراً . وفي الرأس دواراً . حتى غابت الشمس . واقبل الليل فروحت عن النفس . وأشرقت اضواء البدر في السماء . فاكتست حلة البهاء . فاشرأبت الروح تخترق الآفاق صارفة عني ما نالني من الارهاق

واشرفنا على بطاح مكة في انوار الفجر . تخالطها انوار البدر . فكانت اديماً مشرقاً بالاضواء الزاهية . لامعة في ابرادها الصافية . فترجلنا افراداً وجماعات . من الطائفين والطائفات . وخشعت القلوب والابصار . وارتفعت الاصوات الى عالم الاسرار « لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك . ان الحمد والنعمة لك والملك . لا شريك لك . »

حتى اقبلنا على منازل البلد الامين . وقد تضاعفت أصوات الملبين . وساورت الجميع نشوة لا يستطيع وصفها قلم أو لسان . فهي لمعات في الروح أو كهرباء في الوجدان . تطغى على مشاعر الانسان

تلك هي الحاله التي تتقلص فيها ظلال المادة عن الارواح . فتفيض بمكنونات اسرارها الى الكريم الفتاح : صبغة الله يتجلى بها على من يختاره لمشاهدة النور الاعظم . عند بيته المحرم . فلا دهان فيما صبغ الله به نفس عبده ولا روغة . ومن أحسن من الله صبغة

الفصل الرابع

في كنف الله

ازدحمت الطرق في مكة المكرمة بالعير التي اقبلنا فيها . فاصبحت في هرج ومرج لاستقبال الوافدين عليها - فنزلنا بين اهلها الكرام منزلاً مباركا .

وطفق الناس يتدافعون على البيت المعمور لطواف القدوم والسعي للعمرة . وكنا محرمين بها من الميقات . فناهيك بما كانت تطفح به الأرواح من الشعور اللطيف وبما ثملت من اجتلاء محاسن المشاهدات

حالة تتدفق فيها الروح بفيوض من الأسرار لا يستطيع الانسان وصفها مهما أوتى من بلاغة البلغاء . لانها حالة ترتقي في مسارح الوجدان فلا يكاد الانسان يحس نفسه وهو مأخوذ بما يجهل أو يكاد لا يعرفه من الشعور الروحاني الذي لا دخل للعقل ولا العقليات فيه . فهو شعور غريب يتملك الوجدان فيغرقه في بحر فياض شفاف من اللطف فتتسلط الروح على الكيان الانساني فترى بعينها أموراً وأحوالاً لا سبيل للعقل البشري الى فهم حقيقتها

ويقيني أن الادراك العقلي هو بحسب ما أحاط بي من تلك الحالات الروحانية ليس الا مرتبة واطئة في مدارج الكمال

ان الانسان بعقله وحده لا يستطيع أن يستكشف اسرار الانسانية المتدرجة على مراتب الرقي الى درجة السعادة العظمى

فهناك بجوار البيت العتيق لا يجد الانسان طلبة العقل مهما أوتي من مواهب الحكمة العقلية الدنيويه . هـذا العقل يقف ثمة مبهوتا عاجزاً عن ادراك الحقيقة التي تتمتع بعرفانها مشاعر الروح فحسب

وهنا أيضاً مجال للتفكير . فهل يعلم العقل ماهية المزايا المترتبة على اجتماع هذا الخلق المديد . حول بناء من الاحجار لايعرف الآ بأنه (بيت الله) انه لو تحكم العقل في مشاعر الارواح لاصبح هذا المكان خاليا من الطائفين والركع السجود . ولكن ما الحكمة اذن في قول الله تعالى وهو احكم الحاكمين : « وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . »

دعاء من الله سبحانه وتعالى اجابته الارواح قبل ان تفكر العقول في ماهية هذا الدعاء . وأقسم بالله الذي وفقني الى اجابة هذا الدعاء انى لم احتكم الى عقلي في اداء هذا الواجب المقدس قبل اليوم الذي اعتزمت السير فيه الى الحج

هذا هو الحق الذي لا مرية فيه . لانني في الليلة التي أصبحت فيها معتزماً اداء فريضة الحج وكانت من ليالي رمضان وقد جلست منفرداً الى كتاب اقرأه . فما انا الآ وقد زاغ بصرى في سطور الكتاب وكأن يداً خفية طافت على الصحيفة فمحت أثر الكتابة فيها وانطبع في ذهني منظر غريب عني . ما كنت أفكر فيه ابداً . هو صورة البيت المحرم والناس يطوفون به وهو مشرق عليهم بالانوار . وكأن هاتفا هتف بي من اعماق نفسي : الى الحج ، الى الحج !

وقد أيقظني في الصباح صوت الهاتف صائحاً حولي في كل مكان « الى الحج ! » ولم يهـدأ ثائره في نفسي حتى تجهزت بجهاز السفر ، مردداً : لا يمنع حذر من قدر

وقد اذكرني بعض الاخوان ، ما كان مني في ليلة نصف شعبان ، والخلاف في تخصيصها للدعاء . فقلت : ان الله يؤتي فضله من يشاء

وذلك أنه لما كانت الليلة (المخصوصة) بالالهام . واحتفل بها الخاص والعام . لم ابرح مكاني ولكني توجهت الى الله بوجداني • ولم يصرفني عن رأيي لوم اللائمين . ولا انكار المنكرين • وقلت ان الله يختص برحمته من يشاء • فليس لنا ان نحدد الزمن لاجابة الدعاء • قالوا وما تقول في قول الله تعالى فى الكتاب « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده امُّ الكتاب » قلت ان أهل العرفان • قالوا غير قولكم في تفسير آيات القرآن . وقالوا ان المحو والاثبات . مفهومان في هذه الآية بمدلول غيرها من الآيات • فهما خاصان بالاحكام • التي يريد الله بها صلاح الانام • يمحو ما لا يناسب حالة الزمان • ويثبت الانفع منها لبني الانسان • وام الكتاب • هو علمه الازلي بالمسببات والاسباب

وتوفيق الله الى الطريق القويمة . قوة منَّ الله بها على الفطرة السليمة . ولا دخل لاختيار الانسان • فيما تهمُّ به روحه من ضروب الاحسان • فان للروح مسارح تأوى اليها في غفلة من العقل • فتحمل معها الانسان بقوة الفعل . وما كان لها أن تريد . اذا كان الله لا يريد

والآن وقد وقفت بى الروح موقفها من هذا البيت المكرم

تريد أن يشعر الناس بما تشعر به من لذة المشاهدة في هذه الاماكن المقدسة والتمتع بالنظر الطويل الى الكعبة المشرفة . التى جعلها الله مثابة للناس فامر نبيه ابراهيم عليه السلام أن يقيم شريعة التوحيد . وتوارث الحنفاء من ملته السمحاء شعور التكريم لهذا المكان الطاهر المقدس وما تقوم به من المراسم التعبدية فيه . ليس الا تخليداً لما قام به هذا النبي الكريم — خليل الله — بما أمره من عبادته حق العبادة وتخليد ذكرها . والتوحيد خير آثارها . وما جاء نبينا محمد ﷺ الا مجدداً لدين الاسلام . دين عبده ابراهيم عليه السلام . وهو دين التوحيد بعد ان عبثت به ايدي الجاهلية

ففريضة الحج هي خروج المسلمين من مشارق الارض ومغاربها للاجتماع في هذه البقعة المطهرة . احياء لذكرى التوحيد على ملة ابراهيم ثم « ليشهدوا منافع لهم » وهي كثيرة لا تعد . فمنها منافع ادبية تتولد من تعارف المسلمين على اختلاف اجناسهم . فتحصل الثمرة من تآلفهم على أساس الرابطة الدينية . فالحج من هذه الوجهة (مؤتمر اسلامي)

ونحن فى هذا الزمن الذى نزل بالمسلمين فى ديارهم ما نزل من ضروب الاذلال والاستضعاف ، وتغلب الافرنج بكافة انواع التغلب عليهم في بلادهم . فلا طريق لهم اقرب لخلاصهم من اسر مستعبديهم اقرب من طريق هذا المؤتمر العتيد . ولا قوة ترجي لهذا المؤتمر الا باقبال المسلمين على اداء فريضة الحج . فيجتمعون فيه ليبحثوا عن علة

هذا الجمود الذي أصاب جسم الاسلام فأقعدالهم . واضاع من نفوس المسلمين خلة الشمم . ثم ليختاروا الدواء الشافي لهـذا الداء الخبيث . ولا يتيسر لهم ذلك الا اذا نشط عقلاء الامم الاسـلامية وامراؤها وكبراؤها . فيجمعهم مكان واحد . وغرض واحد . ثم يقفون جنباً الى جنب بين يدي الله يسألونه العون والهداية وهو سبحانه وتعالى قادر على ان يلهمهم النجاح فيما هم اليه قاصدون

ومنها منافع مادية يصيبها المسلمون في الحج . حدث عنها ولاحرج . فقدانصرفت همم الامم الاسلامية في هذا الزمن عن التعاون المالي والتجارى فيما بينها الى تعضيد المتاجر الافرنجية . حتى أصبحت التجارة الوطنية في البلاد الاسلامية لا قيمة لها ولا فائدة ترجى منها . بل أصبح الربح كل الربح للاجانب . حتى وقعت هـذه الامم فريسة الاستعمار ولا حول ولا قوة الا بالله

فاذا انصرفت همم هذه الامم الى تقوية الروابط الادبية والدينية بينها بواسطة الحج استطاعت يوماً ان تتخلص من ربقة الاستعباد

اما اذا بقيت على هـذا الحال من التقاطع والتباعد والتقاعـد لاينظر أحدنا الى فريضة الحج بالعين التي ينظر بها الى السياحـة في اوروبا . بل كما ينظر الى هـذه السطور وعلى ملامح وجهه ابتسامـة الهزء والسخر . فلا نبشر امة من الامم الاسلامية بتغير حالها . وقد قال الله تعالى « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم »

والالم كل الالم فى ان كل كلام من هذا القبيل أصبح لدى كثير

من شباننا (المصريين) غير محمول على محمل الجد ولا يستحق منهم بعض اهتمام . لان الفرنجة قد أخذت من نفوسهم كل مأخذ وسحرتهم اباطيلها بسحرها الكاذب الى حد ينذر باسوأ العواقب التي أقل مظاهرها والعياذ بالله فقدان الكيان القومي والاعتبار الاسلامي

لست يا اخواني (الظرفاء) في مقام الارشاد . فالله يتولانا بالهدى والرشاد . فانه سبحانه وتعالى يقول لخير الانبياء : انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدى من يشاء

الروح في الطواف

الروح تدرك ابعد الرغباتِ فوق الحجاب وارفع الدرجاتِ
والجسم سجنٌ دونه فُرَصُ المنى في اعظم الحركات والوثبات

***

ياليلةً روحي بها قد افلتتْ من سجنها تستكشف الظلماتِ
للمسرح الاعلى ارتقت فتنعمت وَالمرتقى يكتظُّ بالحفلاتِ
وتغلغت في (صحبة) حَفَلَت بها وتمتعت بحدائق نضِراتِ

***

ما الكهرباء تألقا الآ ظلا مٌ إنْ اضاء العرش باللمحات
ما زُخْرفُ الدنيا وطلمةُ حسنها الآ القفارُ بجانب الجنّات

لا والحسان الساحراتُ بدلّها　　الاّ لتلك الحور كالقينَات [١]

نَظَمَت عُقود صفُوفهن (مليكةٌ)　　حسناء نَظم البدرِ في الهالاتِ [٢]

ينشدن تسبيح المهيمن ركعاً　　متخشعات الذكر والصلوات

* * *

مقلٌ تغضُّ مهابةً وطهارةً　　وتفيض دمعاً لا من الحسرات [٣]

بل انه الحب اللذيذ على القلو　　ب يولّدُ الابكاءَ في اللذاتِ

تَشدُو مرتلةً هناك بسورة الر　　حمن رَبِّ اللطف والرحماتِ

روحي السليبة لو تصاحب مُهجتي　　لتهتكت في مسرح الملكات

لكن صفات الطهر كانت عصمتي　　بيد الخشوع لمستقرّ عظات

علِمت صَواحِبُها بأن وُرُودَها　　هربٌ فزادتها من النفحات

رُوحٌ معذبة نجت وتطهرت　　مما المَّ بها منَ النزغات

طابت فولت وجهها شطر العُلا　　ترجو اله العفو بالدعواتِ

ربّ السلام ومبدع الاكوان ا　　ألك الهدى والقرب والحسنات

مصر كنانتك الكريمة جُدْ لها　　بمعُونة لخلاصها وهباتِ

هَبْها السلامة والكرامة والرضى　　وابعث بها من ربقة ومواتِ

أدعو اليك بحرمة البيت المنيفِ الطّاهر المستوثق الحرماتِ

وبحق أحمدَ صاحب الحجّ الذي　　وافاكَ قبل الموتِ من عَرَفات

---

(١) جمع قينة وهي الجارية السوداء قيل وهي (الوصيفة) ايضاً

(٢) صفوف الحور والمليكة هي البدر في الهالات منظوما و ناظما

(٣) هي مقل الحور الباكيات من لذة النعيم

أن تكشف الضراءعن(مصرَ)التي   هي كالعليل نجاتها بأساة [١]

وانشر عليها رُوحَ فضلكَ إنها   روض الندى والنيلِ والثمرات

فيها زها الاسلام فانقشع الظلا   م وكان نور العلم كالمشكاة

يوماً وأحياها مضاء محمد   الناصر الاسلام والحرمات [٢]

حتى قضيت بما قضيت فرحمة   إنّ الأسى يستمطر العبرات

لطفاً بها من وَهدةِ الجهل الذي   وَهَنَ القوى وكفى به مثلات

وأعدْ لها استقلالها من غاصب   أربى على نصفِ الوَرى حلقات [٣]

وأقم لها المجد القديم زمان عمـ   ـرو صاحب الفسطاط والحملات [٤]

وارفعْ لها صرح السعادة في العلا   واجعله بالعرفان صرح نجاة

وانصرْ رجالَ النهضة العربية الكبر   ى بعزم (حُسينٍ) ذي النجدات

والباذلين جهودهم لخلاصها   ونجاحها من أطهر الغايات

يارب ان المجدَ إرثُ جدودهم   مَن كنتَ أنت وليهم بهبات

هم دولة الاسلام بعد نبيهم   كانت ولا أمم وَجيشُ كماةِ

---

(١) الاساة جمع آسي وهو الطبيب

(٢) هو محمد علي باشا صاحب المواقف في الحجاز مقرّاً سيادة جد الملك حسين بن علي على أم القرى وواهب أوقاف الحرمين الشريفين من مصر لمكة والمدينة

(٣) هي القيود التي أحاط بها مستعمراته من الذل ويحاول ادخال عنق مصر فيها وتسمى حلقات ومثلها الربقة

(٤) هو عمرو بن العاص فاتح مصر في الاسلام

جَدَّدْ لها مجد الأعارب كيْ به تسعى الى العلياء بالعزمات
فلأنت أكرمُ من سألت ومن به هذا النوال أعزّ كل صِلات
وأفض على مصر الهناء بسعدها وأعزها بسداد الرَميات
واجعل هَناء فؤادها رمز السلا م و سعدها رمزاً لخير حياة

الفصل الخامس

« صاحب الجلالة الهاشمية »

ملك العرب الأكبر

وأبو ملوكهم الأشهر

دعاني في ذات يوم من أيام الاقامة بمكة المكرمة بعض اخواني من الحجاج المصريين ومن وجهاء مصر وعلمائها وأدبائها لنتشرف بزيارة صاحب الجلالة الهاشمية في قصره العالى . فاضطررت لارتداء بذاتي الأفرنجية اللاصقة الخانقة لأني والاسف لم اعتد اللباس الشرقي لكي افتخر بزهوى به بين الناس في مصر وغيرها . اللباس العربى الاسلامي الشرقي المعروف بالجبة والقفطان اليوم وغداً وبعد غد الى يوم الدين أعاد الله مجد أهله للاسلام والمسلمين والعمامة التي كانت - ولم تزل - تاج الفضل والعز والشرف على مفرق خير الاصفياء النبي العربى الاكرم وخلفائه الراشدين حماة بيضة الاسلام ودولة المسلمين

وتابعيه من ابناء المجد العظيم . وأحفاد ملوك الاسلام المحسنين (أولئك حزب الله . الا أن حزب الله هم الغالبون)

فتحزلقت في هذا الثوب (الخانق) الحازق . . . . وقصدنا الى القصر الهاشمي الفخيم . وهو أكبر صرح شيد في جزيرة العرب يقوم على الذوق العربي اللطيف (البسيط) الذي يبعث في نفس القاصد اليه هيبة ورغبة وانشراحاً لذكرى بانيه والبانين اساسه على التقوى والدين والقائمين على عرشه من آباء وبنين . وسلكنا اليه من باب عال يتدرج اليه الصاعد على عدة درجات من الرخام • وأتينا الى قاعة كبرى بالطبقة الثانية فاستقبلنا حجاب جلالة الملك وأحسنوا الترحيب بنا . وتقدمنا كبيرهم الى ردهة (صالون) فسيحة ثمينة الرياش ذي الطراز العربي الجميل . ثم أذن جلالة الملك بالدخول في حضرته فأقبلنا عليه وهو واقف الى مكتب يحمل طبقات كثيرة في صفوف من الكتب القيمة • ورحب بنا بأحسن تحية واكرام . وأدنى اليه مجالسنا • وهش وبش وحدثنا أحاديث الحكمة والسداد وكنت آخر مسحور بأدبه في الحديث • ورقته في اختيار المعاني الشيقة الجليلة التي سأذكر بعضاً منها بعباراته العربية الفصيحة . وكنت كثير الميل لادامة النظر اليه فاختلست نظرات حادة عميقة • واستجلت كثيراً مما يجول بمخيلة هذا المفكر الحكيم

وقد عاودنا الزيارة مرات طول مدة اقامتنا تحت ظلال الحرم الامين • قضيناها خمسة عشر هلالا (عربياً) منيراً

طافت بنا شمائله النجيبة أسعد مطاف . وملأت نفوسنا بمسرات احتفاء واحتفال . الى محاضرة الى مسامرة . حتى أوجب حمدنا وثناءنا وحتى أغضبنا كثيراً ما أمطرتنا به جرائد مصر من الحملة على جلالته حملات خبيثة . كنا نخجل وأيم الحق أن نجيب الدعوة أثر الدعوة نخص فيها بمشاهدة الاستعراض العسكري الذي أمر جلالته به في احتفال شائق فى ساحة المعسكر العربي (قشلاق) عند مدخل مكة من طريق جدة . ولكنه كان أشد خجلا منا فى الظرف السيء الذي نزل بنا يوم عودة المحمل الى مصر بغير حج . وكانت السهام القذرة تتهافت الى ما تحت قدميه فيبهرنا منه اطراقه المهيب لا يعبأ بها ويرى أن كل موضع في ذاته وكيانه محصن بالايمان الاسلامي والدرع الهاشمي القرشي . ولم يخش الا أن يزعجنا أثر هذا الرمي الدنيء . فنجزع ونحن أولى بالامان فى كنف الله وحرمة بيته المحرم فان الله حارسنا فيه وحارسه للامن فيه

وكان جلالته دائم الابتسام . كلما حاولنا ان نظهر له ما يخالجنا من الأسف والعطف على الحق الذي في جانبه ، ولا تبرح مكانها من ذهني صور عباراته الحكيمة التي كان يرسل طيها معاني شديدة الأثر في النفس . فيوحي بها الى الارواح في تيار من كهرباء ناظريه . حتى تمثلته واحداً من اسلافه الماجدين . وتعرفت الى ملامح روحه الفياضة بالتقى والهدى . فلم اكفّ عن التحديق في وجهه الباسم الوضاء

انه متوسط القامة . واسع العينين جميل الحدقتين اقنى الانف

جليل الطلعة . في لحية بيضاء مرسلة ناصعة . هاش الملامح باسم الثغر في هيبةٍ وحَزْم . طويل النظر اذا حدِّث . طويل الاناة اذا حدّث . تلمح في ناظريه برق الذكاء والدهاء وقوة العزيمة وحرارة الايمان . يخطف بصر المتحدث اليه

يكاد يقطع العقد السابع من عمره المديد . في نشاط وخفة في اعضائه الرقيقة القوية . التي يندر مثلها في الشباب القشيب

هزنا خشوعه وتقواه يوم عيد الاضحية . اذ ركب الى مكة ضحى من منى في موكبه الحافل وأقبل على الكعبة وفي حاشيته الحاج هدلي المسلم الانكليزي الورع . ومعه العالمان الهنديان . خوجه كمال الدين ورفيقه . فطافوا طواف الافاضة معنا وسعينا جميعاً بين الصفا والمروة في ساعة واحدة . وكان جلالة الملك العربي النشيط لا يكاد اسراع الذين في معيته يلحقه . حتى أتم شعائر الحج على وجه تام صحيح

ولا تزال ماثلة قبل ذلك صورته يوم الاحتفال بغسل الكعبة المطهرة . وجلالته مشمر عن قدميه متمنطق بفوطة بيضاء مرسلة الى الساقين يحمل بيده (مكنسة) طويلة يمسح بها أرض البيت المقدسة بماء الورد والعود الذى يصبه امامه بعض رجاله ونحن على أثره يحمل كل منا مكنسة صغيرة نفعل فعله بهمة واجتهاد لا استطيع تقديرها بالنسبة الى قدرتي الطبيعية فقد بقينا أكثر من ساعة نغسل أرض البيت ولا نشعر بمشقة الانحناء الطويل . ثم صلينا ركعات في اركان البيت الاربعة . وتقدم الخطيب وتلا خطبة قصيرة في التماس البركة

من الله بحرمة هذا البيت العتيق . ثم أراد الخطيب ان يدعو في ختام الخطبة لجلالة الملك (وهذا كان دأب خطيب الجمعة في المسجد الحرام وفي كل مسجد في الحجاز . ان يدعو لخليفة المسلمين ثم لصاحب الجلالة الملك) اقول أراد الخطيب ان يدعو لجلالته فقاطعه بيده قائلا ادع للمسلمين ، أدع لهم بخير »

بعد هذا فالعجب كله ان نسمع ما لا ينبغي في حق رجل من ابناء خير المرسلين . بمثل ما قرأناه في صحف مصر العربية من عبارات الفحش والهذيان ؛ بالطعن على صفاته العربية القرشية الهاشمية الاسلامية ؛ ومن يقرأ تاريخه غداً لا يدهش لقولي اذا ادرك ان العرب وهم آباؤه واجداده امة تأبى ان تقيم على الضيم . ولا ترضى بمذلة واستعباد ؛ هي أمة العرب العدنانية الذين ابوا أن يعيشوا في حماية اخوانهم القحطانية من ملوك اليمن ، فحاربوهم في ربيعة و مضر وفيهم كليب والمهلهل حتى اجلوهم عن بلادهم (وهي الحجاز ونجد وتهامة) في تاريخ طويل يعرف بتاريخ ايام العرب ترجع اليه في تواريخ ابن خلدون والمقريزي والاغاني وغيرها من كتب التاريخ العربي والاسلامي ثم انظر الى تاريخهم هذا في صدر الاسلام والدولة العربية الاسلامية ثم احكم اذا كانت هذه الامة تصح تهمتها بأن أشرف واعرق سيد فيها يخيل اليه وهو الجالس على عرش ملكها ان يفرّط يوماً في تراث آبائه واجداده المكرمين . ويقدّمه لعبة في ايدي دولة اجنبية شرهة مستعمرة (يقولون) لخشيته من اعتداء دولة اسلامية ـ أو بعبارة

أخرى من دولة الخلافة ان تزحف اليه بجيش تحاربه

هذه الخشية التي يصفون جلالة الملك الحسين بن علي بها هي لانهم رأوه دخل بجيوشه العربية أرض الشام يوم كان جيش الدولة العثمانية يتقهقر مسرعاً من امام غزة وحيفا ويافا الى بيت المقدس الى دمشق ووراءه تتدفق سيول الجيوش الانكليزية الهندية المصرية . فبادر الجيش العربي من وراء الاردن وعلى رأسه الامير فيصل ودخل دمشق مسالماً مستقبلا من أهلها بالترحيب والهتاف . والجيش العثماني يندفع في تقهقره الى حدود الاناضول تطارده جيوش الحلفاء الى اقصى بلاده

وكان قبل ذلك القائد المسلم (جمال باشا) يضرب رقاب العرب في الشام ويعلق هاماتهم البريئة على المشانق لا لذنب الا انهم يطلبون الحرية تخلصاً من الذل والامتهان . وكان الاولى بدولة الخلافة ان تعرف لهم اصلهم في الاسلام . وهم مع ذلك لم يخلعوا الخليفة كما خلعه حماته الاقربون . فاذا لم يكونوا منكرين على الكماليين من فتيان (الدولة التركية) خلع الخليفة فانهم ولا شك ينكرون عليهم سلب سلطته الزمنية مع البيعة له بالخلافة والخلافة هي امارة المؤمنين وقيادة جيش المسلمين . والحكم بأمر سيد المرسلين . في شئون الدنيا والدين

ولا اتحدث الى المأخوذين بسحر التقاليد اليابسة في هذا الزمن الغريب الذي يقولون انه زمن العلا والرقي والمدنية والحضارة وما هو الا زمن الكذب والنفاق والذل والعبودية (الشرقية) تحت سلطان

الجمود والخمول . والقعود عن العلا والفخار . زمن اشربت فيه الطبيعة الشرقية حب الراحة والوصول الى الغرض (من اقرب الطرق) ونبتت في اديم النفس الشرقية نباتات (القطيعة) السامة حتي قال استاذ الشرق الحكيم في مصر (اتفق المصريون على ألا يتفقوا) لتحكم هذا الخلق في نفوسهم . وهم اليوم على ما كانوا عليه مثابرون

بل اتحدث الى ذوي الحصافة والرأي السديد فأسأل لأي شيء ينقمون على العرب نهضتهم ومنهم كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي قال لعمرو بن العاص لما جاء القبطي من مصر يشكو اليه من ضرب ابن عمرو له فاقام الحد عليه وقال « يا عمرو مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً ؟ » فهم لم ينهضوا الا ليكونوا أحراراً في بلادهم وهذا هو الحق الذى نطلبه ولم نزل نجد اليه بغير سلاح . وانما نالوه هم بحد السيف لا من دولة الخلافة ولكن من حكومة الاتحاديين . من الظلم والاستعباد

نعم لأي شيء ينقم الجاهلون عليهم حقاً طبيعياً يطلبونه لتعمير بلادهم . واسعاد اهلهم وأولادهم من بعدهم . وقد لعبت بهم أيدي العبث والفساد من فساد احكام الحكام الذين ما كان لهم هم الا سلب الاموال لاشباع مطامع الوزراء في دار الخلافة الاسلامية . وفقدان الامن والسلام من ربوع الاماكن الطاهرة فسطا على حجاج بيت الله الحرام قطاع الطرق والمفسدون في الارض . يذبحون ابناءهم ويستحيون نساءهم ويسلبون أموالهم . والحكام عنهم لاهون باطماعهم . فلم

يتركوا سبيلا لجلب المال • حتى حرموا جنودهم من ارزاقهم . فكانوا يستجدون الاحسان من الحجاج كما يستجديه منهم اليوم أطفال البدو في الطريق

واليوم فاخرج الى الحج وانظر الامن والسلام يرفرفان على ربوع الحجاز من كل جهاته . حتى خضع لسيف الحكومة العربية عصاة البدو في طريق المدينة لزيارة قبر الرسول ﷺ الا جنيها واحداً سموه (اجرة حراسة الطريق) فلما شكا الحجاج من اعتداء هؤلاء الاعراب عليهم (لا بضرب ولا اهانة وانما منعوهم فقط من المرور بارضهم قبل دفع هذا الامتياز) — وبلغت شكواهم سمع جلالة الملك فامر توا بصرف مادفعوه من خزانته الخاصة ونشرت حكومته اعلانا بذلك بجريدة القبلة الغراء ووعد ألا يحدث ذلك مرة أخرى لما ستتخذه قوة الحكومة من نشر ظلال الامان على كافة ارجاء البلاد

ثم تعال وانظر معنا آثار تلك النهضة الناجحة في كل مكان ثم استبشر خيراً وبشرهم بمستقبل سعيد

تحدثتُ الى جلالة الملك المعظم عدة أحاديث في مقابلات متعددة غير أحاديث الاحتفالات التي كان جلالته يأمر باقامتها خاصة للمصريين في أوقات مختلفة تولم فيها الولائم الفاخرة على أحسن طراز حديث • ثم تطلق فيها السهام النارية أمام المعسكر أو غيره من الامكنة التي كانت تقام فيها مثل حفلة العيد الاضحى في منى والاستقبال العظيم الذي ساد فيه نظام الهيبة والوقار على أساس ديني اسلامي عريق •

وكان كافة رجال الحكومة العربية وأشرافها وأمراؤها يلبسون ملابسهم الرسمية وهي القفطان الابيض والجبة السوداء تتلألأ عليها أوسمة النهضة العربية . وقواد الجيش وضباطه بملابسهم العسكرية من الخاكى الأسمر والاصفر باوسمتهم وسلاحهم على الطراز الاوروبى الحديث والملكيون من الموظفين وغيرهم يلبسون التاج المعمم المكي وأولهم جلالة الملك ولا يحمل اوسمة مثلهم بل يخرج على الناس في الجبة البيضاء والقفطان الابيض فحسب وأما العسكريون فعلى رؤوسهم الكوفية والعقال . ويشذ عن هذه القاعدة من الملكيين الذين اعتادوا الملابس الافرنكية امثال وكيل الخارجية الحالي الشيخ فؤاد الخطيب وهو سوري عربي كريم . ومحمد الحسيني بك طبيب جلالة الملك الخاص ومدير المستشفى الاهلي بمكة ونديم بك مدير مصلحة الصحة وغيرهم من الموظفين المصريين والسوريين واما الموظفون من عرب الحجاز فانهم لا يغيرون شعارهم المكي على الاطلاق مثل سائر اهل مكة المكرمة

اقول ان في جميع المقابلات الرسمية وغيرها لم نجد من جلالة الملك الا اقبالا متزايداً علينا بالاحتفاء والتكريم حتى لم نستطع ان نفي رعايته بنا من عبارات الثناء والشكران

وكنت في كافة محادثاتي اليه متوخياً الصراحة فى استجلاء ما لم استطع عليه صبراً . فكان يجيب على اسئلتي الكثيرة بتؤدة واناةٍ مع اطراق طويل فى بعض الاحايين قبل الكلام فى المواضيع السياسية

التي اصل فى محاولاتي الكثيرة الى طرق بابها فكنت كثير الاعجاب بذكائه النادر فى اكتناه الخفايا

واذكر أن أحد الاخوان المصريين غفل ذات مرة بين يديه فجرى على لسانه الثناء على زعيم عربى الا وهو الأمير ابن سعود صاحب نجد

كنت أنتظر وأخي المصري يتحدث عن ابن سعود بما لا ينبغي ذكره في حضرة جلالة ملك الحجاز أن يثور غضبه ولكنه بقى مطرقاً صامتاً لا ينبس بكلمة حتى انتهى محدثه مما يهرف به فرفع رأسه وبدأه بقوله (أرجوك يا مولاي أن تسمح لي بأن انبهك الى الحق فانه في واد وما تذكره في واد آخر وأنت معذور في قولك هذا لانك ربما لم تستق الحقيقة من مصدرها الصحيح وربما ظننت مع الظانين انه يعمل ضد الانكليز اذا سمعت من محدثك انه يحاربنا لان كثيراً من الناس في مصر وغيرها يعتقد انني أنا صنيعة الانكليز لما علموه من اتفاقي واياهم في بدء نهضتنا العربية وخروجي على حكومة الاتحاديين ومحاربتي جيوشهم . ولو عرفوا خفايا الامور لغيروا فينا ظنونهم • وان بعض الظن اثم . والحقيقة يا مولاى تستطيع أن تعرفها من محادثة الحجاج المساكين الذين وردوا الينا متشردين في الجبال • لا مال معهم ولا طعام • وهم البقية الباقية من أكثر من ألفي حاج يمني فأصبحوا لا يزيدون على السبعين • تعرف منهم من الذى أنزل بهم هذا البلاء العظيم وفي ارض من فتك بهم الاشرار الوهابيون •

فاعلم يا أخي ان أوجب الواجبات على الانسان أن يكون دائماً على بينة من الحق بحيث لا يكون راجماً بالغيب . ولا على ضلال مبين . »

هذا ما كان من جلالة الملك حسين بن علي حكيم العرب اليوم . يتدفق بلاغة وبياناً ويستشهد في كل أقواله بآيات القرآن الكريم حتى صرف عن محدثه روع الهفوة وسار باعتقاده على صراط مستقيم

وحدثنا مرة حديث السياسة فأفاض في تاريخ الحرب الاوروبية العظمى وبيان رأيه في اختيار طريق الحياد لسياسة تركيا ضماناً لسلامتها وغنمها في هذا الطريق الامين . ثم تناول حديث جلالته القضية العربية فخلب ألبابنا ببراهين العرب التي أدلى بها في تأييد قضيتهم العادلة . قال : « يرموننا بالخروج على دولة الخلافة وخيانتها وقد خرج معنا عليها جميع المسلمين في الشرق والغرب في مصر وتونس والجزائر ومراكش وافريقيا كلها والهند وغيرها من البلاد الاسلاميه التي انساقت الى محاربتها بعامل القوة الاستعمارية ولم نحارب نحن خوفاً او خيانة كما يدعون بل دفعنا الجوع والامحال عامين كاملين وبعض الثالث فاستنجدنا بحكومة دولة الخلافة ولا من منجد او مغيث . فقمنا مع الذي عاهدنا على نصرة قضيتنا الحقة ضد قاتلينا ومعذبينا . وكيف لا نقبل الطعام واليد الممدودة بالنجدة لنا ومامددنا ايدينا لنعاهدها على مؤازرتنا فى نهضتنا الا بعد ان بقيت ممدودة الى حكومة الدولة ثلاثة اعوام نربط على قلوبنا من الجوع وعلى ظهورنا من الارهاق والتذليل . قمنا نطلب غاية محدودة ولكن غيرنا حارب

الجيش التركي بالمدد والولد لغير غاية معينة عند الاتراك . فقد اعترفوا باستقلال مصر على عهد المرحوم السلطان رشاد ولكنكم مع ذلك حاربتموهم بجانب الانكليز . وكذلك غيركم من الامم الاسلامية فقد كانت عونا لمستعمريها ضد دولة الخلافة وحربا عليها . ولكنا حاربنا جيش الاتحاديين الظالمين بعد ان ارهقوا كواهلنا باحمال الرق والاستبداد فاحتقروا العرب ولغتهم وقوميتهم وحريتهم واقاموا على انقاض الجامعة الاسلامية بناء (الوحدة الطورانية) وامعنوا في العرب قتلا وشنقاً وتشريداً وتعذيباً وجلداً وسجناً فقتلوا نخبة شباب الشام وجلة وجهاء العراق . وارتكبوا المخازي جهرة اذلالا واعناتاً حتى طفح الكيل . فنهض الجواد العربي نهضته الكريمة ووثب وثبته البعيدة فتخطى رقاب المظالم الى غاية السعادة والأمان . وماذا جنى الاتحاديون من مؤامرتهم على سلامة الدولة وهي في اشد حالات ضعفها ومقامرتهم بالحرب الى جانب الالمان بغير موجب ولا مصلحة ترجى ؟ وطالما بعثتُ اليهم بالنصيحة تلو النصيحة ادعوهم لتخليص اذهانهم من الكابوس الالماني في احلامهم المتخومة . ولكنهم اصروا على انفاذ خطتهم المرسومة بغير تفكير ولا مبالاة ولا نظر الى العواقب . فاستحكمت حلقات الحصار علينا من البر والبحر فلم نستطع مخرجا من الضيق ولا بابا من الحريق . وعدوّنا وعدوّهم يومئذ يشتد في تضييق دائرة الحصار علينا لما يعلمه من فقرنا وعجز (اخواننا) عن نجدتنا وقد صدق فأله وخاب فألهم وذهبت المجاعة منا بالخف والحافر

ونحن محصورون في بلادنا بوادٍ غير ذي زرع حتى طاب لي وآل بيتي أكل الدخن والشعير . وضاقت بنا الارض بما رحبت واشتد بنا الكرب العظيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم »

وما بلغ جلالته الى هذا الحد من الحديث حتى تهدج صوته من ذكرى الالم واضطربت أنامله من الغضب . ولكنه تمالك جأشه واستقرت على محياه ملامح العزم والاباء

ثم استطرد قائلا وعلى شفتيه ابتسامة مرة : « وكان عدو الاتراك مع ذلك لايني في دعوتنا الى خلاص الامة العربية ، وتحقيق آمالها ، وانقاذها من وهدتها . وما زالت رسل هذه الامة المضطهدة تفد الي من الشام والعراق تحمل صيحات الاستغاثة والاستصراخ . ولم يعد في قوس الصبر منزع واين اجد خلاصي يوم القيامة من ربي اذا سددت اذنيّ عن سماع أنين الامة المعذبة واسباب الانقاذ مهيأة لنا في كف (اعدائنا) فهل كان ينبغي لنا ان نرفض معونتهم لكي نموت جوعاً فداء المطامع الالمانية . والمصائب التركيه . ثم يقولون بعد ذلك اننا خرجنا على دولة الخلافة خائنين كلا والف مرة كلا لم نكن خائنين ولكنا كنا جائعين يوم كنتم انتم وغيركم خائفين مستضعفين. وشتان بيننا وبينكم في الحساب . والمثل يقول لاتغني شجرة عن ثمرة

اتدرون ما كان يطلب الاتحاديون ثمنا لطعامنا الموعود . طلبوا جيشاً عربياً لايقل عن عشرين الف مقاتل نجهزهم بخيلهم وكسوتهم وعدتهم ليحارب جيوش الروس في ثلوج القوقاز وان لم نفعل (ولن

نفعل) فقد حكموا علينا بالخيانة والخروج وصدر الامر بعزلي وهمّوا لتأديبي وأنفذوا غير هذا من حاول ان يصيب مني غفلة للغدر بي . فبلغ السيل الزبى

أما ما يعيروننا به من الاغترار بوعود الحلفاء المكذوبه فانه ليس ذنبنا . ولا احيد عما عاهدوني عليه قيد شعره . وهو الاستقلال التام لجميع البلاد العربية في دائرة حدودها التاريخية »

وقد سئل جلالته عن رأيه في فتيان الاتراك (الكماليين) وفي نهضتهم الاخيرة بعد الموت والفناء . وفي الحالة الجديدة التي حدثت في مركز الخلافة ، وعلاقتها بالجامعة الاسلامية

فتبسم عن معنى في النفس مضمر لايريد أن يظهر لنا جليا في ثنايا حديثه . وقال : إنهم فتية قاموا لوطنهم بواجب الدفاع المقدس ضد المغير المعتدي عليه وقد أظهرهم الله على اعدائهم بقوة الحق الذي في جانبهم ضد الباطل الذي بجانب اليونان ومحرضيهم . ولكنهم لم يحسنوا عملاً بعد خلع الخليفة السابق في حرمان الخليفة الذي بايعوه من حقوقه الشرعية : حقوق الخلافة . ومع ذلك فانا اقسم بالله الكريم وبيته المحرم على ان لا مطمع لى فيها ولا لاحد من أولادي البتة . وانا أول من يمد يده بالبيعة لمن يجمع المسلمون على مبايعته . ولكن الذي يهمني كما يهم كل مسلم غيور على مجد اسلافه القديم ان ارى الدولة الاسلامية على مكانتها الاولى من العزة والمنعة وان تعود الجامعة الاسلامية قوية الرابطة متينة البناء على أساس المحبة والاخاء والاتحاد

والدين والحرية الوطنية . فاذا صار الاسلام الى ما اتمنى نمت قرير العين مبتهج النفس . فانما نحن العرب كنا اول من وضع حجراً في اساس الاسلام . ولسنا الذين يرضون بالمهانة لذكرى آبائهم أو يفرطون في تراث اجدادهم أو يعملون على اغضاب ارواحهم بل انما نحن على آثارهم مهتدون »

ثم سكت قليلا وانشد قول الشاعر :

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا ويأتيك بالاخبار من لم تزوّد

ثم سكت مرة ثانية وانشد :

ومهما تكن عند امريء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

***

هذا هو صاحب الجلالة الهاشمية الملك حسين بن علي ملك العرب الا كبر وابو ملوكهم الاشهر صاحب الرأي السديد والحكمة والتقوى لا اجد في نفسي له الا الأثر الخالد الذي لا يمحى أبد العمر . ذلك الأثر الحميد الذي اقامه على بقايا الظنون والاوهام التي قضى عليها لحل محلها الاعتقاد الراسخ والايمان القوى بانه رجل العرب ومنقذ العرب وسيد العرب

دعتني هذه المواقف العديدة أن أقف بين يدي جلالته متأثراً بهيبته واحترامه واعتقادي التام في أنه نصير الدين الاسلامي وعضده المتين . فأشيد بمدحه وحمد آثاره . خصوصاً لما رأيناه من اقبال جلالته علينا بالرعاية والتكريم في أشد أوقات الخلاف بين الحكومة

المصرية وبين حكومة جلالته وما ظهرت به جرائد مصر من مظاهر التنديد والتجريح بالباطل والجري وراء الضلال

ومن الكلمات الغالية التي أرسلها في معرض الاشادة بذكر الصداقة القديمة الثابتة بين مصر والحجاز قوله : ان مصر والحجاز كالعينين (وأشار بيده الى عينيه) في رأس الاسلام

وتلك عبارة لها حكمتها في التأثير على أوتار القلوب

ولكم زاد الأمل قوة يوماً بعد يوم في نجاح النهضة العربية الاسلامية كلما تعرفنا بواحد من رجالها العاملين . ممن يخدمونها في سلك الحكومة أو من الادباء والعلماء والتجار وغيرهم من فتيان العرب المخلصين . فقد شرحوا صدورنا بنشاطهم وذكائهم ودربتهم على نظام الاعمال . بيساطتهم المعروفة عنهم في جميع الازمان

هناك نخبة من فضلائهم النبلاء يتقدمهم صاحب السمو الامير علي ولي عهد المملكة العربية الهاشمية ووالي المدينة المنورة فانه من خيرة ابناء الملوك نبلاً وكرماً ووداعة وظرفا وأدباً وكمالا وعلماً . وفضيلة قاضي القضاة وسيادة رئيس الديوان العالي وحضرات وكلاء المملكة النبهاء وسعادة الوكيل لحكومة جلالة ملك الحجاز في مصر ومدير البريد والبرق والتلفون ومدير الشرطة وغيرهم من كبار الموظفين في فروع الحكومة في مكة وحضرة ناظر الرسوم بجدة وقد سبقت الاشارة اليه فيما تقدم وسيادة قائمقامها وسعادة ناظر البحريه والطيران وسعادة وكيل الحربية المقدام وغيرهم وكثير من النخبة العربية النجيبة

زد على ذلك من دخل فى سلك وظائف الحكومة الهاشمية من شبان سوريا ومصر الاذكياء المجيدين . أمثال محمد بك الحسيني طبيب جلالة الملك الخاص وخليل بك طبيب سمو الامير علي ووهبي بك مدير زراعة الحجاز وسواهم من فتية مصر الناهضين العاملين وغيرهم كثير ممن لا تعي الذاكرة اسماءهم . تراهم يقومون باداء اعمالهم فى سكينة ونظام . هو في الحقيقة النظام الهادئ الخالي من الجلبة التي تتعالى فى سماء الدواوين فى مصر من تلك الحركات المختلفة الاتجاهات في الدهاليز والمماشي والمكاتب مما يدعو الى الاستغراب من هذه العادات الجوفاء

واعلموا أن في الحجاز ملكا يقبض على زمام الاحكام بكلتا يديه يسيرها على النظام الشرعي الاسلامي الفريد فلا يترك صغيرة ولا كبيرة من مسائل الحكومة الا رأى فيها رأيه الاعلى وانه يشير بخط يده على كل ورقة تعرض عليه في (مجلس الاحكام) بما يجب اتباعه فى كل مسئلة منها حتى أصبح ينطبق على جلالته قول الشاعر :

وليس على الله بمستنكر ... ان يجمع العالم في واحد

وعلى ذكر الشعر فانني أن اذكر عند الكلام على وقوفي بين يدي جلالته موقف الاشادة بمدحه انني انشدته قصائد صغيرة تناسب المقام . لا أذكر منها الا ابياتاً قليلة لا أرى بأساً من اثباتها هنا :

قلت من قصيدة أنشدتها بين يديه في احدى الحفلات :

(مصرٌ) ولو أن فيها بعض من عريت

اخلاقهم من صفات المجد والفِطَن

أبناؤهم عـربٌ منكم ونسبتهم

في الدين اخوانكم والدين كالوطن

وقات من قصيدة اخرى في مناسبة مشكلة البعثة الطبية مطلعها :

حللنا بأرض أمنها وسلامُها حلال لـكل المسلمين حرامُها

يجدد فينا الشوق في كل ليلة على قـربها ابياتها وخيامها

ومنها :

ستظهر في مصر الحقيقة جهرة

غداً ويصيب المنكرين سهامها

ومن يك في ريب من الحق فليكن

على نفسه حربا يشبُّ ضرامها

ويغدو لسان الحال في مصر معلناً

لما كنه طيّ الصدور كرامها

(اذا رضيت عنكم كرام عشيرتي

فلا عاش غضباناً عليكم لئامها)

ولا غرابة اذا عدنا من أقطار الحجاز المطهرة نحمل بين جوانحنا لاخواننا العَرَب الكرماء ، ولجلالة الملك الهاشمي المعظم أجمل الذكرى . وخير الثناء . وأسعد الآمال

الفصل السادس

« مسألة البعثة الطبية وعودة المحمل »

(البلاغات الرسمية وأقوال الجرائد)

كان لنزول الخبر بعودة المحمل المصري من جدة على اثر الخلاف الذى حدث بين الحكومة المصرية والحكومة الهاشمية بشأن البعثة الطبية التي أرادت الاولى منهما ان تحمل الثانية على قبولها في الحجاز لانشاء مستشفيين (فوق العادة) احدهما بجدة والثاني بمكة لمعالجة الحجاج المصريين — أقول كان لنزول هذا الخبر أسوأ وقع على نفوسنا جميعاً في مكة . فاجتمعت على أثره ببعض أعيان المصريين الحجاج. فقرّ الرأى بيننا على أن نتبيَّنَ وجه الحقيقة الشافية في هذا الخبر . وفي اليوم الثاني طلعت علينا صحيفة (القبلة) الغراء وفيها نص التلغرافات التي تبادلتها الحكومتان في هذا الصدد . وخلاصتها أن الحكومة المصرية طلبت من الحكومة الهاشمية الموافقة على قبول هذه البعثة الطبية خلافاً للمعتاد سنويا فارادت الحكومة الهاشمية ان لاتقبل منها هذا الطلب الجديد حتى تسوى معها مسألة الاوقاف القديمة التى تقول ان الحكومة المصرية لم تتصرف فيها تصرفاً عادلا وهذه ترى ان مسألة الاوقاف خارجة عن الموضوع الذي تطلب البت فيه سريعاً . وتلك ترى ان من حقها ان تطلب البت فى مسألة قديمة هي في نظرها أهم من المسألة الجديدة التى أبت الموافقة على

طلبها بشأنها . ووقفت المخابرات بينهما عند هذا الحد . ثم قرأنا نص المفاوضة التي جرت مشافهة ومكاتبة بين فضيلة قاضي قضاة الحجاز وبين امير الحج المصري . ولما لهذه المفاوضة من الاهمية في هذا الموضع ارى من الواجب اثباتها بنصها هنا وهي : —

« توجه صاحب الجاه والاقبال مولانا قاضي القضاة ونائب رئيس الوكلاء فى سيارة مخصوصة الى جدة وعند وصوله مساءً أبلغه قائم مقامها انه ورَدَه من أمير الحج الشريف ما يفيد بأنه عازم على العودة صباحاً وبوقتهِ حرَّرَ مولانا لسعادة أمير الحج المشار اليه « انى حسب ما أشرت الى سعادتكم في مذكرتي بتاريخ ٢٧ ذى القعدة سنة ١٣٤١ ها أنا قد وصلت وأبلغني القائم مقام اشارتكم بالسفر غداً ولذا احرر هذا بانه اذا لم يكن مانع لزيارتي هيئة المحمل الشريف تشرفوني لاحظى بلقائكم للغاية التي أشرت اليها وقياماً بواجباتنا » وفعلاً تحرك مولانا فى صباح ذلك اليوم وبصحبته القائم مقام وناظر الرسوم — وعند وصوله الى الباخرة استقبل بكل احترام وبعد استقرار المجلس المؤلف من هيئة ركب المحمل الشريف وكافة رؤسائه بدأ مولانا ببياناته وايضاحاته الآتية وهي : « بعد ان رحبت أولاً بحضرته (أمير الحج) وكل من في معيته من هيئة المحمل اوضحت له قائلاً « ان قدومي كان لاستقبالكم وتمثيل شعائر الود والصداقة القديمة المتوارثة بين البلادين كما أشرت في مذكرتي بتاريخ أمس وانني اقول لحضرتكم بملء الصراحة ان البلاد ترحب بكم وبهيئتكم بما فيها من الاطباء الموجودين بمعية المحمل

والذين هم جزء منه لا يتجزأ سواء كان ذلك واحداً أو أكثر بما معه من أجزاء وادوات طبية وخيام وسرر وكل ما ينسب للمحمل ولهم الحق بمعالجة الحجاج المصريين وغيرهم ممن يراجعهم سواء بجدة أو بمكة في مركز المحمل وللهيئة الطبية المرتبطة بالمحمل ان تذهب معه الى عرفات ومنى وترافقه حيثما حل وأينما رحل » فاجابني حضرته قائلاً « ان بيدى تعليمات من حكومتي أكلف بموجبها الحكومة الهاشمية بقبول البعثتين الطبيتين وان احداهما تؤسس مركزاً بجدة والاخرى بمكة . » فاجبته بقولى « ان البعثتين المشار اليهما هما بموجب مذكرتكم بتاريخ ٢٦ ذى القعدة سنة ١٣٤١ جزء لا يتجزأ من المحمل وعليه فكيف يصح ان نجزئهما ببقاء احداهما بجدة والحال ان الحجاج المصريين وغيرهم لا يوجدون في جدة الا على سبيل المرور ذهاباً واياباً والتحفظات الصحية التي تنوي ادارة المحمل اجراءها محلها مكة وعرفات ومنى . وعلى ذلك لم يبق محل ولا فائدة لانشاء مركز طبي فى جدة وهو من قبيل ان وزارة خارجية مصر تقول في برقيتها ان مسألة ايفاء حقوق اهالي الحرمين تتعلق بالاوقاف ولا دخل لها (للخارجية) فيها ثم هي تخاطب خارجيتنا في مصلحة هي من خصائص وكالة الصحة المستقلة مثل استقلال وزاره الاوقاف . فتأمل ذلك ياسعادة الباشا . تحلونه لكم وتحرمونه علينا . أما البعثتان اللتان تفاوضوني بشأنهما فقد تخابرت خارجيتا الحكومتين في شأنهما بالبرق ولم يتقرر بصددهما شيء بل طلبت الحكومة العربية الهاشمية فى جوابها للحكومة المصرية ايفاء

لحقوق التي لاهالي الحرمين الشريفين بطرف وزارة الاوقاف المصرية فاذا تمت المفاوضة بشأن ما قطعته وزارة الاوقاف المومى اليها من هذه الحقوق الموقوفة على اهالي الحرمين من ذوى البر والاحسان فان الحكومة العربية الهاشمية مستعدة للمفاوضة مع الحكومة المصرية في هذا الشأن . واكرر قولي السابق انني ارحب بكم وبمن في معيتكم من هيئة المحمل طبية وغيرها وانني قابل الهيئة الطبية التي هي من متعلقات المحمل كما ذكرت سواء اكان فيها طبيب واحد أو مائة وسواء كان معها سرير واحد أو ألف وسواء كان معها صندوق أو الف من الادوات الطبية وسواء كانت معها خيمة واحدة أو ألف فانني قابل ذلك كله وللهيئة المذكورة أن تعالج المصريين وغيرهم ممن يراجعها »

فاجاب (أمير الحج) قائلا : « انني مأمور أن اكلفكم بقبول البعثتين اللتين سلفت المخابرة بشأنهما بين الحكومتين » . فاجبته : « بانني لم اعترف بتينك البعثتين اللتين لم يبت في امرهما لانه يجب اولاً قبل الاقدام على ارسال البعثتين اللتين تفاوضونني بشأنهما مخاطبة الحكومة العربية الهاشمية وأخذ رأيها في ذلك وهذا حق صريح للحكومة العربية الهاشمية لانّ من الحقوق الدولية اذا أريد أى عمل فى أي مملكة وجوب الاتفاق مع حكومتها التي هي صاحبة الحق فى ذلك وحدها دون سواها ، كما أشرت اليه في مذكرتي المبلغة لسعادتكم . وحيث ان حكومتكم قد بعثت هاتين البعثتين اللتين تفاوضوننى بشأنهما قبل البت من جهة الحكومة العربية الهاشمية وأخذ رأيها فانا لا اعترف

بهما لان ذلك والحالة هذه تجاوز على حقوق حكومتي بدون مجبر يمس الغاية التي تريدون بها بعث هاتين البعثتين وان صراحتي بانهم (الاطباء) مهما كان عددهم وعدد اسرتهم وادواتهم الخ .. لا تبقى محلا للتردد في تحقيق الغاية المطلوبة من خدمة الحجاج . وكأنكم لا تريدون بهذا الا اهانة الحكومة العربية ومساس شرفها وهذا لا يمكنني ان اقبله بصورة قطعية ويمكنني امام اية محكمة دولية ان اثبت الحق لحكومتي في هذه القضية . فاجابني حضرته قائلاً : « ولو وقع مرض وبائي في الحج فهل يكون لي الحق ان ارسل الى المطوفين واطلب منهم احضار الحجاج لاجراء التنبيهات اللازمة عليهم ؟ » فاجبته « بان مثل هذا لا يمكنني ان اجيبك عليه الآن وانما يمكنك مخاطبة الحكومة فيه وفي سواه من المصالح العمومية فيما تراه »

ومع هذا كله أصرّ على رأيه الاول وهو لزوم وضع البعثتين الطبيتين واحدة في جدة والاخرى في مكة وان اسمح له بالتداخل في شئون المطوفين ودعوتهم من تلقاء نفسه مما يعد من قبيل التداخل في الشئون التي هي من خصائص الحكومة المحلية . فاجبته « بان كل هذا سبق الجواب عليه فيما سلف » . ثم سألني « هل يؤذن ببقاء بعض اجزاء طبية وبعض ادوات من خيام وسرر بجدة ومكة ؟ » فاجبته « بانه يمكنكم وضع كل ما تريدون وضعه في أي مكان تريدون وهذا من حقوق كل شخص » ثم سأل عن مثل ذلك في مكة فاجبته بعين الجواب وقلت « ان لكم الحق ان تضعوا ما شئتم من خيام وسرر

وسواها فى مركز الحج بمكة وسرر للمرضى وغير ذلك مع حفظها من قبلكم كما طلبتم » فقال « لا بد ان اضع خياماً في جدة بصفة انها مؤسس طبي بموجب التعليمات التي بيدي ، وا كلفكم بقبول ذلك واطلب امضاءكم »

فلما رأى (قاضى القضاة) هذا التعند والاصرار من أمير الحج المصرى وان بياناته هي كافية مستوفاة لكل ما أشار اليه مع ما فيها من قبوله ضمنا لما طاب . تحقق لديه انه ينوي العودة على كل حال . فتركه وشأنه بعد ان بيّن له ان عودة المحمل الى مصر لا تؤثر قطعياً على الحكومة العربية الهاشمية بوجه من الوجوه . وبعد ان عاد الى البر بعث فضيلته اليه أيضاً مذكرة رقم ٣ ذكر له فيها انه يؤيد بياناته الشفاهية له في المركب وان ما يعد جزءاً لا يتجزأ من معية المحمل الشريف يحل معه اينما حل ويرحل معه اينما رحل وان قدومه من مكة الى جدة ما كان الا لاظهار ما لهيئتهم الكريمة من التوقير والاحترام وكل ما هو مشهود من احساس الولاء والاخلاص وروابط الوداد القديم بين العائلتين المالكتين بالقطرين خصوصاً والرابطة الاسلامية عموماً . وان هذا الحادث لا يؤثر على تلك الروابط بوجه من الوجوه

وعقب ذلك ابحرت الباخرة الى السويس . وعاد قاضي القضاة الى العاصمة . نحن نحيل الحكم على كل ما في هذا من المؤاخذة واللوم الى الحقيقة وانصار الحقيقة . لهذا اقتضى نشر هذا البيان

٢٩ ذي القعدة سنة ١٣٤١ (انتهى)

هذا هو نص ما نشر في جريدة القبلة الغراء عقب الحادث المشؤوم فرأينا ان في الامر سراً لا نفهمه ورأينا ان ننتظر حتى نجتمع بالحجاج الذين اقبلوا من باخرة المحمل لاداء فريضة الحج وكانوا شهود المفاوضة المشار اليها . وقابلنا منهم الاستاذ احمد مصطفى بك المحامي بمصر وفضيلة الشيخ عبد الرحمن عليش رئيس محكمة الاسكندرية الشرعية وعبد العزيز بك رضوان من اعيان الزقازيق وغيرهم من فضلاء الحجاج المصريين وسألناهم رأيهم فى هذه المفاوضة فا كدوا لنا صحة هذه الوقائع . وقالوا ان هذا كان هو الواقع

وزاد سواهم من الحجاج على هذا رواية أخرى لا علاقة لها بهذه الواقعة ولكنها تعد مقدمة سيئة لها يضطرنى الخجل الشديد ألا اخط منها حرفا واحداً فى صحيفة من هذا (التذكار) وهي حكاية عما كان يجرى فى الباخرة وهي فى طريقها الى جدة ـ الى الحج ـ على مرأى ومسمع من الحجاج . من الامور التي لا يليق صدورها من ضباط مصريين هم فى الحقيقة رؤساء ركب المحمل. كان ختامها بقاؤهم بما فيهم سعادة الامير نفسه بملابسهم العسكرية بعد احرام الحج من رابغ ، الامر الذي أوقع الدهشة فى نفوس الحجاج . ولم يجدوا له مبرراً مشروعا الى غير ذلك مما أثار في نفوسنا الغضب للدين فبادرنا الى مكتب التلغراف بمكة وأبرقنا الى الجرائد المصرية البرقية الآتية :

« ساءتنا عودة المحمل الشريف لمصر من جدة بعناد أمير الحج المصري ليستصحب مستشفى مصريا مستقلا تأبى الحكومة الهاشمية

الا أن يكون جزءاً من معية المحمل • فنحتج على تصرف مندوب حكومتنا لما فيه من تهييج الخواطر في مصر والفتنة بين الحكومتين لامور لم يسبق لها مثيل . ونخشى من دسيسة مدبرة . ونقرر أمام العالم اننا متمتعون بكافة وسائل الراحة والصحة بفضل اهتمام الحكومة الهاشمية »

ثم تضاءل تأثير الحادث يوما بعد يوم رغماً مما كانت تزعجنا به الجرائد المصرية المفتونة من عوامل الشر والاغضاب . حتى خيل الينا ان الحقيقة انطمست معالمها في ربوع وادي النيل . وشق علينا كثيراً أن يقال لنا في الحجاز « لا لوم على المصريين في مصر لانهم (يجهلون) الحقيقة التي تضلهم عنها جرائد مصر »

ونعلم فوق هذا أن اشد ما كان يروّج هذا التضليل فى مصر تلك البروباجندا (التركمصرية) التي بذيع بها اتراك مصر الاكاذيب في الشرق ضد العرب وحكومة العرب وملك العرب وكل شيء عربي حتى استطاعت أن تجد لها أعوانا فى مصر من مفاتين السياسة العرجاء ويالالأسف

ولكننا بالرغم من كل هذا رأينا كثيراً من الجرائد العربية في مصر وغيرها رفعت الصوت عالياً ضد هذه الدسيسة الشريرة . ونشرت مقالات عديدة في سبيل الحق ونصره . نثبت بعضها هنا احقاقا للحق وازهاقا للباطل . ان الباطل كان زهوقا

نشرت جريدة البلاغ الغراء في العدد (٦٨) المقال الآتي بامضاء (مصري):

بين الحجاز ومصر

أرسلت الحكومة الهولندية في المدة الاخيرة طبيبين مع الحجاج الجاويين شرعا فى الاقامة بجدة والاطلاع على الاجراآت الصحية الجارية هناك وكثيراً ماكانا يصحبان موظفيها الصحيين فى أعمالهم. ولكنهما أرسلا الى حكومتهما الهولندية تقريراً ضافيا يعيبان فيه الادارة الصحية فى الحجاز فارسلت هذه مذكرة رسمية عن هذا التقرير وطلبت من الملك حسين أن يسترشد بآراء الطبيبين الجاويين المقيمين فى جدة. فلما رأى الملك أن في هذا العمل مساسا باستقلال بلاده خصوصا وان تبليغ هولندة كان بلهجة الامر لا بلهجة النصح أمر باخراج الطبيبين من بلاده وألا يسمح لأية هيئة أجنبية رسمية بالوجود فى الحجاز

ثم اعقبت هذه الحادثة حادثة البعثة الطبية الهندية في العام الاسبق التى ارادت انكلترا أن ترغم الملك حسينا على قبولها تهديداً ولكنه أبى ذلك عليها وكادت تترتب عليها حوادث أخرى لو لا أن خشيت انكلترا أن يقال انها تريد التدخل في شئون الحجاز بهذه الوسيلة

وقد اعتادت الحكومة المصرية أن تبعث المحمل الشريف

سنويا الى الحج مصحوبا بالحرس والاطباء والصيادلة والادوية ولم تحدث في سبيل ذلك عقبات أو مصاعب لا في زمن السلطة التركية ولا في عهد الحكومة الهاشمية حتى سنة ١٣٤١.

غير ان الحكومة المصرية ارسلت في هذا العام الى الحكومة الهاشمية تخطرها بعزمها على ايفاد بعثة طبية الى الحجاز وانشاء مستوصفين احدهما بجدة والآخر بمكة وأمرت بنشر اعلانات عن ذلك.

ولكن الحكومة العربية عارضت في ارسال هذه البعثة بهيئة رسمية وطلبت ان تكون جزءاً من معية المحمل الشريف فاصرت الحكومة المصرية على ان تكون هذه البعثة مستقلة عن المحمل ولم تنتظر الاتفاق مع الحكومة الهاشمية بشأنها وأمرت بسفر البعثة الى الحجاز قبل قيام المحمل بنحو العشرة ايام وكان بدء مفاوضتها في ١٩ يونيه سنة ١٩٢٣ وسافرت البعثة في أول يوليه التالي له

وقد دهشت الحكومة الهاشمية لانها وهي لم تنته مفاوضاتها مع الحكومة المصرية لم تشعر الا وقد نزلت البعثة الطبية الى جدة فلم يسعها الا رفض قبولها خيفة ان يكون وراء الاكمة ماوراءها . ومما زاد في خوفها ان الايدي الاجنبية لعبت دورها في قطع الاسلاك التلغرافية البحرية في طريق السويس لتعطيل المفاوضات

ثم سافر المحمل بركبه من السويس الى جدة . حيث صعد الى الباخرة صاحب الفضيلة نائب رئيس وزراء الحكومة الهاشمية (قاضي

القضاة) واراد ان يتفاهم مع سعادة امير الحج على الغاء الصفة الرسمية عن البعثة الطبية وادماجها في هيئة المحمل كالمعتاد حسما للنزاع

(ثم ذكر الكاتب ملخص المفاوضة التي دارت بينهما كما هو وارد بالنص المنشور من قبل)

ثم قال : واني لاذكر تلك الكلمات التي فاه بها صاحب الفضيلة قاضي القضاة والتأثر آخذ من نفسه كل مأخذ وهو يقصد النزول من الباخرة بعد ان اعيته الحيل في اقناع امير الحج بالعدول عن عناده ، قال فضيلته : حرام عليك ياباشا ان تمنع ستمائة مسلم عن تأدية فريضة الحج بعد ان ارتدوا شعار الاحرام وانا لله وانا اليه راجعون . »

هذا مجمل الحادثة التي وقعت فاخذت الجرائد المصرية من اجلها توجه اللوم الى ملك الحجاز

أما تشبث الحكومة الهاشميه في رفض قبول البعثة الطبيه بصفتها التي تريدها الحكومة المصرية فانه لما هو معروف عن جلالة ملك الحجاز من حذره من اساليب السياسة الاستعمارية في الشرق وهو يخشى جداً ان تنفذ اليه من ناحية ضعيفة . ولكنه لم يمنع البعثة الطبية بصفتها (مصرية) بل لانها مرسلة من حكومة تأتمر باوامر اجنبية

والتاريخ كثير العظات لمن اراد الاطلاع ، وطرق الاستعمار شيطانية ، فهل اذا قبل الملك حسين هذه البعثة الطبية بصفة رسمية أفلا يحتمل ان توسل الدول الاخرى بعثات أخرى ! . .

ثم ان البعثة المصرية سافرت هذا العام قبل قيام المحمل . فاذا صرح لها بما تريد الا يحتمل ان تحضر اليه في العام المقبل في شهر رجب (مثلاً) مزودة باوامر جديدة من الحكومة المصرية ثم لا يأتي العام الثالث حتى تكون بعثة دائمة . ومن يدرينا لعل بعض المفتشين الاجانب يعينون فيها يوماً من الايام مادامت الادارة في مصر تحت سلطة الانكليز ويكون هذا هو اول باب لاحتلال الحجاز .... الخ.
(انتهى المقال)

وغير هذا المقال كثير قرأناه في صحف سوريا ومصر بعد عودتنا من الحج يضيق المقام عن نشره . ثم سمعنا ان الحكومة المصريه عزمت على اصدار بلاغ رسمي عن الحادث قيل انه تألفت لجنة من كبار الموظفين (لتأليفه) على هيئة تقرير مطول تعتمد فيه على البلاغة في الانشاء والرشاقة في الاسلوب دون ان تعززه ببيان الوثائق الرسمية التي تثبت صحة الوقائع . فنشرت (البلاغ) الغراء مقالا بديعاً من قلم تحريرها نثبته بنصه فيما يلي قالت فيه تحت عنوان (نريد الوثائق الرسمية لا بلاغاً تنشئه الحكومة) :

« نقلت الصحف عن الوزارة انها ستصدر بلاغاً تضمنه رأيها فيما شجر من الخلاف بينها وبين حكومة الحجاز . وان اللجنة التي شكلت للنظر في هذا الخلاف من اصحاب السعادة علي باشا جمال الدين وسيف الله يسري باشا ويحيى باشا امير ركب المحمل الشريف انتهت من نظرها فيه وعهدت الى احد اعضائها علي باشا جمال الدين في وضع

البلاغ « ببلاغته المعهودة » على حسب رواية وكيل المقطم في الاسكندرية . والظاهر ان الوزارة تعتقد انها اذا اصدرت هذا البلاغ تكون قد قامت بكل واجبها ووضعت أمام الرأى العام صورة صحيحة من الخلاف الذي افضى الى عودة ركب المحمل

تعتقد الوزارة ذلك ولكنها مخطئة فى اعتقادها كل الخطأ والبلاغ الذي تريد ان تنشره على الناس انما هو في الواقع رأيها الذى تريد حملهم على الاخذ به واما رأيهم هم فيما شجر بينها وبين حكومة الحجاز من الخلاف فلا يمكن ان يتكون تكوينا صحيحا الا اذا نشرت عليهم الوثائق الرسمية التي تبودلت بين الحكومتين وفي هذه الحالة يستطيعون ان يصلوا الى الحكم فيها بمقارنتها بعضها ببعض واستنتاج النتائج من عباراتها التى يطلعون عليها فيها . اما البلاغ الذى تنشره الوزارة مجرداً من هذه الوثائق فلتتركه جانبا اذا ارادت ان تعنى حقيقة باظهار براءتها من التصرف الذي تصرفت به حين امرت بعودة ركب المحمل الشريف وانها لم تكن فى هذا التصرف مقودة بسياسة اجنبية تريد ان تستخدم خلافا كهذا الذى حدث بين الحكومتين المصرية والحجازية لتقضي به اغراضا لها عند ملك الحجاز ثم اذا كانت الوزارة تهمها هذه البراءة فلتدع البلاغ الذى اعتزمت نشره جانبا ولتكف نفسها همّ الكتابة والتحرير ولتنشر على الناس الوثائق الرسمية فى هذا الموضوع مجردة عن كل تعليق . والجمهور فى مصر يستطيع بفضل الله وذكائه ان يعرف الحقيقة من الاطلاع عليها

فاذا كانت الوزارة محقة في تصرفها فهو لا يضن عليها بالاعتراف لها بذلك

ونشر الوثائق الرسمية ليس بدعة تبتدعها فتنصرف بجانبها عن هذا الطلب وتكتفي بنشر بلاغ هي التى تنشئه وهي التى تدمج فيه الوقائع على الصورة التى يرضى بها هواها . وانما نشر الوثائق هو المألوف لدى الحكومة عادة في مثل هذه الحالة كالتى تتبادلها حكومات اوروبا حتى اذا قام خلاف بين احداها والأخرى عمدت صاحبة الحق الى نشر تلك الوثائق بنصها وتركت للرأي العام الحكم في الوقائع الواردة فيها . ولا تكتفي ببلاغ تنشئه وتدمج فيه الوقائع على الصورة التى ترتضيها

على ان نشر الوثائق لم يكن في الواقع غريباً عند الوزارة فقد سمعنا قبل الآن أنها تعتزم نشرها وان ذلك موقوف فقط الى ان يجيئها من الحكومة الانجليزية خبر بالموافقة على نشر ما يخص وكيلها في جدة من هذه الوثائق بالمقدار الذي اشترك فيه في المفاوضات التي دارت مع ملك الحجاز . فهل نفهم من عدول الوزارة عن نشر هذه الوثائق ان الحكومة الانكليزية عارضت في نشرها فأصبح حراماً ما كان حلالا قبل الآن . وأصبحت الوزارة ترى الاكتفاء ببلاغ تنشره على الناس بما تراه هي في الوقائع التي حدثت وتطالبهم بالاقتناع بما اقتنعت به . ولا تبين لهم الاسباب التي ولدت في نفسها هذا الاقتناع .

وهذا من شأنه ان يزيد الرأي العام اهتماماً بهذه الوثائق وطلب نشرها .
فهو لم يقابل تصرف الوزارة في عودة المحمل بالريبة الا لانه رأى اصبعاً
انكليزية في هذا الخلاف فاذا رأى الحكومة الانكليزية تمنع نشر
الوثائق التي هي السبيل الوحيد الى معرفة الحقيقة في هذا الخلاف
ازدادت شكوكه وأصر بحق على نشر الوثائق وكان واجباً محتوماً على
الوزارة ان تنشرها اذا أرادت ان يقتنع الناس ببراءتها . وقد قمنا بواجبنا
نحوها وصورنا لها الرأي العام في هذا الموقف في صورته الصحيحة
فلتختر لنفسها طريقها ولتعرف من الآن مقدار المسئولية التي تتحملها
اذا هي امتنعت عن نشر الوثائق الرسمية

(انتهى المقال)

وكتبنا وكتب سوانا من المطلعين على سير هذا الخلاف من
أوله نطلب ان تعتدل الحكومة المصرية في تصرفاتها وألاّ تكون
آلة في كفّ الدسائس الانجليزية تستخدمها لأغراض لها مخبوءة قام
بتنفيذها أمير الحج (خير قيام) . لاننا اذا اعتبرنا ما قيل من الحجاج
الذين تتبعوا خطوات سعادته في جدة بين باخرته والقنصلية الانجليزية
ثم رأوا قومندان البارجة الانجليزية يزوره في الباخرة ثم يعود الى
قنصليته ثم تروج على أثر ذلك اذاعات لا نتعرض لتكذيبها أو تأييدها
وانما يلوح لنا ان في الامر سراً لم ينكشف بعد وان هذا السر علمه
عند الله وعند أمير الحج . وأعجب من هذا ان نقرأ في احدى صحف
مصر حديثاً لسعادته يكذب فيه خبر زيارته قنصل انجلترا في جدة

بتاتاً . وأنا اخجل من نفسي كل الخجل اذا تعرضت لهذا الخبر بالنفي أو الاثبات لأنني لم اره بعيني ولكن الله والذين تعرضوا لتكذيب سعادته من الحجاج المصريين يعلمون انه لم يقل الحق . وانه لم يقم بما قام به في شأن عودة المحمل الا عملاً (بامر الحكومة المصرية) في الظاهر فقط . وأما الباطن فعلمه عند الله وعنده وعند (الراسخين في العلم)

نقف عند هذا الحد من ذكر الوقائع التي لا ينبغي ذكرها خجلاً من مصريتنا المرقعة الممزقة التي تبدو من تحتها سوآتنا ونقائصنا امام العالم الاسلامي والغربي في هذا الشكل المعيب

اما الوزارة المصرية فانها اكتفت (مرغمة) بنشر بلاغ نكتفي في تقديره باثبات نصه هنا ليكون للتاريخ عليه حكمهُ وهو كما نشرته الصحف قالت تحت عنوان (بلاغ من رئاسة مجلس الوزراء) : سبق للحكومة ان اذاعت على الجمهور بلاغاً وجيزاً عن اسباب استدعاء المحمل الشريف من البلاد الحجازية . وهي تذيع اليوم هذا البلاغ الجديد لايقاف الرأي العام على تفاصيل المسألة كلها

جرت عادة الحكومة أن توفد مع المحمل طبيبين يرافقانه في ذهابه وايابه للعناية بصحة الحجاج ومعالجة من يصيبه المرض منهم اذ لا يخفى احتشاد الآلاف المؤلفة من المسلمين الذين يفدون الى الاقطار المقدسة من جميع بقاع الارض واشتداد خطر العدوى بسبب اختلاطهم معاً مما يوجب على الحكومة بذل اعظم الجهد في

سبيل اتخاذ التدابير الصحية للوقاية من الامراض والعمل على مقاومتها

ومما يزيد عبء هذا الواجب أن الحالة الصحية في الحجاز سيئة ومياه الشرب والمأكولات فيها معرضة لتلوث بجميع أنواع الجراثيم لانعدام الانظمة والاحتياطات الصحية ولقد لاحظ سعادة مبروك فهمي باشا عند ما كان أميراً للحج في العام الماضي ان البلاد المقدسة خالية من الاطباء وان المرضى يبقون بعللهم ويتألمون طول السنة انتظاراً لوصول المحمل المصري ليعرضوا انفسهم على اطبائه . وقد رفع تقريراً بذلك الى حضرة صاحب الجلالة ملك مصر فتوجهت رغبته جريا على سنة اسلافه العظام فى اسداء البر والمعروف الى أهل البقعة المقدسة الى انشاء عيادة طبية بصفة مستديمة وصيدلية بالتكية المصرية بمكة رحمة بالفقراء وشفقة على المرضى فوضع مشروع بادخال تعديلات بالدور الارضي بالتكية وبناء دور جديد بها واعتمد مجلس الاوقاف الاعلى المال اللازم لذلك وسافر احد مهندسي وزارة الاوقاف الى مكة لهذا الغرض ومعه الصناع والعمال وقسم من أدوات البناء . ولكن الحكومة الهاشمية عارضت كل المعارضة في انشاء العيادة والصيدلية فلم يتيسر انفاذ ذلك المشروع

وقد رأت الحكومة المصرية في هذا العام بسبب تفشي الكوليرا في الهند أن الطبيبين اللذين يرافقان المحمل لا يكفيان للعناية بصحة الحجاج فعولت على أن توفد الى الاقطار المقدسة طبيبين آخرين مع

كل منهما اثنان من المبخرين وعلى أن تزودهما بجميع ما تستدعيه الحال من ادوية وعقاقير وادوات طبية فيستقر احدهما في جدة والآخر في مكة طول مدة الحج بمحطة المحمل بالمدينتين المذكورتين ثم يعودان بآخر باخرة تحمل المحمل والحجاج . مثل هذا العمل الانسانى المحض لا يمكن أن يستوجب في ذاته اعتراضاً أو بحثاً فان امر العناية بصحة الحجاج المصريين موكول الى الحكومة المصرية نفسها فهي التي تتولى تنظيم الخدمة الطبية التى تقتضيها صحة رعاياها على انفع وجه هذا فضلا عن انه سبق للحكومة المصرية أن أوفدت في سنة ١٩١٧ وفي سنة ١٩١٨ بعثة طبية مثل بعثة السنة الحاضرة . وكانت البعثة في سنة ١٩١٧ مؤلفة من اربعة اطباء لا من طبيبين اثنين وكانت تقوم بمهمتها بنفس ديوان الكورنتينات العربية من غير أن يلقى هذا العمل إعتراضاً من الحكومة الهاشمية . وفوق ذلك كله فان اقامة مستوصفين مؤقتين لمعالجة حجاج بيت الله الحرام ليس من الامور التى يمكن ان يقال عنها بحال من الاحوال أن فيها افتئاتاً على حقوق الحكومة العربية أو على استقلالها

ومع هذا فان الحكومة المصرية عملاً بما جرت عليه من واجب المجاملة نحو الحكومة العربية ابلغت اليها (الامر) تلغرافيا في ١٨ يونيه سنة ١٩٢٣ وطلبت الموافقة عليه . ولكن مع الاسف ان الحكومة الهاشمية لم تجب على ذلك رأساً بل طلبت في ردها ان يكون البحث في الموضوع بعد ان تعيد نظارة الاوقاف الحقوق القديمة الخاصة بابناء

البلاد التي بدأت تقطعها مؤخراً عنهم خلاف التعامل القديم . ولما لم يكن هناك أى ارتباط بين مسألة العناية بصحة الحجاج وبين مسألة الاوقاف فضلا عن ان المسألة الاولى من الامور المستعجلة التى لا تحتمل التأخير والامهال كما انها بطبيعتها لا يمكن ان تكون محل مساومة فى حين ان المسألة الاخرى لا ضرر من تأخير البحث فيها فقد كتبت الحكومة المصرية الى الحكومة الهاشمية تلفت نظرها الى ذلك وتوجوها ان تعدل عن اعتراضها غير ان الحكومة الهاشمية أصرت على رأيها

ولما لم يكن في وسع الحكومة المصرية ان تهمل الواجب المفروض عليها نحو العناية برعاياها لاسيما وان هذا الاهمال قد يؤدي الى اوخم العواقب على البلاد نفسها والى نقل الاوبئة والامراض اليها. ولما كان موعد سفر المحمل قد حان والفرصة اضيق من ان تسمح باستمرار المفاوضات التلغرافيه فقد ابحر الطبيبان المصريان ورجالهما الى جدة فوصلوها في ٣ يوليه سنة ١٩٢٣ وبعد اسبوع ابحر المحمل المصري على الباخرة (البحرين) فوصلها في يوم ١٠ يوليه وعهدت الحكومة المصرية الى اميره في استئناف المفاوضة مع الحكومة الحجازية لاجل قبول البعثة الطبية

ومن بواعث الاسف ان امير المحمل المصري علم عند وصوله جدة ان الاطباء المصريين عوملوا فيها معاملة غير لائقة فقد صادرت الحكومة العربية مامعهم من المهمات والادوات الصحية كما صادرت

امتعتهم وملابسهم وحقائبهم ومأكولاتهم . ثم انهم استدعوا الى مركز البوليس وهددوا بوضعهم في السجن !!؟ (لماذا ؟) بحجة انهم يوزعون منشورات بواسطة عمالهم ووضعوا فعلاً تحت مراقبة شديده. في حين ان المنشورات التي اتهموا بتوزيعها ليست سوى التعليمات التي اصدرتها مصلحة الصحة العمومية في مصر عن اقامة المستوصفين (وعما يجب على الحجاج فعله في حالة ظهور الكوليرا) مع وصف اعراض المرض والتدابير التي ينبغي لكل حاج اتخاذها للوقاية [1] .

ولم يكتف ولاة الامر في جدة بمعاملة الاطباء (الطبيبين) المصريين هذه المعاملة بل اخذوا يذيعون عن الحكومة المصرية اسوأ الاشاعات حتى بلغ الامر انهم زعموا انها لم توفد بعثتها الطبية الى الحجاز الا لاجل تسميم ماء الحجاز . ويؤيد ذلك الكتاب الذي بعث به قائم مقام جدة الى الديوان العالى الهاشمي وهذه صورته بعد الديباجه :

(ونشر خطاب لانعرف من اين وصل الى الحكومة المصرية نصه ولا معنى لنشره هنا لقلة اهميته وهو عبارة عن تبليغ خبر اشاعة الشروع فى تسميم المياه الى مركز الحكومة في مكة بعد ان راجت هذه الاشاعة بين الحجاج أنفسهم حتى نالت من روعنا ومئذ منالا)

وقد توصل امير الحج بمخابرته مع جلالة ملك الحجاز الى استرجاع الادوات الطبية ولكنه حاول عبثا ان يقنع الحكومة الحجازية بقبول

---

(١) منها عدم الشرب من ماء زمزم بتاتاً .....

البعثة الطبية ولم يستطع ان يحصل منها على جواب صريح في هذا الشأن بل كان يتلقى اجوبة ووعوداً غامضة وانتهى الامر باصرار الحكومة الحجازية على الرفض . فلم تجد الحكومة المصرية مندوحة عن اصدار الامر بعودة المحمل (بعد ان صدرت الفتوى الشرعية بذلك)

ومن اكبر بواعث الاسف ايضا ان الحكومة الحجازية عملت على قطع كل صلة للمفاوضة بين امير المحمل المصري اثناء وجوده في جدة وبين الحكومة المصرية فقد اصدرت امرها الى الباخرة (البحرين) !!! (باخرة المحمل ؟!) بعدم استعمال تلغرافها اللاسلكي لاية جهة وهددتها بالطرد من الميناء وبالغرامة اذا خالفت هذا الامر [1] . . . ! !

هذا وترى الحكومة من واجبها ان توقف الرأي العام على الخلاف الذى اشارت اليه حكومة الحجاز في موضوع الاوقاف . فقد ذكرت تلك الحكومة في تلغرافها الذي ارسلته رداً على طلب الموافقة على ايفاد البعثة الطبية مايؤخذ منه ان لاهل الحجاز حقوقاً قديمة في الاوقاف منعتها عنهم وزارة الاوقاف مؤخراً . فالحكومة المصرية تصرح بان هذه الدعوى غير صحيحة بالمرة فليس لاهل الحجاز لدى وزارة الاوقاف المصرية خيرات موقوفة عليهم بصفة خاصة ولكن وزارة الاوقاف جرت عادتها رأفة بالفقراء من اهل مكة والمدينة ان

(١) كانت آلة التلغراف اللاسلكى بالدارعة الانجليزية واسطة المخابرة بين امير المحمل ومصر في ميناء جدة

تصرف اليهم مرتبات شهرية من ريع اوقاف خيرية اشترط واقفوها ان يصرف ريعها الى الفقراء والمساكين بأية جهة كانوا . على ان الوزارة عملا بشروط الواقفين تقوم على الدوام بعمل تحر دقيق عن حال من تجرى عليهم الصدقات فتقطعها عمن توفى منهم وعمن يظهر يساره وتقرر تلك الصدقات المقطوعة الى غيرهم من سكان الحرمين الشريفين الذين يثبت فقرهم

ومما ينبغي ذكره انه في هذا العام بلغ مارتب من الصدقات لفقراء الحرمين مايزيد عما قطع عن غيرهم للاسباب التى سبق ذكرها وزاد المبلغ الذي صرف في هذا السبيل عما صرف في اية سنة من السنوات الماضية

وعلى ذكر الخلاف الخاص بالاوقاف ترى الحكومة ايضاً نشر بيان عن المرتبات التي تبعث بها وزارة المالية سنويا الى الحجاز فان بين الحكومتين خلافاً على ثلاث نقط في امر تلك المرتبات وهي :

اولا — تطالب الحكومة العربية من الحكومة المصرية مبلغ ١١٣ جنيها قيمة نقل مرتبات الحرم النبوي الشريف من ينبع الى المدينة المنورة عن سنة ١٣٤٠

ثانياً — تطلب كذلك معرفة السبب فى قطع بعض المخصصات المعينة للتكية المصرية لبعض اهالي البلاد

ثالثا — وتطلب كذلك معرفة السبب في ايقاف صرف مخصصات المأمورين الذين يرافقون ركب المحمل الشريف مدة وجوده بالمدينة

وجواباً على المسألة الاولى قد ظهر ان الحكومة المصرية اعتادت ان ترسل المرتبات الخاصة للمدينة المنورة ومكة المكرمة الى مينائي ينبع وجدة سواء في عهد الحكومة العثمانية او الحكومة العربية وكان يحضر مندوبون عن الحجاز لاستلام هذه المرتبات من كل من هذين المينائين ولم يعترض على ذلك في وقت من الاوقات

وجواباً عن المسألة الثانية : ان جميع المرتبات و المخصصات جار ارسالها لاهالي البلاد بالحجاز مع ركب المحمل الشريف ، ماعدا مخصصات بعض الاهالي التى تكون قد انحلت بسبب وفاة اربابها وعدم النص على توجيهها لآخرين . وجواباً على المسألة الثالثة : ان هؤلاء المأمورين هم الذين كانوا يرافقون ركب المحمل الشريف الى المدينة المنورة . اما وان السفر الى هذه المدينة قد انقطع من زمن طويل فلا معنى لاعطاء هذه المرتبات

اما المرتبات الاخرى - كالقمح وغيره - فانها احسانات محضة تصرف من خزانة الحكومة المصرية ولا علاقة لها بالاوقاف . وقد بحثت الحكومة هذه المسألة بحثاً دقيقاً وتبين لها ان الفرمانات الشاهانية الصادرة في سنة ١٢٢٢ و ٢٤ هو الخطاب الهمايوني الصادر في سنة ١٢٢٨ الى والي مصر وقاضي مكة والفرمان الصادر فى رمضان سنة ١٢٣٦ والارادة السنية الصادرة من المغفور له محمد سعيد باشا والى مصر واوامر المالية الصادرة الى الروزنامة فى ١٢٦١ والارادة السنية لوزارة المالية فى شوال ١٢٨٢ واوامر اخرى غير هذه كلها

تشير بصريح العبارة الى ما يأتي :

(اولاً) ان هـذه المرتبات لم تكن ثمرة اوقاف بل هي مجرد احسان وصدقة من جانب سلاطين تركيا وولاة مصر

(ثانياً) انها كانت مخصصة لاشخاص معينين تصرف لهم باتحاد امير الحج مع مشايخ كل قبيلة

(ثالثاً) أنها لا تورث بل تقطع عن اصحابها بمجرد وفاتهم

(رابعاً) أنها كانت تعطى لبعض القبائل من الاعراب لاتقاء شرهم وغدرهم وخياناتهم التى كانوا يفعلونها مع الحجاج كما جاء ذلك صراحة فى نصوص الفرمانات والارادات السنية المنوه عنها

وقد طلب أميرا الحج في السنتين الماضيتين من حكومة الحجاز ان يشتركا معها في توزيع هذه المرتبات تنفيذاً لهذه الاوامر فرفضت الحكومة طلبهما واضطرا منعاً للنزاع الى تسليمها لحكومة الحجاز لتتولى هي بنفسها توزيعها على من تراه من المستحقين . (انتهى نص البلاغ)

* * *

هذا هو البلاغ المبين . (وعند جهينة الخبر اليقين) رأيت اثباته ليكون حجة على حكومة مصر امام التاريخ . ولا ندري الحكمة في مراوغتها في أمر (اوقاف الحرمين) التي لا يجهلها الصغير ولا الكبير في مصر وهذه اعيانها الثابتة من اطيان وعمارات مبنية وغيرها في انحاء القطر المصري تشهد على نفسها بحقوق أهل الحرمين فيها . هذه مدينة

دمياط وفيها أكثر من ستين فدانا تكليفها في سجلات الحكومة باسم اوقاف الحرمين وأكثر من المائة فدان في زمام قرية بني عبيد التابعة لمركز دكرنس في مديرية الدقهلية كذلك ومبان في مدينة المنصورة وناهيك باوقاف مدينة طنطا ومديرية الغربية فانها جميعها ليست الا اوقاف الحرمين والسيد البدوي . وغيرها وغيرها من مدن القطر وقراه ولا سيما في القاهرة . فهذه عمارات (العتبة الخضراء وسوق الخضار) تنطق للحرمين الشريفين بحقوقهما فيها

ولا أتولى مناقشة الحكومة المصرية الامينة في هذا الخلاف وانما أريد فقط ان اشير الى غمطها هذه الحقوق الثابتة ومحاولتها انكارها والحق أحق ان يتبع مهما كانت الظروف والاحوال

ويحسن بنا في هذا المقام ان نأتي على نص البلاغ الذي أصدرته وكالة الحكومة الهاشمية بمصر رداً على بلاغ الحكومة المصرية في هذا الصدد . قالت :

« ان الحجاز الذى لا يزال حفيظا حريصاً على دوام العلائق الودية الحسنة مع مصر الكريمة التي تعد في مقدمة الاقطار الاسلامية الناهضة يسوءه ان تسمح الايام النكدة بوقوع خلاف بينهما في الحج الماضي ، لامور تكاد لا تصلح ان تكون سبباً لاقل مما قد وقع فعلا من استعادة كسوة الكعبة المشرفة واسترجاع المحمل الشريف وجنوده (الحجاج) وهم محرمون من أبواب الحرم المحترم

يسوء الحجاز ذلك بقدر ما يسره ان يقف كل كبير وصغير في

مصر على حقيقة ما جرى من اسباب ونتائج ومخابرات ووثائق في شأن ذلك الخلاف الذي نفر منه واستاء له بلا شك كل محب ومخلص للبلدين معاً في القطرين الكريمين ليرى كل من يهمه الامر دينيا واجتماعياً رأيه فيه

لذلك سارع الحجاز الى نشر تفاصيل الواقع وقت وقوع الحادث بالوثائق والنصوص تبريراً لعمله واداء للواجب عليه امام الحقيقة والتاريخ وجمهور المسلمين وهو شديد الاسف على ما وقع . كما انه قام من الجهة الاخرى بما يجب عليه نحو ضيوفه الحجاج المصريين الكرام من الحفاوة والرعاية والاحترام وهو على يقين انه عند ما يقوم لهم بتلك الخدمة والعناية انما يؤدي واجباً دينياً لقوم ابرار من خيار وفود بيت الله الحرام حتى منّ الله على الجميع باداء المناسك كاملة والرجوع الى الوطن بالصحة والعافيه وبلوغ المنى حامدين الله ربهم وشاكرين

وقد عرف كل من تتبع ما نشرته المصادر الحجازية المصرية فى شأن الخلاف ان معارضة حكومة الحجاز كانت منحصرة في نقطة واحدة فقط وهي أنها لا تستطيع ان تقرر رسمياً قبول مستوصف صحي أو بعثة طبية لا تكون جزءاً مرتبطاً بالمحمل يحل معه أينما حل ويرحل متى رحل لما تحاذره سياسياً من وراء ذلك . ولكنها تقبل ولا تعارض البعثة في دخول الاطباء مع المحمل كالمعتاد من غير حاجة الى اذن أو استئذان كما كان جاريا ومتبعا من قبل ولذلك قال قاضي القضاة لسعادة أمير الحج على سطح الباخرة (بحرين) يوم ٢٨ ذى القعدة سنة

١٣٤١ – ١٣ يوليه سنة ١٩٢٣ باسم صاحب الجلالة الهاشمية وحكومته «ارحب بكم وبمن في معيتكم من هيئة المحمل طبية وغيرها واني قابل الهيئة الطبية التي هي من متعلقات المحمل كما ذكرت سواء كان فيها طبيب أو مائة وسواء كان معها سرير أو ألف وسواء كان معها صندوق أو ألف من الادوات الطبية وسواء كانت معها خيمة أو ألف واني قابل ذلك كله وللهيئة المذكورة ان تعالج الحجاج المصريين وغيرهم ممن يراجعها» ثم أيد لسعادته ذلك بعد عودته من الباخرة الى البر بكتاب رسمي رقم ٣ ارسله لسعادته حالاً في الباخرة فاستلمه ووقع بالاستلام

ومما يؤيد دعوى الحكومة الهاشمية ويبرهن على حسن نيتها واحترامها لمصالح مصر التي لا تمس بسياسية البلاد انها لم تعارض قط في قبول الاطباء المصريين والتعاون معهم مهما كان عددهم كما يجري في كل عام مع المحمل ولا سيما في سنة ١٩١٧ حينما كان عدد الاطباء اربعة وقاموا اذذاك بمهمتهم خير قيام كما أشار الى ذلك بلاغ الحكومة المصرية الاخير [1]

اذن فدخول الاطباء المصريين مهما كان عددهم ما داموا جزءاً من ركب المحمل لم يكن محذوراً ولم تعارض فيه حكومة الحجاز ابداً ولم يكن قط محلاً للخلاف والنزاع . ولو أن الاطباء دخلوا في هذا

(١) ارادت الحكومة المصرية في اشارتها الى ذلك في بلاغها انها كانت بعثة (ولو مع المحمل)

العام للحجاز كما دخلوا من قبل وبالطريقة التى كانت متبعة لأدوا واجبهم للحجاج كما تطلبه الغاية التى ينشدونها من غير أن يقع أي مكدر

وسواء قلنا ان الحالة الصحية كانت تستدعي في هذا العام زيادة العناية بصحة الحجاج أو قلنا انه لم يقم أي دليل على وجود حالة صحية جديدة طارئة في هـذا العام لم تكن موجودة فى الاعوام القريبة الماضية فان الموسم قد انتهى ولله الحمد بصحة وسلامة وثبت رسمياً ان الحج كان نظيفا

ومما يؤسف أن البرقيات الواردة للحجاز في موضوع الاطباء مكتوبة بصيغة من شأنها أن تكون سبباً لايجاد الخلاف وسوء التفاهم كتعبير (قررت الحكومة المصرية خلافا المتبع) و (ضروري من تنفيذ تعليمات الحكومة المصرية بكل عناية ودقة) مما نشرته (القبلة) عند ذكر الوثائق الرسمية الامر التي لا يتناسب مع ما بين البلدين والامتين من العلائق الودية القديمة والروابط الحسنة الدائمة. ولو خاطبت مصلحة مصرية أخرى في مصر في شأن يخصها لوجدت لها صيغة غير هذه في مخاطبتها فكيف بمملكتين مستقلتين

يضاف الى هـذا أن المخابرة في هذا الشأن قد أخرتها مصر الى الوقت الضيق وقد كان في امكانها الشروع في ذلك قبل الموسم حيث يكون للفريقين متسع من الوقت في التفاهم بالاخذ والرد ما دام أن أساس فكرة الحكومة المصرية في مضاعفة العناية بشؤون الصحة

للحجاج المصريين كان قديم التاريخ (منذ أعرب سعادة مبروك باشا فهمى عن ملاحظته أو على الاقل من تاريخ سفر الميرالاي حسن بك محمد الذى انتدبته وزارة الداخلية في أول يونيو سنة ١٩٢٣ للسفر الى الحجاز للمذاكرة فى بعض شؤون الحج المصري وهي أقل شأنا وأهمية من مثل مشروع البعثة الطبية)

ومما يدعو لمزيد الاسف ايضاً أن ينسب لدى حكومة مصر للحكومة الهاشمية انها اذاعت عنها فى جدة اشاعات سيئة كخرافة تسميم المياه ونحوها أو ان يقال لها ان قائم مقام جدة كتب للديوان الهاشمي كتاباً يؤيد فيه مثل تلك الاشاعات بل ان ينقل اليها نص صريح لذلك الكتاب مع أن حكومة الحجاز تبرأ من اذاعة تلك السخافة كل البراءة وتنفيه بكل شدة والقائم مقام المشار اليه لم يكتب للديوان الهاشمي شيئاً من ذلك بالمرة وليس لذلك الكتاب المزعوم المنسوب له اصل ولا وجود البتة ولقد يصعب على المتأمل ان يتصور كيف يصل الى هنا نص مخابرة كهذه تجري بين دائرتين فى بلد اجنبية

أما ماقيل انه لحق بالاطباء المصريين الذين وصلوا قبل المحمل في جده فانا نؤكد أولا ان صاحب الجلالة الهاشمية وحكومته لا يرضيان ولا يسمحان بان تلحق اية اهانة في الحجاز بأي فردٍ من وفود بيت الله الحرام مهما كانت صفته وجنسيته فكيف بمثل هؤلاء الاطباء الاجلاء . ولكن الحقيقة ان وصول الاطباء مع الطرود والمهمات

الى جدة بعد أن عرفت مصر أن الحجاز يعارض في قبولهم وقبل ان يبت في أمرهم بين الحكومتين قد يعد فى نظر الانصاف بمثابة الامتهان لكرامة الحجاز لان فيه معنى (مباشرة عمل في بلد قبل الحصول على موافقته)

وقد يحق لحكومة الحجاز بسبب ذلك ان تمانع في نزولهم الى البر حتى يصل امير الحج ويقر معه الامر على قرار في شأنهم . ولكنها لم تفعل ذلك بل انها انزلتهم ورحبت بهم . فلما علمت انهم يحاولون مباشرة عملهم بالفعل بشروعهم في توزيع التعليمات المتعلقة بالمستوصف امرت بحجز كل الطرود والمهمات في الجمرك دون تسليمها اليهم وانذرتهم ادارة الامن بضرورة الكف عن أي عمل من اعمالهم قبل وصول المحمل والمفاوضة مع امير الحج

اما ان حكومة الحجاز قد قطعت طرق المواصلات بين امير الحج ومراجعه في مصر فان الحكومة الهاشمية تنفي ذلك كل النفي وكل مافي الامر ان السلك البحري بين جدة وسواكن قد قطع قبل قيام المحمل من السويس وكانت حكومة الحجاز شديدة الاسف لانقطاعه في ذلك الحين ولقد انفقت على اصلاحه مصاريف كثيرة لباخرة الاصلاح البريطانية وان يد الحجاز لتقصر عن ان تصل الى الآلة اللاسلكية سواء بالباخرة (بحرين) أو الباخرة البريطانية التي كانت واسطة ارسال البرقيات من سعادة امير الحج الى مصر في ذلك الوقت حيث لم تستطع الآلة اللاسلكية في الباخرة (بحرين)

ارسال قوتها الى جهة الاتصال . ومن الصعب ان يتصور متصور مصلحة الحجاز في قطع وسائط المواصلة للمفاوضة

أما مسألة المخصصات والمرتبات والاوقاف وما يتبع ذلك من الامور المختلف عليها فليست من الامور الاولية بالمرة في هذا الخلاف ولم تكن الاشارات اليها في اول المخابرات البرقية الا من قبيل المطالبة بحل مسألة نزاعية قديمة قبل الدخول في بحث مسألة اخرى جديدة ولذلك يصح ان يقال انها مما يستطيع الفريقان ـ الحجاز ومصر ـ ان يتفاهما عليها بما يقتضيه الحق عند ما يدلي كل فريق بحجته في الموضوع متى سمحت الظروف بذلك . ومهما يكن من امرها فليس ثم من ينكر انها من حسنات ومبرات المخصصين من ذوي البر والاحسان طيب الله ثراهم وتغمد بالرحمة مثواهم . » انتهى

* * *

هذا هو بلاغ الوكالة العربية الهاشمية في مصر والمطلع عليه يرى روح الادب الجم تترقرق بين ثنايا عباراته الحكيمة مشرقة بضياء الحق المبين (١) .

وقد نشرت جريدة البلاغ الغراء في عدد ١٤ اغسطس سنة ١٩٢٣ مقالاً طويلا لحضرة الاستاذ احمد مصطفى بك المحامي بمصر في الحج

---

(١) اعجب الناس كثيراً بالحكمة والكياسة اللتين هما من اخص صفات سعادة المعتمد السياسي للحكومة الهاشمية في مصر فانه استطاع بهما رغما عن دقة موقفه في هذا الخلاف ان يحفظ روابط الود مع كافة الهيئات المصرية

اودعه مشاهداته في الحجاز واذ كان احد الحجاج الذين رافقوا المحمل من السويس الى جدة وشهد المفاوضة بين قاضي القضاة وامير المحمل رأيت ان اقتطف من مقاله مايتعلق بهذا الخلاف قال حضرته : -

« ألف الناس واعتادوا قدوم حجاج مصر بارزاقهم وصدقاتهم للحجازيين كما يستخرجون ثمرات زرعهم ليكونوا مزرعة اهل الحجاز مصداقاً لقوله تعالى (رب اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون .)

فهم من ذوي الحقوق بهذه المثابة وليس لمسيطر مهما كان بطشه وسلطانه ان يتعرض لتلك الحقوق مادامت من اموال الامة واستحقاقاتها ترجع لشروط الواقفين وهي كنص الشارع

ليس الا فتيات على الحقوق مباحاً لاغراض مستورة اللهم الا ان يكون لذوي الغايات وسائل يتذرعون بها لايقاع الضغط على ملك الحجاز حتى يجاريهم فيما يبغون من بسط سلطتهم أو التدخل في شؤون الاراضي المقدسة بلا مسوغ يحله الشرع أو يجيزه القانون

قاتل الله السياسة فقد لعبت دورها وانتهى امرها فى مسئلة رجوع المحمل وهي من الالاعيب التي بنيت على الاباطيل وقد اوجبت جفاء بين الحكومتين المصرية والحجازيه لسبب واهٍ وعلة واهية (لو تداركها حكيم لما علق امرها على البعثة الطبية بلفظها صارفاً نظره عن معناها متعلقاً بالعرض دون الجوهر .)

اتيح لي في رحلتي هذه ان ارافق ركب المحمل في السفينة (البحرين) فسهل ذلك لي علم مالم يعلمه سواي وعاهدت الله ان اعلن قومي بحقيقة الواقع وانشر على الملأ ماتيقنته بنفسي وما اتصل بي لينجلي الخفاء وينكشف مستور المسئلة بوضوح تام لا اخشى في الحق لومة لائم ولا احسب لعواقب الامور حسابا انما اخشى الله وحده انه بصير بالعباد

منذ عامين ارادت انجلترا ان ترسل بعثة طبية هندية لمسلمي الهنود حجاج بيت الله الحرام فأباها ملك الحجاز فنمت وطفق ذلك النفوذ يخفت فجاءوه من باب آخر تسلطهم عليه لا ينكر

ومع ان المحمل له طبيب وادوية ترسل معه كل عام حسب العادة قد فكرت الحكومة المصرية في ايفاد بعثتين طبيتين احداهما تقيم بجدة والاخرى بمكة لعلاج الحجاج المصريين واعتبرت البعثة جزءاً لا يتجزأ من المحمل . ولكن البعثة سبقت المحمل بادواتها وأدويتها واطبائها فانفصلت بوصولها قبل المحمل عنه وأصبحت ارسالية قائمة بذاتها . سبقتها مخاطبات لم يتم الاتفاق عليها . وكأنها ارسلت عنوة لا كراه ملك الحجاز على قبولها مادام الوفاق لم يتحرر بشأنها . فأباها ملك الحجاز وخاف عاقبتها كما خاف اعتراض مسلمي الاقطار كافة على معاهدته مع انجلترا فلم يوقعها الى الآن . وكذلك اصر على مخالفة حكومة مصر المسوقة بعوامل تلك المخالفة في شأن البعثة الطبية . فحجز الامتعة بمخازن الجمرك ومنع نشر المنشورات الصحية (التي في

بعضها طعن على صلاحية ماء زمزم طبياً) ونبه على الاطباء بالكف عن مباشرة شؤونهم ما داموا قادمين بعثة بلا وفاق

ولكن الحكومة المصرية تمسكت برأيها في البعثة واصرت اصراراً لا رجوع عنه معلنة انها تعتبرها جزءاً لا يتجزأ من المحمل وأمرت أمير الحج كتابة قبل مغادرته السويس بالاّ ينزل ركب المحمل من السفينة الا اذا قبلت البعثة رسمياً والا عاد المحمل ادراجه

رأى أمير المحمل ان يفاوض الحكومة الحجازية فيما لديه من الاوامر قبل مغادرة السفينة . وكلم جلالة ملك الحجاز تليفونيا من جدة ودارت مخاطبات ظنها خدعة وخشي ان ينهزم في مسألة بسيطة وما اعترضها من نزول الجمال والخيل والبغال ابسط منها

خال الامير ان الخدعة بمجاملات الالفاظ تتم ما دامت الصيغة اللفظية وشكل البعثة الطبية لم يتحقق لفظه دون معناه . واشركني حيناً فى تلك المفاوضة بعد ان استأذن الحكومة المصرية في العودة بواسطة الوكالة الانجليزية والمخاطبة بسفينتها الحربية الراسية على ميناء جدة على مقربة من سفينة المحمل فجاء الاذن بالرجوع

لم يتعجل حينئذ وامره بيده بل املاني كتاباً سطرته بيدي لقائم مقام جدة ليرفعه الى جلالة الملك بجواب صريح بقبول البعثتين أو رفضها ورد الحيوانات والاشياء مع الاطباء للسفينة . ومع ان الاشياء ردت ولم تحصل ممانعة فيها ولا كانت الخدعة مصوغة لتافه الاشياء رأى جلالة الملك ايفاد قاضي القضاة لمفاوضة الامير في النزول بما معه

الحاقا بركب المحمل للاستفادة بالبعثة الطبية بلا تقيد بلفظها فلم يقبل مفاوضته وكان ما كان

رجع المحمل وهذا بيان رجوعه وقامت قيامة مصرطمناً على ملك الحجاز من غير نظر صحيح ولا تدقيق في المسئلة . وقد شاهدنا الواقعة بحالتها المبسوطة موجزة فى هـذه الرسالة فابرقنا بها وظن بنا السوء في تلك البرقية وما شهدنا الا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين

اشهد الله اني بر بقومي وان المسألة تافهـة ما كانت تستدعى تلك المقاطعة ولا منع الرزق عمن هم أهله والله يوليهم من فضله خيراً منه وأبقى

انما اعلن وأنا على يقين مما اعتقد ان الحج جريمة في نظر الحكومة التي سلمتنا لشركة شميل في البحر تفعل بنا ما شاءت من اساءة وتكيل لنا الاهانة ولنا معها شأن يتولاه القضاء

وفي البر ارادت الحكومة (المصرية) عفا الله عنها ان يعلم الحجاج ان للانعام كرامة في سكة الحديد ورعاية أكثر من الحجاج

جهرت بهذا القول وانا اعلم نفسية الرأي العام ومبناه اريد بيان حقيقة لا شك فيها وابغي تسهيل السبيل من بعدي لمن أراد حج بيت الله حرصاً على الدين ومحافظة على الاسلام . » انتهى

* * *

هذا وغيره كثير مما كتبه الحجاج المصريون بعـد عودتهم من الحج على صفحات الجرائد المصرية مما لايدع مجالاً للريب في ان الحق

عند عودة المحمل من جدة لم يبرح جانب الحجاز ولو كره المبطلون

وآخر ما قرأناه في الصحف من هذا القبيل مقال شائق نشره المقطم الاغر فى عدد ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٢٣ نقتطف منه ما يلى :

« ان الحجاز يرى ما تضعه الدول من العراقيل في سبيل الحج بعدم السماح لبعض المسلمين بالسفر اليه ومعاكسة الآخرين في أمر البواخر والكورنتينات وما يلاقونه هنالك في طريقهم من الشدائد التي تنفر المسلمين من الحج ولا يعرف لذلك سبب غير أن القوم يريدون أن يبطلوا هذه الفريضة لما يخشونه من اجماع طبقات المسلمين في ذلك المعرض العظيم فهم يحاولون أن يطمسوا تلك الحكمة الالهية ويقضوا على الجامعة الاسلامية . وهي نظرية وجيهة يقول بها كل عاقل مفكر

ثم انه لما عرضت بريطانيا على الملك حسين أمر البعثة الهندية من قبل رفض الاعتراف بها لانه احس انه متى اعترف بها رسمياً صار قرارها الطبي على البلاد نافذاً وقد يراد من هذه البعثة أن تقرر يوما عند ما تبدر لها أقل بادرة اشتباه أو بايعاز ان البلاد (موبوءة) وعندها يمنع الدخول اليها رسمياً . فيكون ذلك صداً عن المسجد الحرام وخطراً على الاسلام وقضاء مبرماً على جيران بيت الله الذين لا عيش لهم الا من وراء ما يكتسبون من الحجاج

ولا يخفى انه اذا تمّ لها ذلك لا سمح الله تكون قد قبضت على روح البلاد المادية وهو كل ما يهمها . من أجل هذا رفض ملك الحجاز

قبول البعثة الهندية بعد ماوصلت فعلاً الى جدة وأمر باخراج ادواتها من البلاد و نفذ ذلك رغم ارادة الانجليز الذين ساءهم ذلك جداً ولكنهم عمدوا الى التكتم لانه ليس من مصلحتهم ان يسمع العالم بما يشتم منه انهم يحاولون التدخل في شؤون الاراضي المقدسة وان كبر عليهم ان يظهروا بمظهر الفشل امام حكومة الحجاز الفتية

وعرف الملك حسين قبل غيره ان بريطانيا لا يمكن ان تسكت عن ذلك عفواً وانه لا بد ان تكون قد عمدت الى طريق آخر لتنفيذ ما ربها . ثم انه لما رأى طلب الحكومة المصرية بارسال بعثتها في هذا العام خلافاً للمتبع ادرك لاول وهلة ما كان يحسبه وعرف الطريق التى عمدت اليها بريطانيا . فاحب ان يتفاهم مع الحكومة المصرية ويعدل رأيها في أمر البعثة فقال انه يقبل الاطباء مهما كان عددهم كالمعتاد اما غير المعتاد فهو يجهل الغرض منه ولذلك فهو لا يقبله . قال انه يقبل الاطباء مرتبطين بالمحمل يصلون يوم وصوله ويرافقونه اينما حل وارتحل ولكنه لا يوافق على ان يباشروا أعمالهم قبله ولا ان يكون لهم محل خاص في جدة لانه يخشى متى صرح لهم بالحضور مع أول حاج ان يفدوا في العام القادم من أوله ويمكثوا الى ان يسافر آخر حاج بل ما دام في الحجاز مصري كما انه يخيفه وجود مستوصف في جدة يصح ان يكون فيه في العام المقبل طبيب اجنبي ثم مراقب ثم رئيس وهكذا . والا فما هو لزوم ذلك المستوصف في جدة في الوقت الذي يكون فيه الحجاج جميعهم في عرفات

رغب في التفاهم ولكنه ادرك ويا للأسف ان ذلك لا يجديه نفعا لان الظرف ليس ظرف تفاهم وسعادة أمير الحج المنتدب لمهمة ارغامه على قبول البعثة ما كان الا مزوداً بتعليمات لا بد من تنفيذها وقد مهدت له السبيل للعمل برأيه انقطاع الاسلاك البرقية فحال ذلك دون تفاهم الحكومتين مباشرة

ولم يشأ سعادته ان يسمع ولا ان يفهم شيئاً خصوصاً لانه هو هو بعينه ذلك اللواء صادق يحي باشا الذي كان مرافقا الكولونيل وكري المعتمد البريطاني في جدة يوم طلبت بريطانيا قبول البعثة الهندية ولا بد أنه كان عالماً بكل ماجرى من الاخذ والرد في المخاطبات الرسمية في ذلك الشأن فلا حاجة به الى سماعه من جديد

أيقن الملك ذلك فكان موقفه صعبا فهو اما ان يقبل البعثة فيقع فيما فر منه سابقا ويستوجب سخط الامة الهندية التي ستثير الدسائس عواطفها عليه من جهة ومن اخرى عليه ان يستعد لقبول بعثات عديدة من امم كثيرة تكون على أثرها مداخلات اجنبية واستعمار واحتلال الخ . . لا قدر الله . واما ان يرفضها فيعذره العاقلون ويلومه من يجهل الحقيقة أو المندفعون بالايدي الاجنبية - فلم يسعه الا ان يؤثر الاخيرة على الاولى فثبت على مبدإه من صون بلاده وأمته مما يخشاه ولا يسجل عليه التاريخ في صفحاته تلك النقطة السوداء ولا يذكره الشعب بالسوء في مقبل أيامه ولم يكترث لما ينجم عن ذلك من الضرر المادي الحاصل اتقاء أشد الضررين

وهناك سبب آخر بعث على تشوش الرأي العام في الحجاز وخشيت الحكومة عواقبه وهو ما كانت توزعه البعثة المصرية على أثر نزولها في جدة من التعليمات (الصحية) التي تمنع الناس من شرب ماء زمزم وهي الماء المقدسة عند جميع المسلمين ولهم فيها اعتقاد كبير لما قاله النبي ﷺ فيها (طعام طعم وشفاء سقم لما شربت له) فأصبح الناس يخشون ان يؤدي الامر الى اغلاق بئرها بقرار طبي ويمنع الناس من شربها رسميا كما يحصل للحجاج في عودتهم الى بلادهم حيث يصرح في الجمارك بدخول المسكرات دون ان يصرح بها

ولا شك في ان حكومة الحجاز متى وافقت على نشر تلك التعليمات في بلادها لمحاربة هذا الماء ومنع شربها طبيا فقد استوجبت سخط العالم الاسلامي وأهاجت خواطر رعاياها

هذا ما اتصل بي من اسباب عدم اعتراف ملك الحجاز بالبعثة الطبية بصفتها الرسمية وما يخشاه من ورائها الخ » انتهى

المخابرات الرسمية

وقد رأيت اتماماً للفائدة أن أثبت نص المخابرات الرسمية التى تبادلتها الحكومتان الهاشمية والمصرية من أول نشأة الخلاف بينهما حتى عودة المحمل والبلاغات الرسمية الصادرة منهما بشأن هذه العودة غير ماسبق ذكره منها ليكون الناس على بيّنةٍ من حقيقة الواقع

والذى يدلنـا على ان الحكومة المصرية ارادت التعمية فى ذكر ماتريد ان تحمل الناس على تصـديقه نص بلاغها الاول عن (الهيئة الطبية المصرية التى ترافق المحمل الى الحجاز) الذي نشر فى مصر بجريدة الاهرام في عدد (٩ يوليه سنة ١٩٢٣) وهو :

بلاغ من رياسة مجلس الوزراء

عن الهيئة الطبية المصرية

التى ترافق المحمل الى الحجاز

« جرت عادة الحكومة المصرية على الدوام قياما بما يفرضه عليها واجبها نحو رعاياها الذين يقصدون بيت الله الحرام لتأدية فريضة الحج ان ترسـل مع ركب المحمل الشريف هيئة طبية تتولى العناية بصحة الحجاج ومعالجة مرضاهم

ولم يحدث فى يوم من الايام لافى عهد الحكم التركي ولا منذ نادى الحجاز باستقلاله ان لقي ارسال هذه البعثة اعتراضاً أو ملاحظة ما من

قبل اولى الامر فى الحجاز

ولكن حدث في هذا العام ان الحكومة الحجازية اعترضت على دخول البعثة الطبية الى الحجاز وعدت ارسالها تدخلا في شؤونها وماسا باستقلالها واعلنت انها لاتقبلها . فدهشت الحكومة المصرية لهذا الاعتراض الذي لاترى مبرراً له وازدادت دهشتها من الصورة التى اقترن بها الرفض وهى لاتتفق مع مايقتضيه حسن المجاملة من جانب دولة اسلامية قامت علاقاتها على الدوام مع الحكومة المصرية على المودة والصداقة

على ان الحكومة المصرية لايسعها ان تقبل هذا الاعتراض وان تترك ابناءها ورعاياها الذين يذهبون الى الاقطار المقدسة لتأدية فريضة الحج عرضة للامراض والاوباء من غير ان يلقوا من يعنى بصحتهم العناية اللازمة ويدهشها ان يعد ارسال بعثة طبية خيرية ماسا باستقلال الحجاز مع انه لم يعد كذلك فى يوم من الايام لاسيما وان اعضاء البعثة هم من المسلمين الذين يسافرون بقصد تأدية فريضة الحج فيعهد اليهم بمناسبة مرافقتهم لركب المحمل بالعناية بصحة الحجاج . ولا تزال المفاوضات جارية بين الحكومتين والمأمول ان يزول سوء التفاهم وان ينتهى الخلاف على وجه مرض فانه اذا اصرت الحكومة الحجازية على وجهة نظرها في هذه المسألة التي لاعلاقة لها بالسياسة بوجه من الوجوه كان ذلك من بواعث الاسف الشديد ولم تكن مسؤوليته على أى حال على الحكومة المصرية » انتهي

***

ونشرت جريدة القبلة بعددها الصادر في (١٦ يوليه سنة١٩٢٣) بيان المفاوضات الرسمية التي جرت بين الحكومة المصرية والحكومة الهاشمية بالنص الآتي :

عودة المحمل المصرى ومعيته

بيان رسمي

فى يوم الجمعة الموافق ٢٧ ذى القعدة من عامنا هذا رجع المحمل المصري من جدة بما معه الى السويس وهي حادثة غريبة فى بابها . ولضرورة اعلان القضية رأت الحكومة نشر هذا البيان للعموم وهو ان خارجية مصر بعثت البرقية الآتية الى خارجيتنا وهذا نصها :

« وزير الخارجية الهاشمية بمكة ،

قررت الحكومة المصرية خلافا للمتبع سنويا ارسال طبيبين واجزخانتين لاستقرار أحدهما بمكة والآخر بجدة بمحطة المحمل بالمدينتين المذكورتين وسفرهما سيكون بأول باخرة تحمل الحجاج ورجوعهما بآخر باخرة تحمل الحجاج أيضا . نرجو الموافقة على ذلك تلغرافياً .

٣ ذي القعدة سنة ١٣٤١

وزير الخارجية المصرية »

فكان الجواب عليها من نظارة خارجيتنا بما هذا نصه :

« عدد ٧٠ ـ معالي وزير الخارجية بمصر ،

ج - أرجو ان يكون البحث في الموضوع بعد ان تعيد نظارة الاوقاف المصرية الحقوق القديمة الخاصة بابناء البلاد التي بدأت بقطعها مؤخرا عنهم خلاف التعامل القديم الجاري ؟

في ٤ ذي القعدة سنة ١٣٤١

وكيل الخارجية الهاشمية »

فكان جواب خارجية مصر بما يأتي :

« وكيل الخارجية الهاشمية ،

لانرى أي علاقة بين موضوع الاوقاف الذي أشرتم اليه في تلغرافكم وبين ماسبق لنا اخطاركم من ارسال طبيبين واجزخانتين لم نتبين وجه تعليق الموافقة على مسألة انسانية محضة يراد بها تسهيل العلاج على الحجاج على حل مسألة نزاعية لاضرر من تأخير البحث فيها الى أى وقت آخر . والحكومة المصرية ترجو ان لايتجدد من جانب الحكومة الهاشمية اى اعتراض على هذه المسألة التي أعد كل شيء لتنفيذها والتى لايسع الحكومة الرجوع عنها بحال من الاحوال ؟

وزير الخارجية المصرية »

فكان جواب خارجيتنا بما يلي :

« عدد ٧١ - معالي وزير الخارجية بمصر ،

ج - لانرى محلا لبيانٍ خلاف ماسبق لمعاليكم لصراحة القضية ؟

في ٦ ذي القعدة سنة ١٣٤١

وكيل الخارجية الهاشمية »

فاجابت خارجية مصر بما يأتي :

« مكة — وكيل الخارجية الهاشمية ،

ضروري تنفيذ تعليمات الحكومة المصرية بخصوص الحجاج والمحمل بكل عناية ودقة والا فمسؤولية تعطيل أي شيء منها تكون على المتسبب لا على الحكومة المصرية م

في ٧ ذي القعدة سنة ١٣٤١ وزير الحكومة المصرية »

فكان الجواب عليها من خارجيتنا بما هذا نصه :

« معالي وزير الخارجية المصرية ،

على الرحب للحجاج والمحمل حسب قديمه أما الضميمة فنكرر ماسبق لمعاليكم عنها م في ٧ ذي القعدة سنة ١٣٤١

وكيل الخارجية الهاشمية »

وفي يوم ٢٠ ذي القعدة سنة تاريخه أتت برقية من جدة بامضاء الدكتور محمد أمين عبد الرحمن وهذا نصها :

« جلالة الملك المعظم حفظه الله ،

ارسلت مصلحة الصحة العمومية بمصر طبيبين بمهمات صحية لاقامة مستوصفين بجدة ومكة للحجاج المصريين فقط ، فنسترحم صدور أمر جلالتكم بالتصريح بنزول المهمات من رسومات جدة م

عبدكم الدكتور

محمد أمين عبد الرحمن

وعليه ابلغت الحكومة المركزية حكومة جدة بأنها تطلب من

المشار اليه أوراقه الرسمية المتضمنة صفته وأما الاطباء فقد سبق القول عنهم لحكومتهم . ثم عقبه بثلاثة أيام وصلت الباخرة التى تقل ركب المحمل الشريف الى جدة وجرى تبادل اطلاق المدافع حسب العادة وتوجه لاستقباله المأمورون المخصوصون حسب الاصول المتبعة المرعية وكان وصول الباخرة المذكورة تقريبا وقت الزوال وبمضى ساعات من رسوها شرف سعادة أمير الحج بذاته الى ثغر جدة واستقبل بكل مايليق بسعادته على الرصيف حسب العادة وتوجهت به الهيئة المستقبلة الى دائرة البلدية الكائنة على الرصيف وباستقراره بها أبلغ سعادته جلالة ولى النعم المعظم تلغونيا بوصوله وقد تفضل جلالته فحياه ورحب به وقدم له مايلزم على مائدة الغداء . وفي هاتيك الاثناء بحث سعادته بصورة أشبه بالخصوصية عن هيئة الاطباء التى سبق ذكر وصولها الى جدة وكانت المباحثة بصورة ملائمة في الموضوع وقبيل المساء توجه سعادته الى الباخرة وكلف الحكومة بجدة أن تبعث اليه السنابيك اللازمة لانزال ركب المحمل الشريف ومعيته فى صباح اليوم الثاني وفى صباح ذلك اليوم وردت مذكرة من سعادته الى قائم مقام جدة بعد اعادة السنابيك وهذا نصها :

« عدد ١٧ - مستعجل جداً

« صاحب الاقبال قائم مقام جدة . أتشرف بان أخبر سيادتكم بان التعليمات الصريحة الصادرة لي من الحكومة المصرية تقضي بالمفاوضات مع الحكومة الهاشمية في ضرورة قبول البعثتين الطبيتين

احداهما مركزها جدة والثانية مركزها « مكة المكرمة » باعتبارهما جزءاً لا يتجزأ من ركب المحمل[1] والحجاج المصريين لوقاية الصحة عند الضرورة وان الحكومة المصرية متمسكة برأيها في هذا الصدد وقد باحثت الحكومة مدة يومين أمس واليوم ولم تُجدِ المفاوضة بالاسف رأياً صريحاً بالقبول لغاية الآن وبما ان الاوامر الصريحة التي لديَّ تحتم عليَّ في حالة عدم القبول ان أعود بالمحمل وركبه الى مصر فوراً فغاية رجائي التكرم بالافادة الرسمية بالقبول من عدمه فان لم توافق الحكومة الهاشمية على قبول هذا الرجاء تكرموا بصدور أمركم لمن يلزم باعادة الجمال والخيل والبغال الخاصة بالمحمل مع رجالها الموجودين بالبر الآن وكذلك الطبيبين الدكتور سعد الدين أفندي الضبع والدكتور ابراهيم افندي عبد الله سليم والممرضين الذين معهما وجميع الطرود المحتوية على الادوية الموجودة بمخزن الجمرك الآن والامل عرض ذلك جميعه على حضرة صاحب الجلالة الهاشمية المعظم لصدور الارادة بافادتي سريعاً وتفضلوا بقبول فائق الاحترام »

مخلصكم

أمير الحج اللواء محمد صادق يحيى »

ولدى تبليغ القائم مقام بما كل هذه المذكرة لمركز الحكومة تلفونياً أجابته الحكومة تلفونياً أيضاً بما هذا نصه :

---

(١) راجع تلغراف وزير الخارجية المصرية المؤرخ في ٣ ذي القعدة سنة ١٣٤١

« سعادة أمير الحج اللواء محمد صادق باشا يحيى المحترم ،

اشعرنا ذو الاقبال قائم مقام جدة بتذكرتكم رقيمة ٢٦ الجاري ١٣٤١ الموافق ١١ يوليو سنة ١٩٢٣ الصادرة من الباخرة بما ملخصه ان حكومتنا اذا لم تقبل هيئة المستشفين وتأسيسهما بمكة وجدة لصحة الحجاج المصريين الخ والا فانكم تضطرون الى العودة بالمحمل الشريف . وعليه ومن حيث ان المسألة لم تزل ولن تزال نعتبرها تتعلق بالصلات الودية والاخلاص الوفائى علاوة على الرابطة الاسلامية بين الحكومتين تبادلت فيها دوائر الخارجية المخابرات وكان تعليق البحث في المسألة مبدئياً لتسديد نظارة الاوقاف الجليلة ما شرعت تقطعه من مرتبات الاهالي الجاري التعامل عليها منذ الاعصر المديدة . هذا من جهة ومن الاخرى بالنظر أساساً لكون هذه الرغبة النزيهة تعتبر من المشاريع التي تقتضي أولاً المذاكرة فى كل ما يتعلق بشؤونها فى المادة والمدنى طبقا للقانون والتعامل الجاري فى انشاء امثال هذه المؤسسات وبوقته يجري ايجاد ما يتقرر

وحيث ان الحكومة المصرية المفخمة بعثت تلك الهيئات دون أن تراعى مقتضى القواعد والتعامل الجارى كما ذكر في أمثال هذه الاعمال وكان هذا يمس بحقوق الحكومة الهاشمية صراحة وعليه فمن الطبيعى ان تعارض هذا المشروع مبدئيا طبقا للعرف الجارى الدولى والحقوق العمومية . وعدا هذا اذا كان من حقوق الحكومة المصرية أن تتمسك برأيها في صدد محافظة حقوق الاهالى حجاجها فلماذا لم

تحكم بالحقوق التي نطالب بها وزارة الاوقاف المصرية ؟ أليس ينبغي لها أن تحكم بعين تلك الحقوق التى نطالب بها الحكومة المصرية ؟ نكتفي بهذا البيان عن بقية مانجده صريحا من الاحتجاجات فى مذكرتكم هذه لان المسألة مؤسسة على حفظ الود والاخلاص والحقوق القديمة سيما وان الاحوال الصحية العمومية هى من فضل الله في هذه السنين جميعها على مايرام وعدا هذا وذاك لم يوجد بعونه وعنايته لا من الحجاج المصريين ولا من سواهم من احتاج الى معاملات طبية ولم يتيسر له وجودها فى واحدة من مدننا بل هاهي محطة بحرة موجود بها طبيب واجزاء طبية لمباشرة الواردين الى « مكة » والصادرين منها لتفقد أحوالهم [1]. أما الطبيب وهيئة الصحة المعتاد قدومها في كل سنة برفقة ركب المحمل الشريف وكل ما كان معتاداً قدومه معه فملء الرحب والسعة

هذه هي الحقيقة نبادر ببيانها مردفين بالصراحة التامة باننا لم نجد ولم يوجد فى الامر حقيقة تقتضي ذكر لم رجعة هيئة المحمل الشريف الى السويس فان درجات حرمة البلاد وحكومتها وتعظيمها بكل معانى التعظيم لركب المحمل وهيئته مشهودة لا ينكرها إلا من ينكر الشمس . ولاثبات هذا الحس والشعور وتمثيله مادة ها أنا متوجه في هذه الساعة على السيارة لزيارة سعادة أمير الحج وهيئته

(١) حقيقة اننا وجدنا فى بحرة طبيباً رسمياً كان يسأل الحجاج عن احوالهم الصحيه ويعرب عن استمداده لتقديم كل مساعدة لهم

المحترمة وأبلغها شعورنا المسرود بعاليه شفاها واننا على ذلك الشعور في المادة والمعنى علاوة على علمه جل شأنه بمكانة توقيراتنا وتكريماتنا لهيئته المكرمة اللهم الا ان كان هناك اسباب وغايات أخر فالامر اليه وهو جل شأنه أحكم الحاكمين واليه المرجع والمآب وتكريماتنا وتوقيراتنا نهديها حضرتكم ؟

١٧ ذي القعدة سنة ١٣٤١

« قاضي القضاة ونائب رئيس الوكلاء »

وقد حصلت عقب ذلك المقابلة فى صدر هذا الفصل بين فضيلة قاضي القضاة وأمير الحج المصرى ، على الوجه الذى أوردنا بيانه

اما الحكومة المصرية فانها نشرت بالصحف المصرية في ١٥ يوليه سنة ١٩٢٣ بلاغاً ثانياً هذا نصه :

عودة المحمل

رياسة مجلس الوزراء

بلاغ من الوزارة

اعتادت الحكومة المصرية من قديم الزمان رغبة فى المحافظة على أمر الحجاج وسلامتهم ، أن توفد مع ركب المحمل حرساً عسكريا ، وان تلحق به بعثة طبية مؤلفة من عدد من الاطباء والصيادلة والممرضين للعناية بصحة الحجاج ورجال الحرس ومعالجة من يمرض منهم . ولم يلق ذلك في أي حين من الاحيان معارضة ما من أولي

الامر في الحجاز كما ذكر ذلك في بلاغ سابق

على ان سوء الحالة الصحية العامة في هذه السنة قد دعا الى زيادة عدد أفراد البعثة الطبية لكي تتوافر لهم المقدرة على القيام بالعبء الملقى على عواتقهم . ولكن حكومة الحجاز أبت أن تسمح لافراد تلك البعثة عموماً من اطباء وصيادلة وممرضين بالنزول الى الاراضي المقدسة أو بمرافقة ركب المحمل الشريف الى بيت الله الحرام[1] مع أن اولئك الافراد ليسوا الا مسلمين سافروا الى الحجاز لتأدية فريضة الحج وعهدت اليهم بهذه المناسبة العناية بصحة الحجاج ومن يرافقهم من الجند . فلم يسع الحكومة المصرية الا أن تستطلع رأي حضرة صاحبي الفضيلة شيخ الجامع الازهر ومفتى الديار المصرية في حكم الشريعة الغراء في هذه التصرفات التي تتعلق بفرض من أقدس الفروض الدينية وفيما يجب العمل به نحو ركب المحمل فاجابا بما يأتي :

ان هذا العمل يأباه الله ورسوله وجماعة المسلمين اذ ليس لاحد كائنا من كان أن يمنع مسلما مستطيعا الحج من قيامه باداء هذا الفرض سواء كان الممنوع طبيبا أو صيدليا أو غير ذلك وأنه متى خيف الخطر على الحاج ولم تكن السلامة غالبة وكان الخوف غالبا لم يكن واجبا على هذا الركب اداء الحج في هذه الحالة لان الأمن شرط للوجوب

ونظراً لاصرار ملك الحجاز على وقوف هذا الموقف واستمراره على وضع العراقيل والعقبات في سبيل ركب الحج المصري مما يترتب

(١) هذا قول مخالف للحق مخالفة صريحة

عليه تعريض صحة الحجاج والجنود المصريين للخطر لم يسع الحكومة مع الأسف الشديد الا اصدار الامر برجوع المحمل وما معه الى الديار وهي تشهد العالم الاسلامى كله على الموقف الذي وقفه ملك الحجاز وتلقى عليه تبعة اضطرار جماعة من المسلمين الى العدول عن اداء ذلك الفرض المقدس

اسكندرية في ٢٩ القعدة ١٣٤١ — ١٤ يوليه سنة ١٩٢٣

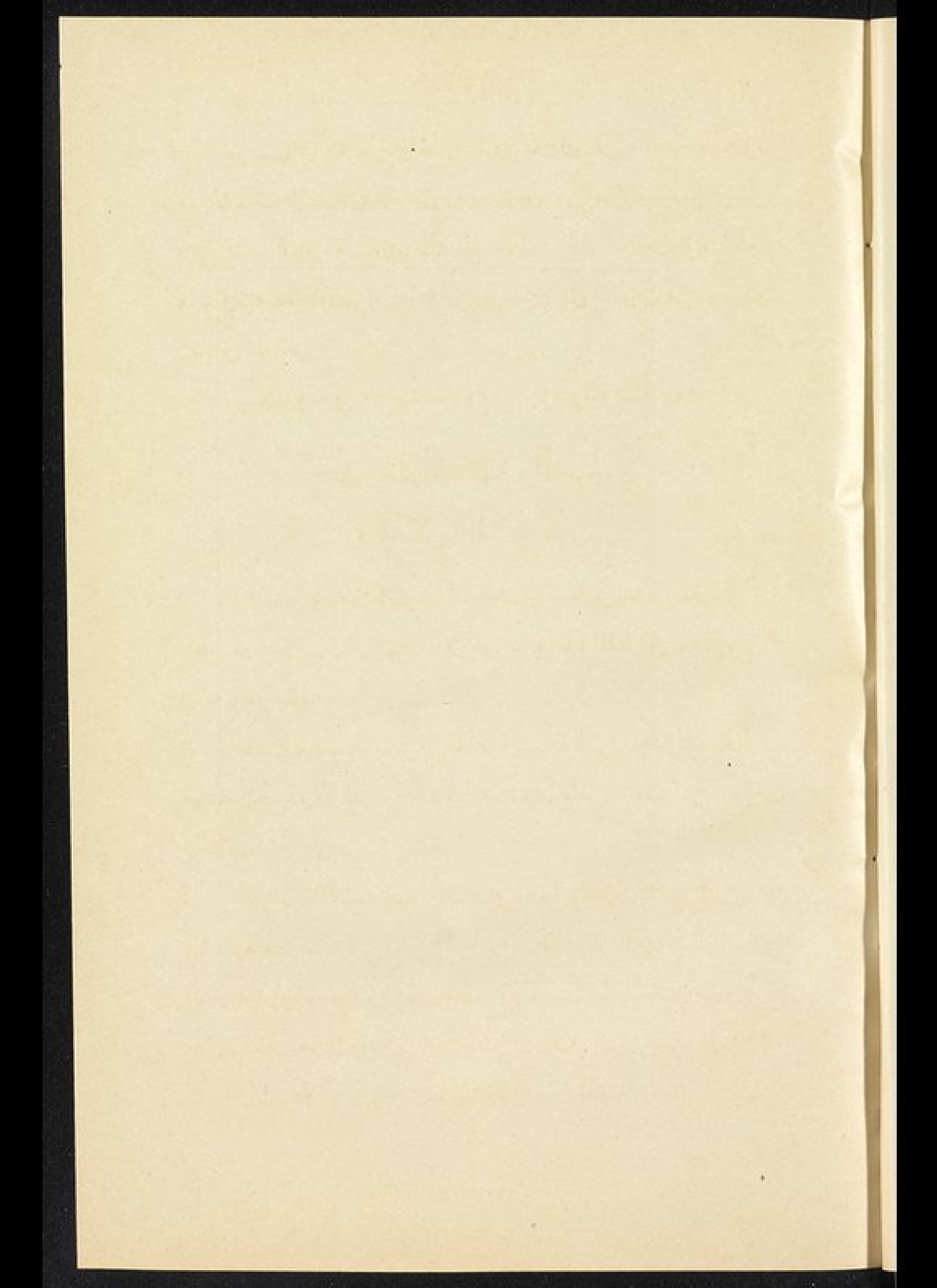
حديث المعتمد السياسي

للحكومة الهاشمية بمصر

وعلى أثر ذلك تحادث سعادة المعتمد السياسي للحكومة الهاشمية بمصر مع مكاتب (التيمس) حديثاً ورد بجريدة المقطم في عدد يوم ٢٠ يوليه وهو بنصه :

حادث مكاتب التيمس في القاهرة سيادة السيد عبد الملك الخطيب معتمد الحكومة العربية الهاشمية مستفهماً منه عما يعلمه من أسباب الخلاف

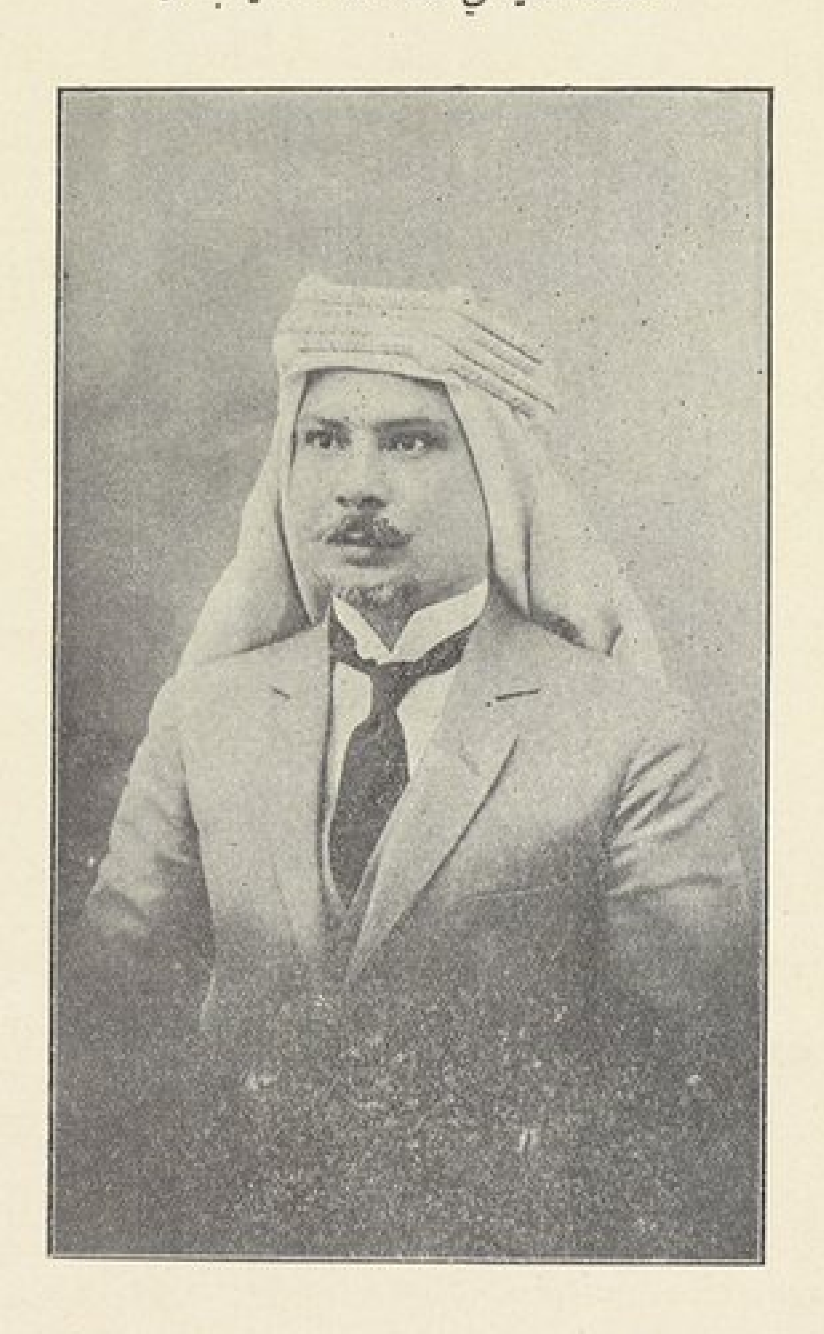
فاعرب له المعتمد عن أسفه على هذا الخلاف الذي كان في الاستطاعة اجتنابه بشيء من الصبر والحكمة ثم قال ان قطع المواصلات التلغرافية بين مصر والحجاز حال دون اتصالي بالملك فلم أقف على ما جرى أخيراً هناك ولكني اؤكد لكم أن اصل النزاع يعود الى التبليغ الذي أرسلته الحكومة المصرية قبيل سفر المحمل بان البعثة الطبية



حضرة صاحب السعادة والاقبال

السيد عبد الملك بك الخطيب

المعتمد السيامي للمملكة الهاشمية بمصر



رجل الكياسة في السيا سة والامانة للملك

مثلُ الكرامة للحجا ز سفيره (عبد الملك)

المؤلف

ستكون هذا العام خلافاً للمتبع قبلا ورسخ في ذهن الملك حسين انه بدلا من ارسال العدد المقرر من الاطباء والصيادلة الذين يرافقون المحمل عادة ويكونون جزءاً من هيئة موظفيه سترسل بعثة طبية مستقلة تماما عنه فلم يسعه الموافقة على ذلك فقد ارسلت بعثة كهذه مع حجاج الهند من عامين فاضطر الملك الى عدم السماح لها بدخول الحجاز . وما كان الباعث على ذلك شعوراً بالعداء للهند أو لمصر ولكنه كان الشعور بأنه اذا سمح لاحد البلدان بارسال بعثة طبية كهذه فلا يستطاع رفض السماح بمثلها لبلدان أو دول أخرى . ولا يخفى أن بين الحجاج رعايا لبريطانيا العظمى وفرنسا وهولندا واسبانيا وغيرها من الدول فاذا قبل الحجاز بعثة دولة أو بلاد من هذا القبيل اضطر الى قبول بعثات سائر البلدان والدول وقد يكون لبعضها صبغة غير الصبغة الطبية البحت

واني أؤكد لكم أن الملك حسيناً ما اعترض قط على أن القوة الطبية المعتادة التى ترافق المحمل ترسل هذا العام أيضاً معه . وبناء على تعليماته ابلغت هذا الخبر الى امير الحج في ٣٠ يونيو أي قبل سفر المحمل من القاهرة الى السويس . ولكن الملك حسيناً لا يسعه أن يسلم بامر قد يكون فاتحة مشاكل شئ في المستقبل

ان الملك حسينا لم يعارض في استخدام الاطباء من مصر والهند وسواهما من البلدان الاسلامية اذا كانت التدابير الطبية في الحجاز غير وافية بخدمة الحجاج ولو أن هذه التهمة لم تسند الى الحجاز من قبل

ولكن هـذه التدابير - اذا اتخذت - يجب أن تتخذها حكومة الحجاز ويكون الاطباء المذكورون تحت أمرها ولا يمكن أن تسمح دولة لدولة أخرى بانشاء مصلحة أو ادارة لها في بلاد تلك الدولة

ولا يضمر ملك الحجاز شيئاً من العداء لمصر . وسيرى الذين يحملون الحملات الشديدة فى الصحف ان حملاتهم هذه ليست فى محلها

واني شديد الأسف على وقوع هذا الخلاف ووطيد الاعتقاد بانه سيحل قريباً حلا ودياً (انتهى)

من كل ما تقدم يجد المطالع بياناً شافيا لحقيقة المسئلة من أولها الى آخرها وان البعثة الطبية لم تكن معروفة على الصفة التي وصفتها بها الحكومة المصرية في اشارتها البرقية الاولى للحكومة الهاشمية بانها (خلافا للمتبع) لافي بلاغاتها ولا على خطاب أمير الحج لقائم مقام جدة الذي يعتبر فيه (البعثتين الطبيتين) جزءاً لا يتجزأ من معية المحمل . ولاندرى ولا المنجم يدري ما ذا كان يقصد بعباراته هذه اذا كانت الحكومة الهاشمية لم ترد قبولها الا على هـذه الصفة . وماذا كانت الحكومة المصرية تريد ببعثتها أن تكون (خلافا للمتبع)

تناقض غريب يبعث على الاسى والاسف

وفي هذا القدر كفاية لمن ألقى السمع وهو شهيد لا أريد باثباته فى هذا التذكار التاريخي جزاء ولا شكوراً . ولا أخشى بسببه لوماً ولا نفوراً . ان اريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب

الفصل السابع
الحج
في الجاهلية والاسلام

(١)
اصله وتاريخه

(لفظه) الحج لفظ سامي أى انه يرجع في سائر اللغات السامية الى أصل واحد فهو (حج) في العبرانية و (حوج) في السريانية. ومعناها (دار في دائرة) ومنها في العبرانية (حوج) دائرة أو قبة السماء ويشبه (حج) فى العبرانية أيضا (عج) و(عاج) وكلاهما مبدل من (حج) بمعنى الدوران والاستدارة. اما (حج) في العربية فان معنى الدوران أو الاستدارة لا يزال ظاهراً فيما يحاكيها مثل (عَاجَ) و (حَاقَ) وكلاهما مبدل منها

فكأن الحج أصلا عند الساميين الطواف حول المزار ثم اطلق على قصد ذلك المكان مع الطواف حوله. ثم اختفى منه فى بالعربية معنى الطواف وبقي للدلالة علي القصد والقدوم والزيارة

(اصله) وقدوم الناس لزيارة الاماكن المقدسة قديم لم تخل منه امة من الامم المتمدنة وغير المتمدنة حتى في العصور السابقة لازمنة التاريخ. وربما كان أصله في القبائل القديمة ان يجتمع افراد القبيلة في اوقات معينة أو مختلفة حول قبر أو أثر مقدس لاحد اسلافهم أو معبد

لاحد آلهتهم لذكر حسناته أو للاستئناس بروحه . ولم يكن يشاركها فيه أحد من القبائل الاخرى . ولما تفرعت القبائل أصبح أفراد كل فرع غرباء عن ديار القبائل الاخرى فتاقت انفسهم الى تذكار حجهم فى بلادهم فسافروا للاجتماع حوله وفي اجتماعاتهم هناك وسيلة تلمّ شعثهم ورابطة تشدّ ازرهم . فاتسعت دائرة الحج وتشعبت اغراضه وتنوعت الطرق اليه

ولما تمدن العالم القديم أصبح لكل أمة حج أو حجوج في أوقات معينة أو مختلفة ترجع فى مجموعها الى اغراض أهمها استشارة صاحب ذلك المعبد في حرب أو سفر أو نحوها . وكلما قويت القبيلة وتعدد افرادها واتسع سلطانها كبر شأن معبدها أو حجها وأصبح مركزاً اداريا أو مؤتمراً للسياسة والحرب

فكان المصريون القدماء يأتون هيا كلهم فى احتفالات سنوية منها هيكل (ذيانة) وهيكل (ايزيس) وهيكل الشمس وغيرها

ذكر ذلك الرحالة هيرودوتس ووصف احتفالاتهم في مواضع كثيرة من تاريخه لا محل لذكر ذلك هنا

ومن ذلك الحج الاشوري والحج الفارسي والحج الفينيقى والحج اليونانى القديم والحج الروماني والحج الهندى وحج اليهود وغيرهم من الامم القديمة مما هو مثبوت في كتب تواريخهم

الحج العربي قبل الاسلام

ظهر الاسلام وكان في جزيرة العرب عدة أماكن يحج اليها الناس وهم يسمون المكان الذى يحجون اليه (الكعبة) . وأشهرها وأعظمها كعبة البيت الحرام ، وسيأتى خبرها . وأما الكعبات الاخرى فقد كانت أهمها (كعبة نجران) في بلاد اليمن . وهي حج مسيحي لعبد المسيح بن دارس من أهل نجران وكانت بشكل قبة من ثلثمائة جلد اديم . وكانوا يزعمون انه لا يأتى هذه القبة خائف الا أمن ولا جائع الا شبع ولا طالب حاجة الا قضيت له . قال الاعشى يخاطب ناقته :

فكعبة نجران حتم عليـ ـك حتى تناخي بأبوابها
نزور يزيداً وعبد المسيـ ـح وقساً هم خير اربابها

وكان لبعض قبائل الجاهلية معابد يحجون اليها تشبهاً بالكعبة . فكان لبني غطفان بيت سموه (لبس) وشبهوه بالكعبة وجعلوا يزورونه ويحجبونه ويعظمونه ويسمونه حرماً حتى غزاهم زهير بن جناب الكلبي وهدمه . وكان لبني خثعم صنم اسمه (ذو الخلصة) بنوا له بيتا سموه الكعبة . وكان أكثر القبائل اذا نصبوا تمثالاً طافوا حوله وبنوا له بيتا سموه الكعبة أيضا مثل (بيت سعيدة) الذى كان يحج اليه العرب في جبل احد و (ذي الكعبات) بيت لربيعة كانوا يطوفون به

مكة

ولا بد قبل ذكر الكعبة المشرفة من الكلام على مكة على وجه الاختصار فهي واقعة في بقعة منبسطة يحيط بها عدة جبال أشهرها جبل (ابي قبيس) في الشمال والشرق . وجبل (قعيقعان) فى الجنوب والغرب . وفى وسط مكة المسجد الحرام . وفي وسط المسجد الكعبة وحول المسجد المنازل والاسواق

ولم تعمر مكة لو لا وجود الكعبة فيها وعمارها قديم وقد مر عليها أدوار كثيرة وهي الآن عامرة وفيها اسواق تباع فيها سلع سائر الاقطار وأكثرها من سلع الهند والتجار أكثرهم من الهنود

الكعبة

وهي الكعبة المشرفة فى مكة المكرمة اعظم الكعبات التى تقدم ذكرها وأشرفها واطهرها وأقدمها ومنها تفرعت سائر معابد الجاهلية تقليداً على الارجح . لان العرب فى جاهليتهم كانوا يعظمون الكعبة تعظيما كثيراً ويقيمون فيها أصنامهم فكانوا يحجون الى مكة فيطوفون حول الكعبة . فاذا ارادوا الانصراف أخذ الرجل منهم حجراً من حجارة مكة فنحته على صورة أصنامهم وجعله فى طريقه قبلة ثم يطوف ويصلي له تشبيهاً باصنام البيت ثم جعلوا يأخذون الحجر من الحرم فيعبدونه . ذلك كان أصل عبادة العرب للحجارة في منازلهم

وللكعبة تاريخ طويل يتلخص بالاجمال في أنها قديمة جداً حتى قيل ان بانيها هو أبونا آدم عليه السلام . والمشهور انها من بناء النبي ابراهيم الخليل عليه السلام وانه أول من جعلها حجا على ملته السمحاء ثم توارثها من بعده العماليق ثم جرهم ثم أبناء اسماعيل

وجعل الناس يتقاطرون اليها من بلاد العرب وغيرها حتى التبابعة انفسهم كانوا يعظمونها وقد كساها احدهم الملاءوالوصائل وامر بتطهيرها وجعل لها مفتاحا — وكان ذلك اول عهد الكسوة — وافضى أمر الكعبة أخيراً الى قبيلة قريش فكانوا هم ولاة أمرها فى ايديهم أزمة مكة وتجارتها . وكان أكثرهم عناية بها قصي بن كلاب قبل الهجرة بنحو قرنين فبنى الكعبة وسقفها بخشب الدوم وسعف النخل . ثم أصابها سيل أو حريق فأعادوا بناءها . قال ابن خلدون : « وجمعوا النفقة لذلك من اموالهم وانكسرت سفينة بساحل جدة فاشتروا خشبها للسقف وكانت جدران البيت فوق القامة فجعلوها ثمانية عشر ذراعا وكان الباب لاصقا بالارض فجعلوه فوق القامة لئلا تدخله السيول وقصرت بهم النفقة عن اتمامه فقصروا من قواعده وتركوا منه ستة اذرع وشبراً اداروها بجدار قصير يطاف من ورائه وهو الحجر (حجر اسماعيل)

بناء المسجد

و بقيت الكعبة على هذا البناء حتى جاء الاسلام ولم يكن حولها جدار بل كان فضاء للطائفين . وظلت كذلك في أيام النبي صلى الله عليه وسلم مسجداً بغير سور الى آخر عهد أبي بكر رضي الله عنه . فلما افضت الخلافة الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه اشترى أرضاوبنى الجدار وفعل مثل ذلك أيضا عثمان بن عفان ثم عبد الله بن الزبير ثم الوليد ابن عبد الملك وهو الذي بنى الجدار بعمد الرخام . ثم زاد فيه المنصور وابنه المهدي واستقرت الزيادة على ذلك الى الآن

اما الكعبة ذاتها فظلت على بناء قريش في الجاهلية حتى حوصرت مكة وفيها عبدالله بن الزبير وارسل يزيد بن معاوية جنداً لمحاربته بقيادة الحصين بن نمير سنة ٦٤ هـ فرمى الحصين الكعبة بالنفط فاحترقت فاعاد ابن الزبير بناءها الى اوسع مما كانت عليه . فاقام جدرانها على الاساس القديم الذي ينسب الى الخليل ابرهيم عليه السلام . فادار الاساس على الخشب ونصب من فوقها الاستار حفظاً للقبلة وبعث الى صنعاء فجاء بالفضة والكلس . وسأل عن مقطع الحجارة الاول فجمع منه ما احتاج اليه ثم شرع في البناء ورفع جدرانها ٢٧ ذراعاً وجعل لها بابين لاصقين بالارض وفرشها بالرخام وصاغ لها المفاتيح وصفائح الابواب من الذهب . ثم جاء الحجاج لحصاره ايام عبد الملك بن مروان ورمى المسجد بالمنجنيقات الى ان تصدعت حيطان الكعبة . فلما ظفر

الحجاج بابن الزبير شاور عبد الملك فيما بناه ابن الزبير وما زاده فى البيت فامر بهدمه ورد البيت الى قواعد قريش ففعل ذلك سنة ٧٤ هـ ولا تزال كذلك الى اليوم

الحج في الجاهلية

كان العرب قبل الاسلام يحجون الى الكعبة في الاشهر الحرم. ويطوف بعضهم حولها عراة رجالاً ونساءً يصفرون ويصفقون. وكانوا انما يخلعون ثيابهم تفاؤلا حتى يتعروا من الذنوب. ويقولون « لانطوف فى ثياب اصبنا فيها الذنوب » أو « اننا نطوف بالبيت كما ولدتنا امهاتنا ليس علينا من حطام الدنيا شيء ». وربما اخذت المرأة ستراً تعلقه على حقويها لتتستر به من رجال قريش فقط تعظيما لحرمتهم

ولم يكن الطواف قاصراً على الاشهر الحرم. وانما كانوا وخصوصاً اهل مكة اذا مروا بالكعبة عائدين من سفر أو حرب أو عمل طافوا حولها قبل ذهوبهم الى بيوتهم. وكانوا يحلفون بها ويلجأون الى حماها ويتعلقون باستارها ولا سيما عند خروجهم الى الحرب ويقولون « اللهم انصرنا على عدونا » وقد يفعلون ذلك استشفاءً من مرض. وكانوا اذا تحالفوا على امر الصقوا اكبادهم بالكعبة وتعلقوا باستارها وتعاهدوا على ان لايخذل بعضهم بعضاً. وكانوا يحرمون ويسعون ويقفون المواقف كلها ويرمون الجمار كما هو الحال في الاسلام وسيأتي

تفصيله

وكان للكعبة حاجب يحجبها وفي يده مفتاحها وهو (السادن) وكانت سدانة الكعبة في الجاهلية في بني اسماعيل ثم انتقلت الى خزاعة اليمنيين ثم عادت الى قريش من بنى اسماعيل واولهم قصي كما تقدم ذكره . وبنى قصي دار الندوة بجانب الكعبة وما زالت فيهم السدانة حتى الاسلام

وكان من مصالح الكعبة عندهم اجازة الحج وهي ان الذي يتولاها يركب حماراً ويسير في مقدمة الحجاج ويخطبهم فيقول « اللهم اصلح بين نسائنا وعادِ بين رعائنا واجعل المال في سمحائنا . اوفوا بعهودكم واكرموا جاركم واقروا ضيفكم » أو نحو ذلك

(٢)

الحج في الاسلام

جاء الاسلام والكعبة حج الناس من اقاصي البلاد فعاد به الى شريعته الاولى ـ الى ملة ابراهيم عليه السلام اول واضع حجر الاسلام ودين التوحيد ـ بعد ان تطرقت اليه الوثنية الجاهلية فى عهد جرهم

فحج البيت في الاسلام واجب شرعاً على كل مسلم حر رشيد صحيح البنية قادر على الزاد والراحلة ونفقة عياله والمساكين الى ان يعود مع امن الطريق . وهو ركن من اركانه الخمسة . وفى القرآن المجيد نصوص صريحة بشأنه منها ماجاء بسورة الحج « واذن في الناس بالحج

يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم . ويذكروا الله في ايام معلومات على مارزقهم من بهيمة الانعام . فكلوا منها واطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » . وفي سورة البقرة وآل عمران والمائدة آيات بينات فيها تفصيل لفرائض الحج

وقبل الكلام على مناسك الحج نصف اجزاء المسجد الحرام وتاريخها اعتماداً على اوثق المصادر الاسلامية :

(الحرم) هو المسجد الحرام بما فيه وهو واقع في وسط مكة المكرمة طوله من الشرق الى الغرب ١٩٢ متراً وعرضه ١٣٢ مترا . وعليه سبع مآذن . وقد ذكر تاريخ بنائه عند الكلام على اصل الحج وتاريخه . أما اجزاؤه فهي : —

(الكعبة) وهي بناء مربع الشكل تقريباً واقع في وسط المسجد طولها اثنا عشر متراً في عشرة امتار وعشرة سنتيمترات وارتفاعها خمسة عشر مترا وجدرانها غير تامة الاتجاه الى الجهات الاربع . فالجدار الذي فيه الباب يقابل الشرق مع ميل قليل نحو الشمال وطوله ١٢ مترا يقابله من البلاد : العراق وممالك العجم وافغانستان والهند . ويليه نحو اليمين الجدار الذي يقابله حجر اسماعيل وفي اعلاه الميزاب . وهو متجه نحو الشمال مع ميل الى الغرب وطوله ١٠ امتار وهو يقابل المدينة والشام والجدار الغربي يقابل مصر والسودان أو الحبشة . والجنوبي يقابل اليمن وفيه الركن اليماني . وللكعبة اربعة اركان هي اقرب الى

الجهات الاربع من الجدران . ويسمونها غالباً بالنسبة الى البلاد التي تقابلها . فالركن المؤلف من ملتقى جدار الباب بجدار الميزاب (الى يمين الواقف تجاه باب الكعبة وهو مستقبلها بوجهه) هو الركن الشامى ويسمى العراق أو ركن حجر اسماعيل ، ويواجهه من البلاد : الجزء الاكبر من الحجاز وفارس وتركستان والعراق وشمال الهند والسند . والى يسار مستقبل باب الكعبة ركن الحجر الاسود وهو بين الشرق والشرق الجنوبي ويقابله : الجزء الجنوبى من الحجاز الى عدن ومدغشقر واوستراليا وجنوب الهند والصين وسومطرة والمصلي فى هذه البلاد قبلته الحجر الاسود . ويليه الركن اليماني بين الجنوب والجنوب الغربي وهو يواجه اليمن وجنوب افريقية واترنسفال . ثم يليه الركن الرابع وهو الركن الغربي وهو واقع بين الغرب والغرب الشمالي ويواجه روسيا وسائر اوروبا وبلاد المغرب في شمالي افريقية (تونس والجزائر ومراكش وطرابلس) ومصر الى الشلال الثاني فاذا صلى اهل مصر كانت قبلتهم هذا الركن

والكعبة مبنية من حجارة كبيرة صماء زرقاء اللون ويحيط بها من الاسفل درجة تسمى (الشاذروان)

(باب الكعبة) هو في جدارها الشرقي الشمالي وعلوه عن الارض متران وعتبته من الفضة وكذلك قفله . ومصراعاه من الساج المصفح بالفضة المذهبة صفحه السلطان سليمان القانوني العثماني سنة ٩٥٩ هـ . وللباب ستارة كبيرة خاصة به وهي مزركشة في غاية الاتقان

ترسل من مصر في جملة الكسوة ولا يمكن الوصول الى باب الكعبة الا بسلم وسلمه من خشب مصفح بالفضة

(داخل الكعبة وسطحها) في داخل الكعبة ثلاثة اعمدة من العود الماوردي قطر الواحد منها ٢٥ سنتيمتراً وهي منصوبة صفا واحداً في وسط البيت من الشمال الى الجنوب . وفي سقف البيت تحف من الجواهر الثمينة ونحوها مما كان يهديه الخلفاء والسلاطين . وفي الزاوية التي تلي حجر اسماعيل الى يمين الداخل شطرة فيها باب يصعد منه على درج الى اعلى الكعبة وهو (باب التوبة)

وسطح الكعبة مرصف بالواح المرمر مثل جدران البيت من الداخل وعلى حوافيه الاربع حلق لربط الكسوة من الخارج لتنسدل على جهاتها الاربع

(الكسوة) وهي استار الكعبة . وكان العرب في الجاهلية يكسونها بكساء . قيل ان أول من كساها به كرب بن سعد ملك حمير من ملوك اليمن . وكانوا يكسونها بالجلد أو القباطي أو نحوهما . ثم كساها عبد الملك بن مروان في أواخر القرن الاول للهجرة بالديباج وهو أول من فعل ذلك من الخلفاء . ولم يكونوا يجددونها الا عند الحاجة لا يتقيدون بزمن حتى تولى الخلافة المأمون فجعل تجديدها فرضا فى كل عام بالابريسم الاسود . وفي سنة ٧٥٠ هـ في عهد السلاطين المماليك بمصر اشترى السلطان الملك الصالح بن الناصر بن قلاوون ثلاث قرى في القليوبية أوقف ايرادها على صنع

الكسوة واشترط في الوقفية أن تصنع من الحرير الاسود سنويا وترسل من مصر . ثم خربت هذه القرى ولم يعد ايرادها يفي بالنفقة اللازمة فاشترى السلطان سليمان القانوني في أواسط القرن العاشر للهجرة سبع قرى في الشرقية وأوقفها لهذه الغاية ولا تزال هذه الكسوة تصنع في مصر وترسل الى الكعبة في المحمل في زمن الحج وبلغ ماينفق كل سنة على صنع الكسوة اربعة آلاف وخمسمائة جنيه مصري ثمن الاقمشة والمخيشات واجرة تشغيلها فقط

والكسوة عبارة عن ثماني قطع من نسيج الحرير الاسود طول كل منها بعلو الكعبة وكل قطعتين بعرض الجدار . وفي عرض كل قطعة طراز مزركش عرضه سبعون سنتمتراً مرسوم عليه بالمخيش آيات قرآنية فاذا اسدلت الكسوة حول الكعبة كان ذلك الطراز كالنطاق حولها في ارتفاع ثلثيها تقرأ من أوله عند الركن الشامي (بسم الله الرحمن الرحيم واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل الآية)

ومن توابع الكسوة أيضاً ستارة كبيرة من الاطلس الاخضر المزركش لباب الكعبة وستر لمقام ابراهيم الخليل وستار لبابه . وقد جرت العادة أن تترك هذه الكسوة في آخر العام للشيخ الشيبي فاتح البيت إلا المزركشات فانها خاصة لجلالة الملك يهدي منها الى من يشاء

وقد تكرم جلالته فاهدى في حج هذا العام قطعة منها الى اللورد

هدلي المسلم الانجليزي تذكاراً لحجه . وكذلك أهدى بعض امراء الهند وغيرهم قطعاً منها

(الميزاب) فى أعلى جدار الكعبة المقابل لحجر اسماعيل ميزاب ينصرف فيه ماء المطر فى زمن الشتاء من سطح الكعبة ، ويسمى (ميزاب الرحمة) . كان فى أول أمره من النحاس ثم صنعه السلطان سليمان القانوني من الفضة فى سنة ٩٥٩ هـ وجدده السلطان احمد سنة ١٠٢١ من الفضة وعليه نقوش من الذهب والمينا اللازورديه . وفى سنة ١٢٧٠ هـ ابدله السلطان عبد المجيد بميزاب من الذهب يقال انه وجد في قلعة أجياد بمكة فأمر بسبكه ميزاباً للكعبة وهو باق الى اليوم ويرى ظاهراً في أعلى الكعبة

(الحجر الاسود) هو حجر اسود موضوع في ركن الكعبة الى يسار الداخل في بابها وهو الركن الشرقى الجنوبى . ولهذا الحجر تاريخ طويل من اهم حوادثه ان قريشاً لما أرادوا بناء الكعبة قبيل الاسلام ووصلوا بالجدران الى علو مكان الحجر اختلفوا فيمن يرفع هذا الحجر الى مكانه لان كل قبيلة ارادت ان ترفعه هى ثم اتفقوا على تحكيم اول داخل الى الحرم يومئذ . وكان حضرة صاحب الشريعة الاسلامية الغراء ﷺ في الخامسة والثلاثين من عمره أي قبل رسالته بخمس سنين . واتفق انه كان أول داخل الحرم في ذلك اليوم فحكموه وكانوا يسمونه الامين . فاشار عليهم ان يضعوا الحجر فى ثوب تمسك كل قبيلة بطرف منه ويرفعوه الى موضعه ففعلوا فلما كان الحجر في

ارتفاع مكانه اخذه هو عليه الصلاة السلام بيديه الكريمتين ووضعه فيه ثم اتموا البناء . فانظر الى حكمته العالية فى فض نزاع بين قومه كان يكون سبباً فى اهراق الدماء بينهم لولا ما اشار به من الرأى السديد في المساواة بينهم . ولا فخر اعظم من ان خاطبه الله تعالى بقوله (انك لعلى خلق عظيم)

ومن اهم حوادث هذا الحجر الكريم ايضاً ان القرامطة الذين ظهروا في اوائل القرن الرابع للهجرة وحاربوا الخلفاء العباسيين سطوا في سنة ٣١٧ على مكة ورئيسهم ابو طاهر القرمطي ونهبوا اموال الحجاج واقتلعوا الحجر الاسود وحملوه الى (هجر) بالبحرين ليحولوا الناس عن الكعبة وخلعوا باب الكعبة ايضا واخذوا كسوتها وارتكبوا كل منكر . وبقى الحجر عندهم في هجر هذه الى سنة ٣٣٩ هـ فاعادوه بعد ان ضعف امرهم وقد حبسوه عن مكة ٢٢ سنة

وارتفاع الحجر عن الارض ستة أشبار ونصف فالطويل من الناس يتطامن لتقبيله والقصير يتطاول اليه وهو ملتصق بالركن الشرقى الجنوبى فى صندوق من الفضة وفيه فتحة مستديرة يبدو منها قطرها ٢٧ سنتمتراً . وسطح الحجر مقعر وفيه شقوق كأنها صدوع ويقال انه اصيب بدبوس على عهد القرامطة فتشقق

(الحطيم) هو الجدار المستدير حول حجر اسماعيل ويقابل جدار الكعبة الشمالى الذى فى أعلاه الميزاب . وهو بشكل نصف دائرة ارتفاعه متر وسمكه متر ونصف مرصف بالرخام . احد طرفيه يقابل

الركن الشامى والآخر يقابل الركن الغربى من الكعبة المشرفة . مسافة مابين الطرف والركن متران وخمسة وثلاثون سنتمترا

(حجر اسماعيل) والفضاء مابين جدار الكعبة الشمالى المذكور وبين الحطيم ثمانية امتار ، ويقال له حجر اسماعيل نسبة الى السيد اسماعيل بن ابراهيم جد العرب العدنانية

(المطاف) هو مايدخل مابين الكعبة والاعمدة القائمة فى دائرة حولها وحول الحطيم وتبعد عنهما ١٩ متراً . والاعمدة مزخرفة يتصل بعضها ببعض بقضبان تعلق فيها قناديل القباب وسمي المطاف لانه الحد الذي يكون الطواف من داخله ولا يصح الطواف خارج الاعمدة المذكورة لانها حدٌّ له

(مقام ابراهيم) هو في قبة امام باب الكعبة وبينهما ١٢ مترا وينسب الى الخليل ابراهيم عليه السلام . وفي داخل المقام حجر يسمى (الحجر الاسعد) قيل ان ابراهيم الخليل كان يقف عليه عند بناء الكعبة وعليه أثر قدميه

(زمزم) هي بئر قديمة العهد قيل ان أول من حفرها هاجر أم اسماعيل وقيل بل هو اسماعيل نفسه ولها تاريخ طويل . وهي واقعة جنوبى مقام ابراهيم والزاوية الشمالية منها تحاذى الحجر الاسود على بعد ١٨ متراً منه . وماء زمزم قيسونى تعقبه مرارة خفيفة . وعمق البئر ١٢ متراً . وفى سنة ١٤٥ بنى ابو جعفر المنصور على البئر قبة لا تزال باقية عليه الى اليوم

(المنبر) شمالي مقام ابراهيم وهو مصنوع من الرخام المرمر ارسله السلطان سليمان القانونى سنة ٩٥٩ وعليه نقوش محفورة تقرأ «انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم»

(المقامات الاربعة) وحول المطاف من خارج الاعمدة اربعة ابنية هي مقامات الأئمة الاربعة (الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي) بناها لامامة الصلاة على المذاهب الاربعة السلطان سليمان القانونى فى سنة ٩٧٣ على أثر بنائه المدارس الاربع حول المسجد الحرام على المذاهب الاربعة كذلك لتعليم الدين الاسلامي فيها. ومما يحسن ذكره ان المقام الحنفي وراء الكعبة (باعتبار ان الباب فى وجه الكعبة) بني في المكان الذي كانت فيه دار الندوة حيث مجتمع قريش للشورى

(صحن المسجد) معظم الصحن مبلط الا بعضه تكسوه الحصى والبعض مبلط بحجر الحصى خصوصاً تحت العقود وأرض المسجد منخفضة عن الشوارع نحو ثلاثة امتار فيصعد من ابواب المسجد اليها بسلالم

ويضاء المسجد بالنور الكهربائي وله آلة وبطارية مقامة بقربه والمصابيح الكهربائية منتشرة تحت العقود وحول المطاف

٣

مناسك الحج

(العمرة) هي دون الحج ويجوز الاعتمار في أي يوم من أيام السنة ما عدا الثامن والتاسع والعاشر من ذي الحجة فهي أيام الحج خاصة

وهي الدخول الى مكة من الميقات بالنية والاحرام لها ثم الطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة

ويصح الجمع بين العمرة والحج بنية واحدة

و (الحج) هو الركن الخامس من اركان الاسلام كما تقدم

وتنقسم مناسك الحج الى ثلاثة اقسام: فروض وواجبات وسنن مستحبة

فالفروض: الاحرام والوقوف بعرفة والطواف

والواجبات: المبيت بمزدلفة والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار والحلق أو التقصير والمبيت بمنى. ويعتبر ما بقي من مناسك الحج سنناً مستحبة

(الاحرام) هو حلق الشعر وتقليم الاظافر والاغتسال ثم الائتزار بفوطة غير مخيطة والارتداء بأخرى تدار على الجسم بحيث تستر الظهر والصدر والكتف الى العنق وترك الرأس مكشوفا ولبس نعال لا تستر الا بعض الاصابع والنية كقول: اللهم اني اريد الحج فيسره لي

والتلبية قول : « لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك . » مراراً وتكراراً

و (الميقات) من حدود الحرم وهي معينة باعتبار طرق الحج . فالقادم من المدينة المنورة يحرم من (ذي الحليفة) وهو مكان يسمونه آبار علي

والقادمون من العراق وفارس يحرمون في (ذات عرق)

وأهل اليمن والهند فى (يلملم)

وأهل الشام ومصر في (جحفة) أو (رابغ)

وأهل تهامة ونجد في (قرن)

ولا يجوز بعد نية الاحرام الحلق أو التقليم أو حك الجسم . ولا ستر الرأس الا بنحو مظلة . ولا التدهن ولا التعطر ولا قتل الصيد ولا الاشارة اليه ولا الجماع ولا الجدال . فاذا كان المحرم امرأة فتلبس ثياباً عادية بشرط النظافة والاصل في احرامها كشف وجهها الا خشية الفتنة فتستره بقطعة مخرقة

والعبرة في الاحرام المساواة في التجرد عن زخارف الدنيا فلا كبير ولا صغير ولا أمير ولا حقير . ولباس الاحرام رمز الى الزهد فى الدنيا

(دخول مكة) اذا أقبل الداخل الى مكة عليه أن يغتسل اذا تيسر والا فالوضوء . ثم يدخل من (كداء) ويمر من (الحجون) وهو اسم طريق بين جبلين ثم يهبط الى مكة وهو يقول : « اللهم ان

هذا البلد بلدك والبيت بيتك . جئت أطلب رحمتك متبعاً لامرك راضياً بقـدرك . اللهم اني أسألك مسئلة المضطر اليك المشفق من عذابك أن تستقبلني بعفوك وان تتجاوز عني برحمتك وان تدخلني الجنة »

(الطواف) يدخل المسجد من باب السلام قائلاً : « اللهم ان هذا حرمك وحرم رسولك فحرّم لحمي ودمي على النـار . اللهم آمني من عذابك يوم تبعث عبادك » . ويدخل برجله اليمنى ثم يتجه الى باب بني شيبة امام مقام ابراهيم متوجهاً الى الـكعبة وهو يقول : « بسم الله والله أكبر لا اله الا الله اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً ومهابة وتـكريماً » . ثم يقف ما بين الركن اليماني وركن الحجر الاسود وينوى طواف القدوم وهو تحية المسجد سبعة اشواط ويتوجه الى ركن الحجر الاسود ومنه يبدأ الطواف فيستلم الحجر ويقبله واضعاً يده عليه مكبراً فان لم يستطع أن يقترب منه لزحام وقف محاذياً له واستقبله برهة ثم يرفع يديه مكبراً ثم يطوف متجهاً من الشرق الى الشمال فيمر بباب البيت ويستمر في طوافه وهو مضطبع رداءه أي جاعله تحت ابطه الايمن ملقياً بطرفه على كتفه الايسر داعياً لنفسه ولاهله بالجنة والرزق أومسبحاً لله حامداً مكبراً . ثم يزور مقام ابراهيم بعد تمام الاشواط ويصلي ركعتين ويمر بزمزم ثم يخرج للسعي

(السعي بين الصفا والمروة) يخرج من باب الصفا الى الشارع ومنه الى الصفا بالجهة الاخرى من الشارع فيصعد درجاتها ويستقبل

الحرم ويكبر ويدعو ثم ينوي السعي سبعة اشواط ويسير الى المروة في شارع المسعى وطول المسافة بينهما ٤٠٥ امتار فاذا وصل المروة صعد اليها على درجاتها ثم يعود الى الصفا الى نهاية الاشواط ويهرول في كل منها عند مكان الهرولة

(عرفة) هي بقعة من الارض الفضاء في شرق مكة سطحها مستو مساحتها نحو الالف متر مربعاً وفيه تنصب خيام الحجاج وبجواره جبل صغير اسمه (جبل الرحمة) ويسميه العامة جبل عرفات طوله ٣٠٠ متر وارتفاعه ٣٠ متراً يصعد اليه على حجر مدرّج كالسلم. وأعلى هذا الجبل سطح مبلط بالحجر مساحته ٢٠ متراً مربعا وفي وسطه مصطبة طولها سبعة أمتار في سبعة وارتفاعها متر ونصف في ركنها الغربي عمود مربع ارتفاعه أربعة أمتار وعرضه متران. وفي أسفل الجبل قناة عين زبيدة

يقف الحجاج جميعاً في عرفة في اليوم التاسع من ذي الحجة وهو يوم الدعاء بالمغفرة والتسبيح الكثير والصلاة الخاشعة حتى اذا أذن لصلاة العصر وقفوا للتلبية «لبيك اللهم لبيك ..» ويخطب الخطيب على المصطبة فوق جبل الرحمة ويدعو للمسلمين ويلبي فيلبي الناس معه فاذا غربت الشمس أفاضوا من عرفات للمبيت بمزدلفة

(المزدلفة) أرض متسعة فيها مكان عليه جداران بينهما ٦٠ متراً وارتفاعهما أربعة أمتار ويسمى هذا المكان (المشعر الحرام) يذكر فيه اسم الله كثيراً. ومن هناك تؤخذ الحصى لرمي الجمار في منى

(منى) وفي طريق مكة من عرفة المكان المسمى منى وهي بلدة مستطيلة فيها نحو المائتين من المنازل قد لا تسكن الا في أيام العيد يأتيها الحجاج بعد المبيت بمزدلفة ولو بعد نصف الليل بقليل ليصبحوا في منى

وعلى يسار الداخل الى منى (من مكة) ركن يسمى (جمرة العقبة) يرجم في صباح العيد ويليه بعد ١٥٠ متراً بناء اسمه الجمرة الثانية ثم من بعده الجمرة الثالثة

ولرمي الجمار بمنى تاريخ اختلفوا فيه أشهر رواياته أن الخليل ابراهيم عليه السلام رجم أبليس اللعين في هذه الأماكن الثلاثة وهو متوجه لذبح اسماعيل عند الجبل المعروف في منى وكان أبليس فيها يحدثه حديث الشك في صحة الرؤيا ليحمله على مخالفة أوامر الله تعالى

وفي منى آثار جليلة كثيرة منها مسجد الخيف والغار الذي كان يتعبد فيه الرسول ﷺ ونزلت عليه سورة المرسلات وسمي الغار باسمها تشريفاً . ومغارة ابراهيم فى الجبل الشمالي الشرقى التي قيل انه سكن فيها مع هاجر . ثم فيه أيضاً المكان الذي شرع الخليل في ذبح اسماعيل فيه

(العيد فى منى) يتبادل الحجاج المسلمون التهاني فى صباح اليوم العاشر من ذي الحجة في منى ثم يتوجهون لرمي جمرة العقبة وهي سبع حصوات صغيرات يكبر الرامي وهو يرميها . وتكون مغسولة محفوظة

ثم يخرج في هذا اليوم كثير من الحجاج الى مكة والمسافه بينها وبين منى مسير ساعة على الحمير أو البغال وساعتين على البعير ـ لطواف الافاضة والسعي بين الصفا والمروة والحلق والتحلل من الاحرام ثم يعودون قبيل العصر الى منى للمبيت فيها فيصبحون لرمى الجمرات الثانية ثم الثالثة في اليوم الثالث للعودة الى مكة للتأهب للسفر

فاذا أراد الحاج الخروج من مكة المكرمة طاف طواف الوداع بغير سعي ثم يأتى باب الكعبة ويدعو الله كثيراً ثم يتوجه الى الحجر الأسود فيقبله ثم يصلي ويدعو مجتهداً ويرجع القهقرى وهو خارج من المسجد

(٤)

١ ـ الحج والخلفاء الراشدون

لما كان كرسي الخلافة في المدينة المنورة كان الخلفاء الراشدون يجعلون الخروج فى موسم الحج فرضاً في كل سنة . فيخرج الخليفة ومعه الصحابة وسائر الناس ، واشهر تلك المواسم حج عثمان بن عفان سنة ٢٩ هـ . فانه ضرب فسطاطه فى منى واتم الصلاة فيها وفى عرفة فانتقده الناس . لانه لم يقصرها كالعادة . وكان ذلك أول عهد الناس بالنقد فى الاسلام

ولما قتل عثمان وبويع علي كرم الله وجهه وجعل مقره الكوفة واشتغل بالحروب والفتن اناب عنه من يحج بالناس فى الموسم . فاناب

سنة ٣٧ هـ عبيد الله بن عباس عامله على اليمن واناب عنه فى سنة تالية القثم بن عباس عامله على مكة

وقتل علي سنة ٤٠ هـ قبل موسم الحج . وبويع ابنه الحسن والمسلمون مختلفون فى طاعته أو طاعة معاوية وكان حزب معاوية اقوى فاظهر المغيرة بن شعبة وهو أحد دهاة العرب ان معاوية أمره ان يحج بالناس وفي السنة التالية تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية وقدجعل هذا مقره فى دمشق وقلوب أهل الحجاز ليست معه . فكان يعهد بولاية الحج أو إمارته الى بعض خاصته وقواده فتولاها أولاً اخوه عتبة سنة ٤١ ثم اخوه عنبسة سنة ٤٢ ثم مروان بن الحكم سنة ٤٣ وكان عامله على المدينة

٢ - الحج في الدولة الاموية

وفى سنة ٤٤ هـ حج معاوية فبنى له مروان فى المدينة مقصورة فى الجامع وهى أول ما بنى فيه وهي حجرة فى القبلة يصلي فيها الخليفة . وكان معاوية قد احدثها فى مسجد الشام بعد ان كاد أحد الخوارج الثلاثة المشهورين يفتك به كما فتك أولهم بعلي كرم الله وجهه فى سنة ٤٠ وكاد ثالثهم يصيب عمرو بن العاص فى مصر فى فتنة الخلافة . ثم جعل معاوية أمر الحج الى عماله وأهله فتولاه مروان بن الحكم سنة ٤٥ وعتبة بن ابى سفيان سنتي ٤٦ و٤٧ ثم مروان ثانية سنة ٤٨ . وفى سنة ٥٠ عاد معاوية فحج مرة أخرى ثم لم يعد يحج بنفسه . وكان يعهد به

غالباً الى عامله بالمدينة لقربه من مكة

ولما توفي معاوية سنة ٦٠ هـ انتقلت الخلافة الى ابنه يزيد فلم يجمع المسلمون على بيعته وقام غير واحد يطلب الخلافة لنفسه اشهرهم الحسين ابن علي رضي الله عنه وعبدالله بن الزبير . ثم قتل الحسين وظل عبدالله فى الحجاز وقد التفت الاحزاب حوله . فلم يحج يزيد وهو خليفة خوفا على نفسه ولكنه حج مرة في عهد أبيه سنة ٥١ . وفى زمن خلافته كان يعهد الى عامل المدينة أو مكة ان يحج بالناس

ثم اضطرب حبل الملك فى بني أمية بعد موت يزيد سنة ٦٤ لاختلافهم فيمن يبايعون منهم وقامت الفتن فى الشام بسبب ذلك . ثم افضت الخلافة الى عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ وكان عبدالله بن الزبير قد عظم أمره فى الحجاز ولجأ الى الكعبة فأصبح هو يتولى الحج بالناس . تولاه خمس سنين من ٦٣ الى ٦٧ هـ واستفحل فى اثناء ذلك أمر غيره من طلاب الخلافة أو السيادة وادعى كل منهم الحق لنفسه ان يحج بالناس فاجتمع فى سنة ٦٨ اربعة الوية فى موسم الحج وهي لواء ابن الزبير ولواء بني امية ولواء ابن الحنفيه (ابن علي) ولواء نجدة الحروري كبير الخوارج اجتمعوا هناك ولم تجر بينهم حرب ولا فتنة فلما انقضى الحج عادوا الى التنازع

ثم حاصر الحجاج بن يوسف عبدالله بن الزبير فى مكة حتى قتله فى سنة ٧٣ هـ وتولى هو امارة الحج فى تلك السنة والتي بعدها . واستتب الامر لعبد الملك بن مروان ولم يبق من ينازعه الا الخوارج

فتولى بنفسه الحج سنة ٧٥ . فالتقى فى مكة بشبيب الخارجى وهمّ شبيب ان يفتك بعبد الملك ولكنه لم يستطع . وخشي عبد الملك ان يعود هذا أو غيره الى مثلها فكفّ عن الحج وعهد به الى عامله على المدينة هشام بن اسماعيل

وتوفي عبد الملك سنة ٨٦ وخلفه ابنه الوليد فقضى بضع سنين يولي موسم الحج ابن عمه عمر بن عبد العزيز وكان عامله على المدينة وتولى الوليد الحج بنفسه فى سنة ٩١ هـ وفرق اموالا وآنية من الذهب والفضة هدايا وحسنات . ثم عاد الموسم الى عمر بن عبد العزيز وغيره من ولاة المدينة وغيرهم وفى جملتهم ابنه كثير . وفى سنة ٩٦ هـ افضت الخلافة الى سليمان بن عبد الملك فحج بالناس فى السنة التالية (٩٧) وخلفه عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ ثم يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٠١ هـ وانقضت أيامه في سنة ١٠٥ هـ ولم يتول الحج واحد منهما فلما أفضت الخلافة الى هشام بن عبد الملك حج بالناس سنة ١٠٦ وقضى على كرسي الخلافة نحو عشرين سنة لم يحج فيها غير تلك السنة وكان يتولى الحج في أيامه عامل المدينة وعهد بها مرة الى ابنه سليمان ومرة اخرى الى الوليد بن يزيد بن عبد الملك وأخرى الى ابنه مسلمة وثالثة الى ابنه يزيد وانتهت الخلافة في سنة ١٢٥ هـ الى الوليد بن يزيد ثم الى ابراهيم اخيه ثم الى مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية ولم يحج أحد منهم وكان ينوب عنهم في الحج عمالهم على المدينة غالباً

٣ - الحج في الدولة العباسية

صارت الخلافة الى العباسيين سنة ١٣٢ هـ فاشتغل السفاح أول خلفائها عن الحج بنفسه وعهد به الى بعض أهله ولكنه عنى بتسهيل الطريق الى الحرمين فضرب النار من الكوفة الى مكة والاميال. وفي سنة وفاته عهد بالحج لاخيه المنصور فمات السفاح والمنصور في مكة فأتم الحج ورجع وتولى هو الخلافة سنة ١٣٦هـ فصار يعهد بامارة الحج الى بعض أهله من بني العباس ولم يشترط ان يكونوا عمالاً على المدينة ثم عاد فتولى هو الحج بنفسه سنة ١٤٠ هـ وأحرم من ربوع الحيرة. ولما قضى حجه زار قبر الرسول ثم بيت المقدس. ثم حج سنتين متواليتين بعدها (١٤٧ و١٤٨) وسنة أخرى بعدها هي سنة ١٥٢ هـ. ثم حج حجته الاخيرة سنة ١٥٨ هـ فتوفي في طريقه الى مكة. وكانت مدة خلافته ٢٢ سنة حج فيها خمس مرات وعهد في باقيها بالحج الى بعض أهله وفي جملتهم ابنه المهدي

حج المهدى وعطاياه

ولما وافت الخلافة الى المهدي سنة ١٥٨ هـ وجه عنايته الى الحرمين الشريفين فحج بالناس سنة ١٦٠ هـ واستصحب جماعة من أهل بيته وفيهم ابنه الرشيد. فلما وصل الى مكة نزع كسوة الكعبة وكساها كسوة جديدة وقسم مالا كثيراً في الناس. بلغ ما انفقه في حجته هذه مبلغاً كبيراً. منها ثلاثون الف الف درهم أتى بها من العراق وثلاثمائة

الف دينار جاءته من مصر ومائتان وخمسون الف دينار من اليمن ومجموع ذلك بالدراهم نحو (اربعين مليون درهم) وهي تساوي بنقود اليوم نحو (ثلاثين مليون فرنك) أي نحو (مليونين من الجنيهات المصرية) وفرق فوق هـذا المال كله مائة وخمسين الف ثوب ووسع مسجـد المدينة . وأخذ معه خمسمائة من الانصار يكونون حرساً له بالعراق واقطعهم الاقطاعات وأجرى عليهم الارزاق وهو أول خليفةُ حمل اليه (الثلج) في مكة . وبعد بضع سنين أمر بتسيير البريد بين مكة والمدينة واليمن ببغال وابل ولم يكن ثمة بريد منظم من قبل

وأراد المهدي عليه رضوان الله ان يحج ثانية سنة ١٦٤ هـ فبلغ الى العقبة واصابته الحمى فعاد وكلف أخاه صالحاً ان يحج بالناس . وكان تعهد بامارة الحج في سائر سني خلافته الى بعض أهله منهم خاله يزيد ابن منصور وابنه موسى الهادي وغيرهما

حج الرشيد وكرمه وتقواه

وتوفي المهدي سنة ١٦٩ هـ فخلفه ابنه الهادي ولم يطل زمن خلافته فخلفه اخوه الرشيد سنة ١٧٠ هـ وتولى الحج هذه السنة بنفسه وفرق في الحرمين الشريفين عطاء كثيراً . وكان أكثر الخلفاء عناية بأمر الحج فحج في زمن خلافته مراراً منها سنة ١٧٣ : أحرم من بغداد كرسي ملكه وهو نهاية في الورع

وحج في سنتي ١٧٧ و١٧٩ وذكروا انه مشى على قدميه في هذه

الحجة من مكة الى منى ثم الى عرفات وشهد المشاعر كلها ماشياً .
وحج أيضاً سنتي ١٨٣ و١٨٦ وعلق في حجته هذه كتابي ولي عهده في الكعبة . وجدد العهود على المأمون بالوفاء لاخيه الامين وأعطى الناس ثلاثة أعطية عنه وعن أبنيه وبلغ ما انفقه في هذه الحجة (مليوناً وخمسين الف دينار) ثم حج حجته الاخيرة سنة ١٨٨ هـ وفرق فيها مالا كثيراً

وحجت السيدة زبيدة زوجه ام الامين وأمرت بحفر عين زبيدة ومدتها الى مكة وأنفقت عليها مالاً طائلا ، وقصتها مشهورة

ولي في عين زبيدة قصيدة نظمتها لمناسبة الحث على الاكتتاب بالمال لاصلاح هذه العين التي تحتاج لبقائها صالحة الى مال كثير قلت : —

عين زبيدة

هلمَّ الى حيث العلى والمفاخرُ ... وسيروا على درب الفلاح وثابروا
هلمَّ الى اصلاحِ (عين زبيدة) ... تنادي به (ام القرى) وتجاهر
هي العين اجرتها (زبيدة) اذرأت ... بلاوردها تردى الحجيج الهواجر
فاعظم بها من حرّة ذات همةٍ ... لها كل قلب بالمحامد ذاكر
اذا كان هذا شأن من طلب العلى ... فما النوم في البيداء والركب سائر ؟

* * *

نموت ونحيي في السفاسف والهوى ... ونخبط في ليل سداه الدياجر

ونعرض عن شأو العظائم والعلى ۞ وتشغلنا في الحادثات الصغائر
اذا ما دعانا المفاخر ناهض ۞ فما ايسر الايجاب بالقول (حاضر)
فان جاء وقت الجد فالاول الذى ۞ اجاب بقول فهو بالفعل آخر

* * *

ألا هيئوا أسباب نيل المنى فلا ۞ ينال المنى من في المكارم صاغر
ومدّوا الى اصلاح عين زبيدة ۞ يد البذل اذ منها تتم العمائر
هناك غدا جمع الحجيج مغلغلا ۞ ليعمر بيت الله في الحج عامر
هناك مقام الدين مرتفع الذرى ۞ لتكمل فيه بالاداء الشعائر
هناك يؤدى واجب النسك واتق ۞ وركن به الرحمن في الدين آمر
فطوبى لمن يسعى وهرول وارتقى ۞ الى صالح الاعمال وهو يؤازر
له في نعيم الخلد أعذب مورد ۞ من الكوثر الاشهى ونعم المعاقر
وعند اله العرش فهو مقرّب ۞ سعيد بفضل الله لله شاكر

وكان موكب الرشيد فى خروجه للحج عظيما لامثيل له . فاذا حج حج معه مئة من الفقهاء وابناؤهم . فان لم يستطع الخروج للحج بنفسه أحج ثلثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الطاهرة

وحجت فى ايامه ايضاً امه (الخيزران) فاقامت فى مكة اشهراً تتصدق بالاموال . وكان اذا لم يحج بنفسه ولى الموسم بعض بني العباس سنة من سبقه من الخلفاء

وخلفه الامين ثم المأمون ولم يخرج احدهما للحج بنفسه فكان يحج عنهما بعض بني العباس خصوصا داوود بن عيسى والعباس بن

موسى وعبيد الله بن الحسين وابو عيسى بن الرشيد وصالح بن الرشيد

وحج المعتصم ايضا وهو ولي عهد فى ايام اخيه المأمون سنة ٢٠٠ هـ ولما افضت اليه الخلافة لم يخرج للحج ولا خرج الواثق من بعده

وغلب على الخلفاء العباسيين من ذلك الحين الحجر فى قصورهم فلم يخرجوا للحج ولا لغيره . وكان يقوم مقامهم العمال او بعض الامراء او ابناء الخلفاء

٤ - حج الملوك المسلمين

واما ماعدا الدولة العباسية فان الامويين فى الاندلس لم يكونوا يجسرون على القدوم الى الحجاز خوفا من العباسيين حتى منعوا رعاياهم من الحج مخافة ان يقع احد منهم فى ايديهم الى ان صارت الاندلس الى ملوك الطوائف

ويقال مثل ذلك فى الدولة الفاطمية بمصر فقد كان ملوكها يتجنبون الخروج الى الحجاز الا رعاياهم فقد كانوا يخرجون للحج ويحتفل الفاطميون بخروجهم وقدومهم وكان لهم في اعياد الاضاحي احتفالات كبرى

على ان الطريق توعرت في اثناء ذلك وصار السفر فيها خطراً لاستفحال امر القرامطة الذين وثبوا على الكعبة سنة ٣١٧ هـ واقتلعوا الحجر الاسود واخذوا الكسوة الشريفة فاقتسموها بينهم وتعطل الحج مدة

ولما انتهت حكومة مصر الى الايوبيين فالسلاطين المماليك وهم على بيعة الخلفاء العباسيين لم يكن عليهم بأس في الخروج الى الحج واشهر من حج منهم الملك الظاهر بيبرس فانه زار الحرمين الشريفين وغير طريق الحج المصرى . وكان في صحراء عيذاب فكانوا يركبون النيل من ساحل الفسطاط الى قوص بمصر العليا ثم يركبون الابل منها فيقطعون صحراء عيذاب عرضاً الى البحر الاحمر فيبحرون الى جدة وهكذا فى عودتهم الى مصر

وكانت قوافل التجار من الهند واليمن والحبشة تأتي الى مصر من هذا الطراق ايضا . وكانت صحراء عيذاب اذ ذاك أمينة المسلك . وبقي طريق الحج هذا الى السنة التي حج فيها السلطان الملك الظاهر الذي كسا الكعبة وصنع لها مفتاحاً وصار طريق الحج براً من ذلك الحين

اما العائلة المحمدية العلوية فاول من وطيء منها ارض الحجاز طوسون بن محمد على خرج لمحاربة الوهابيين ثم اقتضت الحال خروج اخيه ابراهيم لذلك . وخرج محمد علي باشا راس العائلة الخديوية بنفسه سنة ١٢٢٨ فأتى جده ثم مكة فأدى فريضة الحج واتم مهمته في محاربة الوهابيين فهو اول حاج من الخديويين . ثم حج بعده محمد سعيد باشا سنة ١٢٧٧ فبرح القاهرة في ١١ رجب الى السويس ومنها الى الحرمين وعاد فى ١٧ شعبان من السنة التالية الى السويس بطريق البر الى العقبة من سيناء الى صحاري الحجاز على شواطيء البحر الاحمر

ثم حج الخديوى عباس باشا الثاني فبرح القاهرة في ١٢ ديسمبر

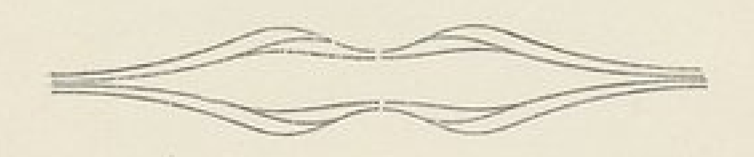
سنة ١٩٠٩ وعاد اليها في ٢٥ يناير سنة ١٩١٠ بطريق السويس الى جدة بحراً

ولم يحج احد من خلفاء آل عثمان ولكنهم كانوا يرسلون الهدايا الثمينة للحرمين الشريفين وخير من اعتنى منهم بعمارة المسجد الحرام السلطان سليمان القانوني

واليوم باستقلال المملكة الحجازية صار الذي يخرج على راس الحج من مكة الى عرفة ومنى هو صاحب الجلالة الملك حسين بن علي سيد العرب وملك الحجاز من بني هاشم ولجلالته مواكب جليلة الطلعة مهيبة الركب يوم عرفة ويوم العيد في منى حيث يستعرض الجيوش العربية رجالا وفرسانا ومدفعية امام سرادقه الفخم الذي تنتشر في جواره سرادقات رجال الدولة فتتألف منها مجموعة عربية مهيبة مقامة على مرتفع في جنوب منى ثم تنحدر من بعده آلاف الخيام المتلاصقة صفوفاً طويلة تجمع مختلف الاجناس من المسلمين في هذا اليوم حيث يخرجون جماعات كثيرة لشهود حفلة الاستعراض وهي من افخم الاحتفالات الملوكية وخصوصاً بملعب الفرسان العرب الذين يلبسون افخر لباسهم ويتمنطقون بسيوفهم الذهبية وهم من اشراف العرب وامرائهم فيتسابقون على خيولهم العربية الجياد مثنى وثلاث ورباع . ثم تعزف الموسيقات العسكرية العربية بانغامها المطربة حتى ينتهي الاحتفال العظيم . وفيه يستقبل جلالة الملك المهنئين بالعيد من رجال الدولة العربية والحجاج المسلمين من جميع

الاجناس

ولجلالة الملك أيضاً موكب رسمي عظيم في عودته من مكة للمبيت بمنى عصر أيام العيد فيدخلها راكباً جواداً كريماً يحف به الوزراء والامراء وكبار رجال الحكومة الهاشمية ورؤساء العشائر الحجازية فرساناً وعلى الابل جماعات مختلفة يمرون بالتتابع بطبولهم وزمورهم، فيتألف منهم موكب جليل يصور لنا صورة تاريخية من مجد العرب القديم وجلالة الملك يتقدم الجميع ممتطياً جواده الاشهب الكريم ومن ورائه صاحب المظله يرفعها على راس جلالته وهي مظلة كبيرة بديعة الشكل على الطراز الهندي الجميل ويتبعه على جواده سمو الامير علي ولي عهده ورئيس الوكلاء فالوكلاء وكبار الموظفين وغيرهم حتى يصلوا الى الساحة الكبرى وهى ساحة الاستعراض أمام السرادقات المنصوبة فيترجلون ويدخل جلالة الملك الى سرادقه الفخيم وفى أثره وزراؤه وكبار الموظفين حتى إذا انتهت السهرة انصرفوا إلى خيامهم. فاذا كان اليوم الثالث عاد جلالته الى مكة المكرمة فى موكبه الى القصر العالي الشامخ



الفصل الثامن

عود الى مكة المكرمة

---

١ – الآثار المباركة

قصدت فيمن قصد لزيارة الآثار المباركة فى أنحاء مكة المكرمة في صباح يوم من أيام الاقامة فيها قبل يوم عرفة . وهي في اماكن مختلفة منها (المعلى) وهي مقابر مكة خارج بابها الشرقي فمررنا من داخل المقبرة على قبر عبد الله بن الزبير ويقابله قبر امه السيدة اسماء بنت ابي بكر الصديق التي كانت أعظم مشجع ومحرض لولدها عبدالله بن الزبير في مواصلة القتال وهو محاصر بمكة في أيام يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان

وقفتُ على قبريهما وقتاً غير قصير استرجع ذكريات النشأة الاسلامية فى تلك الايام الخالية وما صادفها من كبوات كادت تذهب بروعة جمالها لولا ان ثبتها الله تعالى بقدرته البالغة وكان حقا على الله نصر المؤمنين

وتقدمت مع الزائرين الى ان بلغنا الى ضريح ام المؤمنين السيدة خديجة الكبرى زوج النبي ﷺ ويقابله في جنوبه قبر السيدة آمنة بنت وهب أم الرسول الامين عليه الصلاة والسلام ، مبعث النور المحمدي الذي انتشر على العالم الانساني من هذا البلد الأمين . فحا

ظلام الجهل به والكفران . وساد نور العلم والايمان

هنا وتحت اقدام الزائرين منا تراب طاهر يحمل في ذراته بقية من اجداث كرام الصحابة والتابعين وعظماء الاسلام السالفين

خفف الوطء ما أظن أديم الا   أرض الا من هذه الاجساد

على خطوات من هذين القبرين الطاهرين تقدمنا الى ضريحي عبد المطلب بن هاشم جدّ الرسول عليه الصلاة والسلام وأبي طالب عمه ، وهما اللذان تربى في أحضانهما ﷺ واحداً بعد واحد حتى بلغ أشدّه وظهر أمره

وهناك غير ذلك من الاضرحة ضريح السيدة زوجة ساكن الجنان محمد علي باشا وقد ماتت بمكة في حجها سنة ١٢٦٦ ودفنت في هذا المكان الطاهر

قصدنا بعد ذلك الى البيت الذي ولد فيه سيدنا علي بن طالب كرم الله وجهه وهو مكان ارتفعت حوله الارض على مر الايام فاصبح منخفضاً عن الطريق بنحو المترين نزلنا اليه بسلم من الحجر الى باب يفتح على فناء واسع فى جداره الايمن ترتفع قبة عالية دخلتُ من بابها الى مقصورة خشبية فى وسطها قطعة من الرخام مقعرة تعين المكان الذي ولد فيه رابع الخلفاء الراشدين وابن عم سيد المرسلين وأول غلام فى المسلمين

ثم توجهنا من بعده الى بقعة مطهرة فى مكة المكرمة . حيث ولد النبي الاكرم ﷺ وهو مكان منخفض عن مستوى الارض ايضاً

لارتفاعها على تقادم الزمن وبقائه على أصيل الدمن . مدخله على سلم من الحجر الى نحو متر ونصف متر يصل الى باب يفتح على الشمال الى فناء طويل . في جداره الغربي باب ينتهي الى قبة مشيدة مهيبة ، في وسطها ببعض الميل الى الغرب مقصورة فيحاء بديعة الصنعة زكية الشذى دخلت من بابها ونزلت على قطعة من الرخام المقمر فهي المكان الذي ولدفيه رسول الرحمة للعالمين . صلوات الله وتسليماته عليه الى يوم الدين

يارسول الهدى عليك السلام ما توالت بذكرك الايام
يا أمين الرحمن ياخير خلق الله يامن بك ازدهى الاسلام
أنت ذو النشأة العظيمة يوماً جئتنا بالهدى وأنت الامامُ
فلك الله يوم قمتَ بأمر الله والناس فى الظلام نيامُ
ولك المجد يوم أشرقت نوراً فأضاء الاكوانَ هذا المقام
وعليك الصلاة ما دام فيها ذلك النور مشرقاً والسلام

خرجنا من هذا المقام الجليل وفى النفس أثر رهيب من ذكرى هذا الأثر المهيب الى بيت ام المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد زوج الرسول الامين ﷺ حيث مولد بضعته البتول السيدة فاطمة الزهراء ام السبطين الكريمين الحسن والحسين ومنها توالى النسل الطاهر الشريف من آل بيت النبوة الطاهرين • عليهم رضوان الله وبركاته الى يوم الدين

هذه الدار تعلو عليها الطريق أيضاً فنزلنا اليها بسلم الى دهليز على يسارها نحو مصطبة ترتفع عن الارض بنحو ثلث المتر وعلى يمينها باب

صعدنا منه الى ممر عرضه نحو مترين فيه ثلاثة ابواب : واحد على اليسار ينتهي بغرفة صغيرة قيل لنا انها المكان الذى كان يتعبد فيه رسول الله ﷺ وينزل عليه الوحي فيها . وعلى اليمين من هذا الباب مكان منخفض قالوا انه مكان وضوئه عليه الصلاة والسلام . وباب فى الصدر ينتهي الى مكان فسيح معروف بأنه مسكن الرسول مع زوجه خديجة رضي الله عنها . وباب الى اليمين يصل بنا الى غرفة مستطيلة ترتفع في وسطها مقصورة صغيرة على المكان الذي ولدت فيه السيدة فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنها . وفى جدار هذه الغرفة الشرقي رف وضعت عليه قطعة من رحى قديمة قيل انها رحى السيدة فاطمة

من هذه الدار البسيطة الصغيرة امتلأت الدنيا نوراً وجلالا وعزاً وكمالا بخروج النبي المصطفى ﷺ فى هجرته لنشر دعوته

ما أعظم ذكرى هذا الأثر الجليل ، ذكرى المجد الاثيل . والفضل الكبير ، والعلم الغزير . ذكرى الشرف التليد ، والنصر والتأييد

ثم تنقلنا الى الآثار الاخرى المتفرقة في أنحاء مكة المكرمة منها دار الارقم المخزومي الشهيرة بدار الخيزران . وهي الدار التي كانت مخبأ رسول الله ﷺ ومن آمن معه في صدر بعثته فكانوا يأتونها للصلاة فيها سراً . ومنها المكان الذي بأعلى جبل ابي قبيس ويقال ان فيه وقعت معجزة انشقاق القمر وغير ذلك من الآثار الاسلامية . وقد اقيم فى كل مكان منها مصلى للناس

٢ — مشاهدات
في أم القرى

قضينا أياماً معدودات بين ظهراني أهل مكة الكرام فامكنني ان اتعرف الى غير واحد منهم وفيهم التاجر والعالم والموظف وناهيك بعلية القوم منهم فانهم أهل فضل وظرف وسماحة وكرم . وهي اخلاق آبائهم العرب . فطالما نعمنا بمعاشرتهم في سهراتهم الليلية البهجة . فنقضي الساعات القصيرة من ليالي الصيف الهادئة متكئين على الكراسي المجدولة الطويلة في ساحة السيد أحمد السقاف رئيس الديوان الهاشمي ، وهو ذلك الكريم ، الذي لا انسى ما غمرني به من لطف سجاياه العالية وكرم أخلاقه السامية . وأدبه الغزير وظرفه الكثير

كانت ساحته الفسيحة محطاً رحال أهل الفضل والادب من أهل مكة وكبرائها في كل ليلة فيجلسون على المقاعد المتفرقة في شبه دائرة واسعة . وغالبهم من غواة (النارجيلة) . لم أر أنخر ولا أشهى من التي كان السيد السقاف يقدمها لزائريه الكثيرين . ولديه منها عدد كبير . فما برحت مكة الا وأنا واحد من كبار غواتها . وكنت كثير التردد على تلك الساحة الكريمة . فنأخذ باطراف الحديث . في القديم والحديث من الاخبار الطريفة . والسير اللطيفه . تدور علينا اكواب الشاهي (الشاي) وفناجين القهوة البابلية

وكثيراً ما كانت تجمعني هذه الساحة الفيحاء . بسيد جليل من كبار العلماء . هو صاحب الفضيلة قاضي قضاة المملكة الهاشمية . فانه والحق يقال عالم نحرير . وفاضل كبير . وأديب كامل . ومجتهد عامل . حاز — بفضله وعلمه وصدقه في حكمه — رضى جلالة ملك العرب . ففاز بارفع الرتب :

كم من ليالٍ قضيناها مسامرة
في ساحة السيد (السقاف) ذي الادب
لم انس (شيشتها) الهيفاء حاضرة
تحنو اليّ بلا ختلٍ ولا كذبِ
فما أشد ارتشافي من لذاذتها
كأنّ في ثغرها وِرْداً من الضرَب
والشايُ والقهوة (الفيحاء) ريقتها
والظرف واللطف والسلوى من الطرب

***

فيا لياليَ انسي بين من حمدت
خصالهم وذوي الآداب والحسب
عودي لنا بصفاء الدهر ثانية
وجددي مرحي في ساحة العرب

٣ - احتفال مدرسى

تلقيت يوماً من أيام مكة المكرمة دعوة من حضرة وكيل المعارف الهاشمية لشهود احتفال توزع فيه الجوائز على تلاميذ المدارس الهاشمية بمكة . فقصدت الى مكان الاحتفال مع بعض الاخوان من الحجاج المصريين في المدرسة الراقية القائمة على رابية من (جبل الهندي) في الشمال الشرقي من مكة

وكان الطريق الى المدرسة المشار اليها متعرجاً كثير المدارج الحجرية صاعداً الى ذروة الجبل . وكان اليوم شديد الحر فتكبدنا مشقة كبيرة في اجتياز هذا الطريق حتى أشرفنا على دار المدرسة وهي مؤلفة من طبقتين تحيط بها ساحة واسعة مطلة على منازل مكة التي بدت لنا من هـذا المرتفع كأنها اكواخ صغيرة والكعبة المشرفة فى صحن المسجد الحرام كالصندوق الصغير

وقفنا ساعة نستنشق الهواء اللطيف الذى كان يهب علينا من الشمال فوددت لو كان مقامي في هذا المكان مدة الاقامة في البلد الحرام. وكان بعض الادباء من المدرّسين وموظفي المعارف في استقبال المدعوين . فتقدمونا الى مكان الاحتفال بالدور الأعلى من المدرسة ورحبوا بنا بشاشة العرب المعهودة . وقدموا لنا شراب الليمون . ثم القهوة . وكنا جلوساً في الصف الاول من المكان . وكان حضرات اعضاء الوفد الفلسطيني لجميع تبرعات المسلمين لاصلاح قبة الصخرة

بالمسجد الاقصى وهم نخبة من العلماء الافاضل قد قدموا بدعوة لحضور هذا الاحتفال وأخذوا مجالسهم بيننا . وكنا قد ارتبطنا واياهم بصلة التعارف من يوم ابحارنا من السويس على الباخرة (الكويت)

ثم أقبل صاحب الجلالة الهاشمية تحفّ به مظاهر الهيبة والجلال على بساطة موكبه العربي المهيب يحيط به وكلاء حكومته الناهضة وكبار موظفيها . فوقف الحاضرون اجلالاً وتعظيما فحيي بالتحية الاسلامية وتقدم الى صدر الاحتفال واتخذ مجلسه العالي والى يمينه سمو الامير علي ولي عهده الكريم والى يساره فضيلة قاضي القضاة ونائب رئيس الوكلاء وتفرق الباقون في مجالسهم حوله ذات اليمين وذات الشمال

ولما استتب به المقام أخذ يحيينا باجمل التحيات. ثم بديء الاحتفال وتقدم طلبة المدارس فرقاً فرقاً مدرسة مدرسة يتقدم كل فرقة حامل العلم الهاشمي وهم ينشدون أناشيد الترحيب والمدح والثناء والابتهال. رأينا فيهم شباباً عربياً نشيطاً زكيا ممتلئا قوة ونهوضا . تلوح على محياهم سيماء النجابة والذكاء . وكلما فرغت فرقة من نشيدها تقدم واحد من تلاميذها ملقياً خطبة أو قصيدة في الاشادة بذكر العلم والأدب والنهضة والعرب والثناء على جلالة الملك الاكرم ذاكراً فضله على التعليم واهتمامه بترقيته على الاساليب العصرية

وهكذا مرت كل فرقة ومدرسة وتلاميذها يتسابقون في الاجادة فيما يلقونه من الاناشيد الحماسية الجميلة . أو المحاورات الادبية

اللطيفة فكان استعراضا علميا أثار منا الاعجاب بهذه النهضة العلمية الجديدة التي رافقت نهضتهم السياسية الكبرى

وما كان أعجب من قيام جلالة الملك عند انصراف كل فرقة من امامه فيحيي تلاميذها واحداً واحداً ويطبع على جبينه قبلة التشجيع والتكريم . ولم تفارق محياه علائم السرور والانشراح والغبطة والامل

ثم بديء بتوزيع الجوائز . وهي كتب علمية وأدبية مختلفة . فكان وكيل المعارف يقدم الجائزة الى جلالة الملك فيمنحها بيده الكريمة مستحقها من التلاميذ النجباء مثنيا ومشجعا ومنشطا ومذكراً

فكانت والله حفلة هي آية من آيات النهضة العربية الجليلة

واذ فرغ من توزيع الجوائز تقدم سيادة وكيل المعارف واستأذن صاحب الجلالة في أن ألقي كلمة تناسب المقام . فدعاني جلالته الى الكلام . فلم أجد بداً من الاجابة وأنشدت بين يديه قصيدة اسلامية ضاع مني أصلها الا اني أذكر بعض ابياتها وكنت أود أن أثبتها باكملها هنا ولكني اكتفي منها بما يأتي . وعنوان هذه القصيدة :

مجد الاسلام

مطلعها :

طال مجد الاسلام دهراً طويلا   تخذ الشمس في العلى اكليلا

ومنها :

فارجعوا بي الى صراط النبي الـ   ـمصطفى فالنبي أهدى سبيلا

وارجعوا بي للراشدين حياة ... أرفع الراس لا أعيشُ ذليلا

ومنها :

ياحماة الاسلام كيف التغاضي ... عن حماكم والطرف ليس كليلا

ياحماة الاسلام كيف التراخي ... عن علاكم وما بلغنا الاصولا

كيف هذا التشتيت والجد يستنـ ... ـهض منا للاتحاد الميولا

أوَ لم تنظروا بعين انتباهٍ ... دُول الغرب كيف عزّت مقيلا

ثم جاءت تمزق الشرق حتى ... بات مستعبداً وأضحى فُلولا

كل يوم لها اختراع جديدٌ ... يحمل البحر يابسا منقولا

وهو في نومه الطويل يعاني ... ألمَ الاسر والعذاب الطويلا

ومنها :

أجمعوا أمركم وصونوا حماكم ... ما استطعتم الى الحفاظ سبيلا

واجعلوا العلم عدة واداة ... تدركوا ما ترونه مستحيلا

وهي قصيدة طويلة على هذا النسق من الحض على الاتحاد والنهوض لرد غوائل المستعمرين

ما كدت انتهي من انشادها حتى وقف جلالة الملك ماداً بيديه الكريمتين فأقبلت عليه مقبلاً أحدى راحتيه . وبدا لي كأنه في اضطراب ثائر النفس . فخشيت وأيم الحق أن يكون قد بدر مني ما أغضبه غير انني علمت أن هذه الدعوة الاسلامية التي يدعو بها مصري مثلي في الوقت الذي تدعو فيه بعض الجرائد المصرية الى ازدياد شقة الخلاف بين الامتين المصرية والعربية بالتهجم على جلالته بعبارات

السوء والقول المعيب أثارت من نفسه مثاراً مضطرباً فاضت به عباراته الحارة في قوله : ان ما تدعو اليه لهو كل ما أتمناه من صميم قلبي وان نجد في المسلمين آذاناً صاغية اليه وقلوباً واعية له . ولكني أرى اليوم في مصر أناسا لا تهدأ نفوسهم حتى يروا الفتنة عامة في انحاء البلاد الاسلامية ليكون لهم منها مغانم دنيئة يغوصون اليها في بحر الفتن والدسائس . وهذه جريدة الاهرام جاءت الينا في البريد اليوم [(١)] فانظروا ما تحمل الينا من الشتائم القبيحة والسخائم الفظيعة مما يخجل منه القاريء الأديب فكأنها أصبحت تغار على مصالح المسلمين بأشد مما يغارون هم على مصالحهم . فأنت يابني تدعو هنا الى الاتحاد والوئام وهم هناك لا يفتأون يدعون الى الشقاق والتفريق ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

وكان هو يلقي هذه العبارات بحرارة الوجدان يتهدج صوته من شدة التأثر حتى ملك عليّ مشاعري تخيل اليّ انني لا أستطيع أن أدفع عن مصر هذه التهمة الهوجاء التي يسوقها اليها جماعة المضللين من كتاب بعض الصحف . ولكن الله أبى الا أن أرفع الصوت بتبرئة الامة المصرية الكريمة من مظهر هذا الاتهام الذى كاد هؤلاء المرتزقة من طريق التكفف السياسي يقودونها اليه ولولا أن ثبت الله أقدام بعض العقلاء على طريق الحق لقد كادت تركن اليهم شيئا قليلا

---

(١) هو عدد ٩ يوليه سنة ١٩٢٣

فقلت بلا تردد ولا أناة : مولاى لو عرفتم ولا إخالكم تجهلون بأى ثمن تمد تلك اليد الآثمة فتخط بقلم يقطر جرما ودماء على صحيفة سوء لزال العجب . فانها أقلام مشتراة من سوق الدسائس وبمال الصنيعة المجرمة . هذه الاقلام الخبيثة هي التي تلقي في وجوه المسلمين ما تحمله في جعبة أصحابها الآفاقيين من السهام المسمومة وان الامة المصرية البريئة تبرأ الى الله المنتقم من شرهم وسخفهم . وغداً تهدأ العاصفة التي أثارتها يد الاهواء في مصر فيذهب زبد الأكاذيب جفاء فيتبين الحق من الباطل وان غداً لناظره قريب

فكانت هذه الكلمات برداً وسلاماً على جميع الحاضرين وظهر أثرها تواً على وجوه الاخوان المصريين . وقال جلالة الملك : اني أعلم علم اليقين ان الامة المصرية أمة ذكية ولكنها سليمة الطوية . اذا انطلى عليها الكذب عشية فلا تصبح الا عارفة وجه الحق واليقين

ثم أثنى كثيراً على اخلاق المصريين الوطنية وأعجب بهم في مواقف عديدة كانوا فيها نصراء الانسانية دلت على كرم عنصرهم واخلاقهم

وقام فضيلة مفتى حيفا وهو أحد اعضاء الوفد الفلسطيني فألقى كلمة طيبة في فضل العرب على المدنية بنصر الاسلام واثنى على النهضة العربية وبطلها العظيم جلالة الملك حسين بن علي سيد العرب ودعا لاصحاب الجلالة والسمو انجاله الفخام ملوك العرب وأمراؤه واشبال النهضة وحماتها . ثم شكر لجلالته عنايته بالعلم والتعليم وبشر العرب

على يديه بمستقبل عظيم

ثم تقدم بعده شاب مصري لا أذكر اسمه ونطق بكلمة حماسية في عودة المحمل كان لها وقع شديد علينا وذكر فيها مالا يحسن ذكره ولا نرى جواز ذكره على أي حال لانه ليس مما يشرف المصريين ولكن المقام ما كان يسمح بايقافه عند الحد اللائق بنا فاندفع يعدد مساويء ارتكبها اناس من المصريين الذين كانوا يرافقون الحجاج مع المحمل في ابحاره الى جدة

وقال: ان الله لم يرد ان يدنس بلده الحرام اناس عبثوا بكرامة الدين واستهانوا بعواطف الحجاج المسلمين. أضاعوا الصلاة وشربوا المسكرات ولم يحرموا مع الحجاج من الميقات وهم أولى الناس بان يكونوا لهم قدوة في المكرمات. الى غير ذلك من العبارات التي آلمتنا كثيراً لما فيها من ذكر سيآت لا ترضى بها النفوس الأبيات

ثم وقف احد العلماء المصريين واسمه على ما أتذكر (الشيخ مجاهد) وهو كفيف البصر كان من حجاج هذا العام وارتجل كلمات هي من آيات الحكمة والبيان هوّن بها امر الخلاف في مسئلة المحمل وعودته فقال انها سحابة صيف ثم تنقشع

ثم وقف جلالة الملك وشكر للمصريين عواطفهم الشريفه ودعا الله ان يحسن احوال المسلمين. ويوفّق الى العمل الصالح رجال الدين

وانفرط عقد الاحتفال على احسن حال. وانصرفنا معجبين بنهضة العرب الصادقة داعين لهم ولمملكتهم الهاشمية ببلوغ الآمال

٤ - آثار النهضة

نجلت النهضة العربية في انحاء الحجاز باحسن مجاليها فتبدل الحال غير الحال. وأهمُّ آثار هذه النهضة فيها: أمن الطريق ونظام المواصلات ونظام الصحة. وترقية التعليم الاسلامي. وترقية شؤون التجارة والصناعة. ونظام القضاء الاسلامى. وكفاءة الموظفين الحكوميين. ونظام الشرطة

ولو أردنا ان نتكلم عن هذه الآثار الجليلة في شؤون الحجاز لما وسعتنا هذه الصفحات القليلة وكنا في حاجة الى مجلد كبير لندون فيه جميع ما شاهدناه من محاسن هذه النهضة. ولكن مالا يدرك جله لا يترك كله

أما (أمن الطريق) فى الحجاز فقد أصبح أمره أشهر من نار على علم، رغم أنف كل مكابر. وهذه مسالك البادية فى كل ناحية من جهات المملكة الحجازية شاهدة بكل شفة ولسان بان الامن أصبح مستتباً فيها ليلاً ونهاراً حتى أصبح لا يقل عن الامن الذي تباهي به أرقى الممالك الأوروبية نظاماً وحكماً

وقد سبق الكلام عن جماعة البدو الضاربين بالقرب من المدينة المنورة وفرضهم ضريبة على الحجاج المتوجهين لزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام وأشرنا الى انهم قبيلة مشهورة من قديم الزمان بشدة الطمع فى اغتنام المال من الحجاج وكثيراً ما عانى رجال الحكم القديم

فى سبيل اخضاعها وتأديبها بغير فائدة . وكم حاربوها حرباً شديدة وهي تعتصم فى رؤوس الجبال ولا ينالون منها منالا وكم خرج افراد هذه القبيلة على قوافل الحجاج فينهبونها حتى منعت طريق المحمل فى بعض السنين رغم مدافعه وجنده وسلاحه

أما اليوم فليس هـذا شأنهم مع الناس . بل هم خاضعون حقا لطاعة الحكومة الهاشمية ولديها منهم رهائن لا يستهان بها . ولـكن بعض أشرارهم لم يعبأوا بتعهدات رؤسائهم فخرجوا يطلبون (ميزاً) قديما لهم وكلفوا الحجاج أن يدفعوا لهم جنيها عن كل واحد منهم بغير اساءة أو تعدٍ عليهم ولما عاد الحجاج الى مكة بعد أداء الزيارة قدموا شكاويهم فأعلنت الحكومة العربية في جريدتها أنها مستعدة لدفع ما دفعه الحجاج لهؤلاء الاعراب وان لها معهم شأناً آخر . وفعلا قامت برد ما أخذوه اليهم

وكيف تلام الحكومة الهاشمية وحدها على خروج بعض شرار البدو في أطراف المسالك البعيدة عن مقر الحكومة وهي قد اخضعت رؤساءهم فعلا وما عليها الآ أن تكلف هؤلاء الرؤساء بتقديم العابثين منهم بهيبتها لتأديبهم جزاء لهم وعبرة لغيرهم

أما ما عدا ذلك فلم نسمع لهم عوجا ولا أمتا

يخرج الناس ليلا ونهاراً جماعات ووحدانا ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون

ما السبب فى خضوع هؤلاء الاعـراب وهم في باديتهم لا تصل

اليهم يد الحكومة وهم متحصنون في الجبال ؟

الجواب أن الحكومة العربية وعلى رأسها جلالة الملك حسين ابن على لم تفعل الا انها عادت الى الاحكام الشرعية فى تأديب العصاة منهم والمفسدين

يؤتى بالسارق من رؤوس الجبال ويقام عليه حد القرآن فتقطع يده الاثيمة على ملأ الناس بلا رحمة ولا شفقة

يؤتى بالمفسدين في الارض ويقام عليهم حد القرآن فتقطع ايديهم وارجلهم من خلاف فلا استئناف ولا نقض ولا ابرام

يؤتى بالقاتل اينما كان وكيفما كان ويقام عليه حد القرآن فيقتل بما قتل . وشعارهم في هذا قوله تعالى « ولكم في القصاص حياة يا اولى الالباب »

وغير ذلك من اقامة الحدود على أساس الدين الحنيف وكتاب الله المنيف . فالزاني يرجم أو يجلد والعين بالعين والسن بالسن والجروح قصاص

هذا هو أساس النظام الحكومى في الحجاز ولا عبرة بما يفتري به المفترون . وعلى هذا النظام الوطيد قامت الحكومة الهاشمية في هذا الزمن . وهو أكبر أثر خالد من آثار النهضة العربية العالية

وعن (نظام المواصلات) فالكلام لا يخرج عن هذه الدائرة إلا قليلا

فوسائل النقل هناك ليست إلا بالقوافل الراحلة بالابل والخيل

والبغال والحمير لان الطرق لا تصلح لسير العربات الا بمشقة كبرى لانها طرق رملية وصخرية . ويتمنى بعضنا أن يجد الطريق بين جدة ومكة مدمداً بقطر البخار

وهي أمنية تسحر الالباب لما نجد في تحقيقها من راحة وطمأنينة

ولكن هناك موانع شتى في سبيل تحقيقها بعضها اجتماعي والآخر سياسي

وجواب العرب على هذه الامنية ينحصر في نقطتين : الاولى ان الارض لا تصلح لمد الخطوط الحديدية فاذا مدت جرفها السيل في كل عام فتحتاج الى نفقات طائلة فكأنهم يجب ان ينشئوها سنويا . ولا مال عندهم لا نشائها . ولا يقبلون انشاءها برؤوس أموال اجنبية لما يترتب عليه من المداخلات السياسية . ومن هنا تهيأ المانع الثاني

ويقولون أين للمسلمين في مصر والهند مثلاً وهم على ما هم عليه من الرضوخ لسلطة الاجنبي ان يتطلعوا للاستفادة من هذا المشروع ؟

لا يقبل العرب منا ان نقدم لهم أموالا مصرية أو هندية لاننا غير مستقلين . ويخشون تداخل من بيده أمرنا في أمرهم . لذلك فهم يرفضون

ثم ان عرب البادية لا عمل لهم الا النقل على الابل فما يصنعون بابلهم ولا يكفيهم ان يكونوا حراساً على الطريق أو عمالاً عليه

اذن ليس في الامكان أبدع مما كان والمهم في الامر هو أمن الطريق واما اذا توفر مالهم يوماً ما فلا بأس من التفكير في

هذه الأمنية

ومع ذلك فان المشروع في ذاته جليل وقد تأكد لي من الاحاديث المتعدده التى شرفنى بالتبسط فيها صاحب الجلالة الهاشمية انه لاينى يفكر فى اضمن الوسائل المؤدية الى انفاذه عملياً بحيث لايجد من ورائها ما يخشى منه على حياة البادية الاقتصادية المرتبطة اشد ارتباط بالنقل على هذا الطريق . وقد علمت ايضاً من حضرة السيد عبد الملك الخطيب المعتمد السياسي لحكومة جلالته فى مصر ان هناك مشروعا لايقل عن هذا المشروع اهمية هو بين يدى جلالة الملك الهاشمي موضع بحث واهتمام كبير الا وهو مشروع سكة حديدية من (الوجه) أو (ينبع) الى المدينة المنورة وهذا المشروع يطالب بتحقيقه بنوع خاص عرب (جهينة) القاطنون فى البادية الواقعة على طريق المدينة من (الوجه) لان انشاء سكة حديدية في ارضهم هذه يفيدهم فائدة كبرى لانقطاع سبيل الحجاج او الزوار من طريقهم ويؤملون في مد خط حديدي هناك حركة اقتصادية ناجحة . ويقول ان هذا المشروع وغيره من المشاريع العمرانية الكثيرة في الحجاز مطروحة امام روية جلالة الملك يمحضها البحث والنظر . وسنرى ان شاء الله تعالى وامدّ في حياة جلالته ما تملأ قلوب المسلمين غبطة وانشراحاً بآثار العمران التي يضع خططها السديدة جلالة الملك العربى الكريم وينتهز الفرص لابرازها ناطقة له بالثناء والدعاء . وأهمّ هذه المشاريع العمرانية الجليلة مشروع القطار الكهربائية (الترامواى) في ضاحية مكة المكرمة بينها وبين

منىً وبينها وبين مسجد السيدة عائشة (مكان العمرة) . ولهذا المشروع مزية كبرى لما يتعلق به من وسائل الصحة العمومية للحجاج . ذلك ان جميع الحجاج انما يتسابقون الى السكنى بالمنازل القريبة من الكعبة المشرفة وحولها لما لهم فيها من القرب الى غايتهم . فيترتب على ذلك ازدحام الحج في مكان واحد تنشأ عنه الأمراض المعدية بسبب هذا التكاثر المخيف فلو سارت عربات الترام في ضواحي مكة لعمرت المساكن الكثيرة فى انحائها بالحجاج الذين يجدون فيها من وسائل النقل السريع مايكون به الاقامة في الخلوات احفظ للصحة وابعد عن الامراض التى تنشأ من زحام مئات الالوف من الناس في وسط مكة

وغير هذا المشروع كثير من المشروعات النافعة لايزال جلالة الملك المعظم يدرسها بكمال العناية لما فيها من تقدم البلاد العربية ورقيها . والله سبحانه وتعالى يوفقه الى غاية النجاح . آمين

(والمواصلات) البريدية والبرقية والتلفونية منظمة أحسن تنظيم وعلى رأسها مدير عربي مدرب أحسن تدريب هو عبد القادر بك الغزاوي وتحت ادارته نخبة من الموظفين من شبان العرب النبهاء فى غاية النشاط بخلاف ما كانت عليه هذه الادارة من الاختلال والاعتلال في زمن الحكم السابق واسأل به خبيرا . .

تكلمنا بواسطة التلفون من عرفة الى جدة ومن مكة الى منى وهكذا بكل سهولة والاشارات البرقية ترد الينا في كل مكان من هذه الاماكن ونبعث بها منها الى مصر فتصل باسرع زمن . وهو نظام

بديع يدعو الى الثناء والحمد

وكلمتنا في (نظام الصحة) تتناول اهتمام موظفي ادارتها في أيام الحج ويعلم الله ان اجتماع مئات الالوف من الاجناس المختلفة في صعيد واحد وبلد واحد لامرٌ يحتاج الى مئات الاطباء . فليتصور المتصور كيف تستطيع حكومة مثل حكومة الحجاز أن تكفي هذه الامم عناية ووقاية على ماتهوى وتريد . ليس في امكان اية حكومة في الارض ان تقوم بهذه المهمة بافضل مما تقوم به حكومة الحجاز لان اساس الوقاية صحياً هو (النظافة) ولم يكن الحجاز فى زمن من الازمان انظف طرقا ومنازل واماكن مما هو الآن . وهذه مكة ومنى وعرفة كيف كانت حالها في العهد السابق من تراكم الاقذار والرمم وغيرها من مباعث الاوبئة والامراض . وكيف هي اليوم من تنظيف الطرق في كل ليلة وصباح ومسؤلية الاهالي امام حكومتهم كبيرة عن أي اهمال فى امر نظافة مساكنهم وليس أدل على صحة هذا القول من نظافة الحج فى هذا العام بحيث يجب ان تنقطع السنة المتخرصين

ماذا صنعت مصلحة الصحة في مصر بجيوش مفتشيها في انحاء القطر فهل انقطعت الكوليرا مثلاً أو الطاعون أو الحميات بانواعها ؟ كلا ولكن العيب طبع من طباع اهل العيب . فلا يفتأون يعيبون على الناس احوالهم ولا ينظرون الى عيوب انفسهم ولو تدبروا قول الشاعر لاقصروا :

معيب على الانسان ينسى عيوبه ويذكر عيباً في أخيه قد اختفى

ولو كان ذا عقل لما عاب غيره وفيه عيوب لو رآها بها اكتفى

هذا ولا يمنعنا مانع من ان نوجه انظار رجال الحكومة الهاشمية الى زيادة العناية بصحة الوافدين اليهم من الحجاج . فتكثر من الامكنة الحاوية للعقاقير الصحية ولو تشتريها لحسابها وتبيعها للحجاج بالثمن المناسب ثم تكثر عدد الاطباء فتجعلهم أربعة أو خمسة بدل اثنين . وكل زيادة منها في العناية بحجاج بيت الله الحرام يزيد فى شرفها امام العالم . والله نصير العاملين

ولا ننسى أن نقول كلمة طيبة فى نظام المستشفى الاهلى الهاشمي فانه وايم الحق آية فى المستشفيات المصريه . لانه مقام على مكان صحي وله ساحة داخلية مغروسة فيها اشجار الفاكهه والازهار الجميلة وفى وسطها (فسقية) بديعة يسبح في مائها الصافي انواع من الاسماك الملونه مما يجعل منظر هذا المستشفى غاية في البهاء والرونق . وذلك بفضل الطبيب الماهر الدكتور محمد بك الحسيني المصرى مدير المستشفى والطبيب الخاص لجلالة الملك

وفي ساحة هذا المستشفى بجانب الاجزخانة (بيت ابى سفيان) يدخل اليه الزائر من باب المستشفى العمومى وهو اليوم مصلى صغير وله حنفيات للوضوء . بحيث ان الداخل اليه ينشرح صدره مما يراه ماثلا امام ناظريه من جمال المنظر وحسن الرواء

وقد حادثت الحسيني بك وهو شاب مصرى ذكي الفؤاد نبيه الوجدان في مسائل الصحة في الحجاز فكان يجيبنى على اسئلتي بكل

وضوح وجلاء

سألته لم لا يصطنعون عربات الرش في مكة وشوارعها كثيرة التراب فاجاب مبتسما . لقد أستحضرنا عربتين منها ولكن لم نستخدمهما لان الماء في موسم الحج لا يحتمل مع حاجة مئات الالوف من الناس اليه ان نستهلك منه للرش في الشوارع . وهذا عذر طبيعي من الاهمية بمكان . ولا سيما وان هذا الماء لا يرد لمكة الا من عين زبيدة وحدها وكثيراً مايقل الماء الوارد حتى يخشى الا يكفى لشرب الناس

وقال ايضاً : اننا شرعنا فى غرس اشجار على جانبي الشوارع في مكة لتخفيف وطأة الحر في فصل الصيف ولكننا لا نستطيع ذلك الا اذا توفر لدينا الماء . فهو علة العلل . والحكومة الهاشمية لاتفتأ تفكر في خير الطرق المؤدية الى سد هذا النقص . وأرى انه سيشرع فى انشاء آبار ارتوازيه في جهات معينة للحصول على الماء الكافي منها . والامور مرهونة بأوقاتها . والمال اساس العمران

وقد رايت ان لكلام الحسيني بك نصيباً كبيراً من الصحة . لان طبيعة البلاد الجرداء لاتحتاج الى الرجال العاملين فحسب ولكنها تحتاج لتعميرها الى المال قبل كل شيء . فاذا وفق الله حكومة الحجاز الفتية الى المال الكافى لتنفيذ مشروعات جلالة الملك الهاشمي لعمران بلاده فسنرى في الحجاز انقلاباً اجتماعياً عمرانياً مدهشاً يحفظه التاريخ الى ابد الآبدين

اما ترقية التعليم واثر النهضة الحديثة فيها فقد شهدناه في

الاحتفال المدرسي الذى تكلمت عنه في غير هذا المكان . ولا شك ان هذه النهضة العلمية سيكون لها شأن كبير في عمران الحجاز . لان الشبيبة العربية من اذكى وانبه الشباب فى الشرق العربي . ولا غرو فان آباءهم ابناء الفاتحين العظام

وقد حادثت بعضا من ادبائهم في ارسال الارساليات العلمية لطلب العلوم العالية في جامعات اوروبا . فرأيت منهم صداً عن هذا الطريق لانهم يعتقدون ان العقيدة الدينية اساس العمل في الحكومة الاسلامية . والتعليم في اوروبا مضيعة لهذه العقيدة وضربوا الامثال بما نراه من شبان مصر وغيرها على اثر عودتهم من الغرب لايحملون الا شهادات خيالية اكثر منها عملية . وقد اعجبني من رأيهم هذا حرصهم على هذا الاساس الثابت المتين وهو اساس العقيدة الدينية . والحق يقال انهم على صواب فى رأيهم هذا . ولكني رأيت رايا هو ان يبعثوا في طلب اساتذة مسلمين من مصر او غيرها لتعليم شبيبتهم العلوم العالية في مدرسة ينشئونها خصيصا على هيئة الجامعات او الكليات . قالوا : وهذا مانرمى اليه والزمن كفيل بتحقيق آمالنا . وكل من سار على الدرب وصل

واذا قلنا ان من اهم عناصر النهضة العربية (ترقية شؤون الصناعة والتجارة) فذلك لانها روح الحياة الاجتماعية في الامة . فكل امة لا ترقى بصناعتها وتجارتها الى المستوى اللائق بكرامتها بين الامم فلا حياة لها بينهم الا كما تحيى الحيوانات التى تعيش من كد غيرها وهي

حيوانات الطبقة الدنيا تراها لاتحيي الا عالة فيكون فناؤها من المحقق فى يوم من الايام

وقد شعرت الامة العربية في العهد القديم بما كان ينتابها من غل ايدي أبنائها من تحكم العنصر المتسلط بقوته وجبروته وبما ترتب على هذا التحكم من تفضيل اصحاب القوة ابناءهم دون ابنائها لاستخدامهم في شؤون الحكومة وما يتفرع عنها من النظر في مصالح البلد التى هي وطنهم لا وطن اصحاب القوة الحاكمة . فتقهقرت قوميتهم امام تسلط العنصر الا قوى وصارت الأمة الحاكمة متغلبة في سائر مصالح (الدولة) ولم يكن بين العنصرين ـ الحاكم والمحكوم ـ من توافق فى الخلق ولا في العمل المؤدى الى الاتفاق بينهما . اقول شعرت الامة العربية بكل هذا فاصبحت فاذا بها في حاجة كبرى على اثر نهضتها القومية الاخيرة ان تنظر بعين الاهتمام الى ترقية روحها الاجتماعي بترقية شؤونها التجارية والصناعية بعد انحطاطها بفعل التقهقر الذى قضى به تسلط الاقوى

رأيت من آثار هذه النهضة تكاتف العرب على النهوض بتجارتهم وصناعتهم لمباراة الامم الحية في مضمار الرقي الاجتماعي

والعرب يشهد لهم التاريخ من أقدم أزمنته انهم أهل تجارة بل قال أنهم كانوا من أغنى الامم تجارة في الجاهلية والاسلام

وهي غريزة موروثة فيهم أثارت فى نفوسهم اليوم عامل التجدد الذي كان كامناً فيها كمون النار في البركان حتى اذا وثبوا وثبتهم القومية

الاخيرة انفجر بركان هذه الغريزة مع سواها من غرائزهم التي ورثوها عن آبائهم وفعلت فعلها في الهمم وبدا أثرها فيما شهدناه من آثار نهضتهم

اليوم أصبح العربي ينظر الى مستقبل بلاده بعين الامل البعيد ويجد نفسه عاجزاً عن بلوغ أسباب الكمال بغير جد وعمل فتراه يشحذ في همته المتجددة بفعل الانقلاب السياسي الذي تم على أيديهم ويخشى أن يكذبه الواقع فينحدر في مهواة الجمود مرة أخرى . فلا يلبث أن يثور في نفسه دافع العمل على المحافظة على استقلاله بكل سلاح مادى أو أدبي

ولما كان فى نظره — وهو على حق — ان انفع الاسلحة لحفظ كيانه بين الامم الناهضة هو السلاح الاقتصادي نتراه دائب العمل — على قدر طاقته — على استخدام هذا السلاح للذود عن حياته الاجتماعية

هذا العربي اليوم هو عربي الحجاز وعربى العراق وعربى الشام من أصحاب البلاد العربية وأبناء الامة العربية والدم العربى القديم

هذا هو الذى ينهض اليوم بأسباب ترقية الحياة التجارية والاقتصادية . ورأيته في أسواق مكة هو التاجر الذى يعلم من نفسه أنه سيد في بلده وان رواجه رواج لها فأصبح مجداً مجتهداً عاملا على مزاحمة غيره من الغرباء . ولا يزاحمه في تجارته هناك الا عناصر مغلوبة فى بلادها كانت أشد مزاحم له فى العهد القديم في تجارة بلده — ولو

أن هذه التجارة لم يكن العربى الا متاجراً بها لا منتجاً لها — الا ان الربح من رواجها لا يعود الا على المتجر بها دون المنتج — لهذا أصبح همّ (العربى) منصرفاً الى دفع المزاحم الاجنبي غير العربى — ولو كان هنديا أو تركيا أو غيرهما — حتى اذا استقر قرار نهضته الاجتماعية تبعاً لنهضته السياسية حق له أن ينظر بعد ذلك فى الرابطة الادبية التى تربطه بمزاحميه في تجارة بلده

كانت مكة في العهد السابق خليطاً من امم شرقية اسلامية مختلفة واذا رجعنا الى النسبة العددية لسكان مكة فى ذلك العهد راعنا كثرة العناصر غير العربية قابضة على زمام التجارة فيها واليك البيان :

كان عدد أهل مكة فى سنة ١٩٠٧ كما كان المعروف لدى مأمورى الدولة العثمانية مائة وخمسين الف شخص منهم خمسون الفاً من الاهالي والباقي أى مائة الف من الاغراب وهم كالآتى :

٥٠ الفاً أهالي مكة و ٢٥ اعراب (بدو) و ٢٠ بخاريون و ١٢ هنود مسلمون و ١٥ جاويون و ١٠ افغان وسليمانية و ٥ شوام و ٥ مغاربة و ٨ اجناس اخرى كاتراك ومصريين وغيرهم . والمجموع مائة وخمسون الف نسمة

وكان المتسلط بعظمته وغطرسته على جميع هذه الاجناس هو العنصر التركي فكان بتحكمه في رقاب العرب يمنعهم من التقدم في سبيل المزاحمة فاستطاعت العناصر الاخرى المكونة لسكان مكة ان تروج متاجرها وتزاحم العربى في بلده واضطر العربى أن يعيش

مستكينا متحفزاً لرد مكانته الى المستوى اللائق به تحت الشمس حتى اتاحت له الايام اسباب النهوض فنهض ولم يقف موقف الدهشة لما ناله من يد القوة بيد القوة بل نهض وسار في طريقه لا يلتفت الى الوراء الا بمقدار ما يلتفت المسافر ليرى قدر المسافة التى قطعها في رحيله

رأت العناصر الاخرى قيام العربي بعد نهضته القومية يدفع بقوة ساعده من يزاحمه فى طريق الحياة ورأت من ورائه حكومة عربية تشد أزره وتحثه على مواصلة السير في طريقه فافسحت له مجال العمل والمزاحمة فاصبحنا نرى العنصر العربى سائداً بقوة يقينة وجده ونشاطه الطبيعيين على ميدان التجارة في حاضرة الحجاز

ولما كان الانتاج غير ميسور الا قليلا فيما يعرضه العربى في سوق التجارة لعدم توفر أسبابه الطبيعية في بلاده القاحلة اضطر أن يسبق غيره من مزاحميه في جلب المتاجر من بلادها الصناعية وعرضها بأرخص مما يبيعه سواه منها واستطاع ان يقف في سبيل الاجنبي بما يجده من الاقبال على تجارته الرائجة . وهذا الاجنبيُّ شرقي بفطرته فلا يستطيع ان يغلب على قوم في بلدهم ولو كانوا شرقيين مثله

هذه حقيقة محسوسة لمن يتصفح في اسواق مكة واجهات المتاجر فهناك من أول ابواب مكة ابتداء من (جرول) ثم (الشبيكة) الى (الشامية) الى (السوق الصغير) الى (جياد) وهو في نظرى مثل

شارع الدواوين لانه يجمع بين دار الحكومة (الشرطة) أو هي المحافظة وكانت تسمى حميدية وبين ادارة البريد والتلغراف والتلفون والتكية المصرية (فالمسعى) وهو شارع تجاري كبير (فالقشاشية) الى (سوق الليل) حتى في الشوارع الاخرى قليلة المتاجر من شمال الحرم ابتداء من الشامية وهو سوق المدينة الاكبر الى (القرارة) فالنقا والسليمانية والجدرية والباراضية في جميع هذه الشوارع والاسواق تكاد تشعر من أول وهلة بتغير كبير حدث بعد نهضة العرب الاخيرة

أدت مزاحمة العرب سواهم من تجار العناصر غير العربية الى امتلاك ناصية الاسواق حتى ليرفعون سعر العملة يوماً ويخفضونها آخر . ولا يجدون مضارباً قوى الشأن يتحكم عليهم في القبض على ناصية السوق . الا بعض الهنود أو الجاويين الذين أصبحوا مكيين بالمصاهرة والاختلاط القديم فقد برزت شخصياتهم في مكة كبعض أهلها . ولا عبرة بتقدم تجارة الحضارم واليمنيين فانهم عرب كاهل الحجاز ولكنهم من سلالة قحطان فتجدهم في نشاطهم التجاري لا يقلون مقدرة عن ابناء عمهم الحجازيين

وعلى العموم فالنهضة العربية لم تتناول الحجازيين وحدهم بل هم بها العنصر العربي فى الشرق على اختلاف الوطن والمزاج

وبما انني لا اتناول فى كلامي الا عرب الحجاز لانهم نواة هذا الغرس النامي فلا اتعرض لما يتناول غيرهم من العرب فى بلادهم فاذا وفقني الله واستطعت ان ازور العراق والشام مثلا من البلاد العربية

الناهضة أمكنني من الكلام عن آثار نهضتهم فى بلادهم

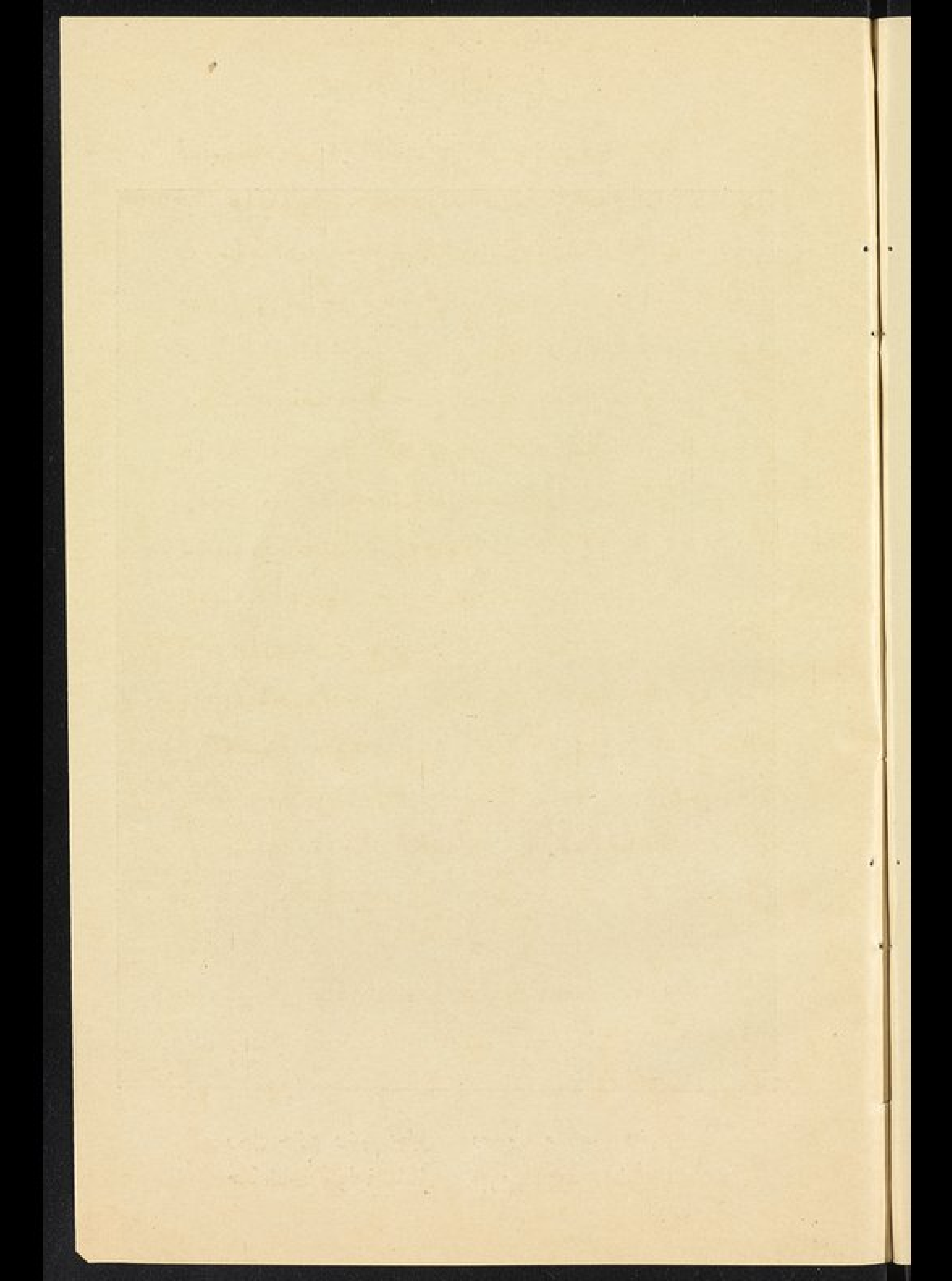
هذا فيما يتعلق بالتجارة وأما الصناعة فلا سبيل الى التوسع في الالمام باطراف مواردها في بلاد العرب ويغلب أن يكون العرب من قديم الزمن غير أهل صناعة أو انهم أخذوا باسبابها زمنا ثم لم يسيروا بها الى الزمن الاخير حتى نستطيع أن نرى رأياً في صناعتهم . فليس في مكة من أثر الصناعة الاّ صُنّاع الصياغة . ولاهل مكة نصيب كبير فى هذه الصناعة بل يكادون يبزون أقدر الصناع الغربيين فيها فلو وصلت الى أيديهم أدوات العمل العصرية لرأينا من صنع ايديهم تحفاً وهدايا من الذهب والفضة والمطعم بالمينا مالا يقل دقة وحسن ذوقٍ عما تقدمه أيدي الغربيين فى أسواق العالم

أتدري أين تصنع نياشين المملكة الهاشمية ؟

لا تعجب اذا قلت لك انها تصنع فى مكة وبأيدى العرب . فتراها أوسمة بهيجة الرونق على طراز أوسمة النيل وغيرها بحيث تستدعي الانظار بدقة صنعها ورقة ذوق صانعها

كذلك النرجيلة (الشيشة) البديعة الصنع من المعدن أو الفضة اصبحت التى تصنع منها فى مكة خيراً من التى يؤتى بها من الهند وغيرها

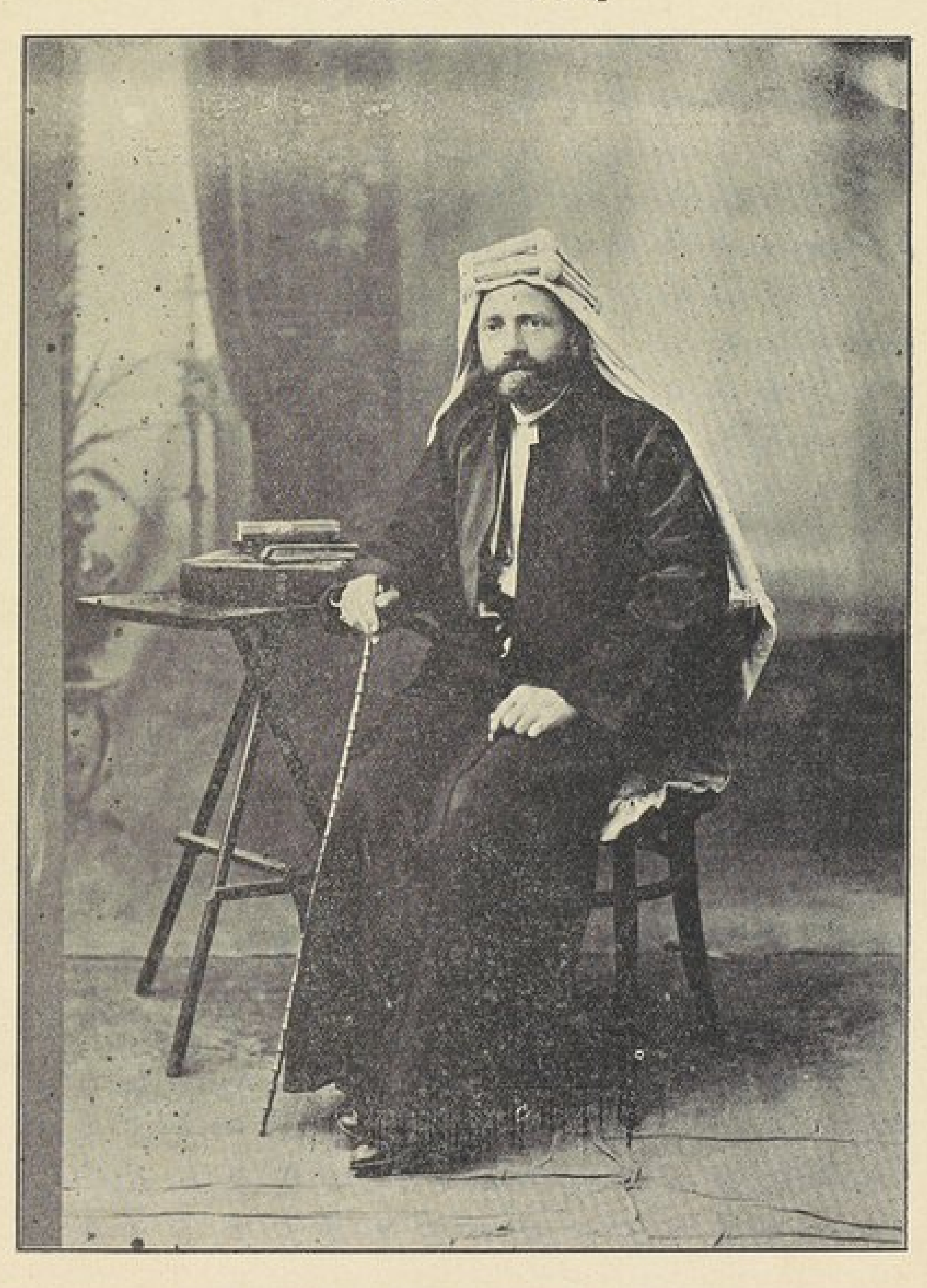
ولكن هذه الصنائع لا أهمية لها فى اسواق العالم التجارى الا بمقدار ما تجد من غواتها من الاغنياء ولكن المهم فى هذا الباب ان أذكر ما رأيته من الرقي الصناعي فيما يتناول الضروريات الحيوية لا



حضرة صاحب العزة والوجاهة

محمد بك الطويل

مدير الجمارك الهاشمية بميناء جدة



رجل حازم وشهم جليل ومدير مدرب ونبيل

حمدَ الناس طوله في المعالي فهو فيها (محمد) و(طويل)

المؤلف

الـكماليات

لم ار هذا الأثر باديًا فى جليل معناه الا فى جدة ميناء الحجاز وهي (دار الصنعة) التى انشأها جلالة الملك حسين بداخل الدائرة التى تحيط بابنية ادارة الجمارك

دعاني ذات يوم رجل الفضل والادب محمد بك الطويل مدير جمارك جدة الذى سبق لي كلام عنه فى أحد فصول هذا التذكار لزيارة هذه الدار وهي لا تبعد عن مكتبه كثيراً وتقدمني اليها وطاف بي فى انحائها مشيراً الى كل قسم من اقسامها . ففي ناحية قسم المخارط الفولاذية وفى أخرى قسم المخارم فالمقاطع فالمسبك الصاهر لاذابة الظهر وسبكه فى قوالب الرمل أو الخشب أو الحديد . وصار يدلنى على ما بايدى الصناع من القطع المرسومة لتكون ادوات حربية أو بحرية أو صناعية

نعم دهشت وحق لي الدهش من هذا الانقلاب العجيب

أمة نفضت على نفسها غبار الجمود ونهضت نهضة سريعة وسارت على درب الكمال لا تلوى على شيء . حقق الله آمالها

هذا بعض ماشهدته فى الحجاز من آثار النهضة الحيوية الاجتماعية وهى آثار تنبىء عن مستقبل عظيم لهذه الامة العظيمة التى لا ينقصها الا عطف العالم الاسلامى حتى تظهر فيه رافعة الرأس مادة يد الاتحاد لتستطيع ان تحقق امانيها القومية بين اخواتها في الجامعة الاسلامية

اما (نظام القضاء) فهو نظام اسلامى صرف قاعدته احكام

الشريعة الغراء وفي كلمتي عن أمن الطريق بيان كاف للدلالة على كمال هذا النظام

وعن (كفاءة الموظفين) فيدل عليها قيامهم بما عهد اليهم من مصالح الحكومة قياما حسناً اطلق السنة الحجاج بالثناء عليهم في كل مكان

واكبر شاهد على ارتباط آثار النهضة كلها بعضها ببعض ظهور أغلبها في المظهر اللائق بكرامة امة عريقة في المدنية . عريقة في نظام الاجتماع

وهذه (ادارة الشرطة) في مكة تقوم بوظيفتها على ادق نظام من انظمة البوليس في العالم . ويكفي لاثبات صحة هذه الدعوى بعض الحوادث الدالة على يقظة رجال الامن وعنايتهم بتنفيذ اوامر الحكومة الهاشمية بغاية الدقة والمهارة

انظر الى رجل فقد كيس نقوده البالغة نحو المائة جنيه بين آلاف الناس على اختلاف اجناسهم وطبقاتهم . ثم تفقد الرجل كيسه فلم يجده في جيبه فاسرع الى ادارة الشرطة وكان الوقت ليلا . فما اصبح الا كان رسول المدير يستدعيه اليه ولما سأله بعض علامات تدل على حقه فيما فقده ورآها رئيس الشرطة منطبقة على ماعثر عليه شرطي الحرم وجاء به اليه وتأكد له ان الرجل صاحب الكيس والنقود نقوده حقاً قدم اليه ماله بكل ادب واحترام

والاعجب من هذا ان الخبر وصل الى مسامع صاحب الجلالة

الملك فقلق كثيراً على صاحب الشيء المفقود فكان يسأل كل ساعة بالتليفون عما تم فيه وهل ظهر صاحبه او يجب البحث عنه في كل مكان

الجرائد والمطابع : يقول علماء الاجتماع « اذا رأيت العلم والادب

يرفرفان في سماء امة فبشرها بمستقبل سعيد » وهذا الذي نراه اثراً من آثار النهضة العربية في الحجاز خاصة . فمذ تأسست المملكة العربية الهاشمية قام الملك العربي العظيم الحسين بن علي بالمثل الاعلى في تشييد صرح العلم والادب على الاساس الاسلامي الوطيد واثبت للملأ بألف دليل ودليل على ان نهضته بامته العربية العريقة في الحضارة والرقي نهضة صادقة موطدة على اساس متين . فانه فضلا عن نشره اعلام العلم والادب على الربوع الحجازية المقدسة بانشاء مدارس التعليم الراقي التي سبقت الاشارة اليها، وجه جلالته الاهتمام من بدأ النهضة المباركة الى انشاء المطابع والجرائد لتكون واسطة لنشر الآراء الاجتماعية النافعة في ارجاء مملكته الناهضة . فرأينا جريدة (القبلة) الغراء في عاصمة الحجاز تنشر المقالات العلمية والادبية والسياسية والاجتماعية واعجبنا بمطبعتها الكبيرة قائمة في مكان مشيد رحيب يديرها رجل فاضل اديب هو الشيخ محمد السادي الكاتب العالم العربي وبين يديه نخبة من العمال الاذكياء بحيث لانبالغ اذا قلنا ان جريدة القبلة ومطبعتها قد أصبحتا من النظام والمتانة تضارعان أكبر جريدة عربية في الشرق . والقبلة هي الجريدة الرسمية في الحجاز ورأينا في مكة أيضاً جريدة أخرى تسمى (الفلاح) وتطبع في مطبعتها

وهي أثر من آثار النهضة الأدبية في البلاد العربية

طوابع البريد : وهي وان كانت بالنسبة لما قدمنا من مزايا هذه النهضة لا تعد الا في المرتبة الثانية غير أن وجودها (مطبوعة في مكة) لأعظم برهان على اكتمال أسباب الرقي العصري في المملكة الهاشمية وهو ما تتباهى به الامم المتمدينة في هذا العصر ومصر المتمدنة الفتية لم تستطع الى اليوم أن تبلغ هذا الشأو من الفخار الوطني العظيم ، الأمر الذي تفيض به قلوبنا حسرة وحزناً لانها مدنية كاذبة على شفا جرف هار

النقود العربية الهاشمية : هي الدليل الاقطع والبرهان الاوضح على عظم النشأة الاستقلالية الباهرة التي قطعت شوطاً بعيداً في مضمار النهوض القومي بحيث لا تحتاج الى تدليل على أن هذه الامة العربية وعلى رأسها هذا الملك العظيم قد أخذت مكانها الأول في صدر الاسلام فهذه النقود الذهبية والفضية باسم صاحب الجلالة الهاشمية الحسين بن علي ملك العرب تضرب في مكة عاصمة ملكه شاهدة بما له من الآثار الخالدة في تاريخ المجد الاسلامي الذي أعاد بناء صرحه على أساسه المكين ناطقة بأفصح لسان على مر الدهور والاجيال : هذا هو العمل الخالد الجليل . مرددة قول شاعرهم العظيم :

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

والى ابناء هذا الجيل صورة حية لهذا الاثر الجليل تكذب كل

نعم كان سرورنا بهم كبيراً وهم على اتم نظام في استعرضاتهم الحربية الشائقة ذلك لانهم حماة الارض المقدسة وابناء الحماة السابقين ولسان حالهم القائل :

اذا مات منا سيد قام سيد قؤول بما قال الكرام فعول

وقد رأينا بعض الناس في مصر يستهزئ بنا اذ كنا نصف هؤلاء الضباط البواسل بما لا مبالغة فيه ولا نقصان لان تلك الافكار المسممة التى تسرى في اذهان هذا البعض تكاد تعمي ابصارهم فهم لا يبصرون . والله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون . واما كل ذي بصيرة مستنيرة بنور الحكمة والهداية فيقول معنا : سيروا يا ابناء العرب الفاتحين . واجعلوا تاريخ آبائكم عنواناً لنهضتكم العريقة ، وشعارا لبسالتكم الخالدة . وهذا ابن الخطاب وابن ابي طالب وابن الوليد وغيرهم من اجدادكم القواد العظام يطلون عليكم من سماء مجدهم ليروا اعمالكم من بعدهم هاتفين بكم : الى الامام الى الامام ، يا ابناءنا الكرام

هذا قليل من كثير لا يسع هذا التذكار التوسع فى تفصيله اكتفي بالتنويه به للدلالة على صحة ما ارمى اليه من الاشادة بذكر محاسنه من نهوض مؤسس على خير قواعد العمران . وهو دين الاسلام

ولا حيلة لي مع المكابر الا اذا نزع من نفسه محاولة النكران هدانا الله واياه الى طريق الصواب

خاتمة

العودة الى مصر

ها انا ذا في طريقي الى مصر . في طريق جدة اولا محمولا في عربة تجرها ستة من البغال يرافقني فيها بعض اخواني من المنصورة . وقد بارحنا مكة مع غروب الشمس . وبزغ بدر ذي الحجة على الجبال والوديان . وحلت لي الذكرى على ضوء البدر . والنسيم عليل يهب من الشمال . فطفقت استرجع صور الاشياء من قريب وبعيد . وبدا لي كانني أرتب أبواب هذا الكتاب

وكانت آخر تذكاراتي مقابلة الامير علي بن الحسين ولي عهد مملكة الحجاز وهو والي المدينة أيضا أقبل لاداء فريضة الحج . لا أستطيع أن أصف شدة اعجابي برقة عواطفه وكريم شمائله وكمال ادبه ، الا كما يستطيع شاعر أن يصف لك محاسن الشمس أو القمر فكلا الوصفين قاصر عن أن يفي بما يصوره له الخيال على صحيفة الوجدان . وغاية ما أستطيعه من التصوير انه انسان كامل جاء من شجرة الكمال المحمدى صورة ناطقة بأنه خيار من خيار من خيار

هذا الامير العربي الهاشمي هو الذي تكرم وامر بمركبته الخصوصية فحملتنى من مكة الى جدة في طريقي الى مصر . وكانت عبارات شكري على مكارمه لا تزيد عن تمتمة مضطربة اذ لم اجد ما اقدر به على الثناء عليه كما أريد

ولم اجد بداً بعد زيارة سمو الامير مودعا الا القيام بواجب عرفان الجميل فقصدت الى القصر العالي الهاشمي ومثلت بين يدي صاحب الجلالة الملك الحسين مودعا مستأذنا بالسفر فلقيت من جلالته كل عطف ورعاية . فرفعت كف الضراعة الى المولى القدير ان يحفظ ذاته الشريفة علماً على المجد والشرف . وهكذا فارقت مكة المكرمة وأرض الحجاز الطاهرة حاملا في نفسي اجمل تذكار لاقدس آثار



مصر والحجاز

في الاسلام

انّ الحجازَ ومصرَ يومَ تَدَانِ أَخوانِ بالاسلام يَعتصمانِ
فهي (الكنانة) وهو مهد (كنانة) وابوهما العربيُّ من عدنان

***

لا تفخرَ لي يا امّ في (مينا) ولا (خوفو) ولا (رمسيس) بالاوثان
كلا ولا (توتنخ امون) بزخرفٍ ابقى عليه الدهر في الاكفان
لا بل ولا يوم به يا مصر قد كانت حياضك مورد العقبان

***

كان الاغارب يحكمونك غيلة بمظالم اليونانِ والرومان
وبنوك (ابناء الفراعن) كم غدَوا لمطيّهم مرقى ورِجْل خوانِ
حتى أتى (ابن العاص) في عربانهِ فاتاك بالحسنى مع العربان
وهداك بالدين القويم الى العلى والمجد والعرفان والعمرانِ
نورٌ تلألأ في الحجاز من الهدى فسرى اليك بطلعة الاحسانِ
فغدوت من آبائنا العربَ الاولى نصروك أكرم منزل ومكانِ
نزعوك من اسر المظالم والخنا وحبوك امنع حرمة وامانِ
ووفوك بالاسلام عهد (محمد) ورعوك خير رعاية وحنانِ
جمعتكما في الله جامعة الكتا بِ فانما في حكمه أَخوان

***

يامصر مالك في زمانك (قائد) … متحفزٌ الآن الى الخذلانِ
أيقال أنت اليوم (اسلامية) … ويرخصون بك الزنا للزاني
(قطعوك) من جسم العفاف واوردو … كِ موارد الفحشاء والسكرانِ
ودعوكِ صرعى دائهم (داء الهوى) … من كل مخبول ومن نشوانِ
يا مصر أين بنوكِ - ابناء الأُلى … نصروا العُلى بالعزم والايمان
يا مصر أين بنوكِ - أبناء الالى … رفعوا منار الدين بالمرّان
يامصر أين بنوكِ - ابناء الالى … كانوا اعزّ مناصر ومدانِ
ذهبوا .. كما ذهبت خصالهم التي … فتحوا بها الامصار يوم طعانِ
لم يبق غير (خبيصة) من نسلهم … جمعت رذائل سائر البلدانِ

* * *

أضحت لنا مصر الكريمة مسرحا … بنقائص الافرنج وهي مغانِ
همنا بها شر الهيام لاننا … شر الانام بعادة الغربانِ
وأهمّنا في مطلب الدنيا هوىً … كان الاعاجم فيه أصل هوانِ
صرنا الى تقليدهم فاصابنا … (عَرَج) لفقد سجية الاتقان
(ان الغراب وكان يمشي مشية … فيما مضى من سالف الازمان
حسد القطا وأراد يمشي مشيها … فاصابه ضرب من العرجان)

* * *

وأضلّ اهلكِ يامصر جماعة … يقفون منا موقف (الفرسان)
لا بالسيوف ولا الرماح وانما … ادواتهم وَرَقٌ وطرف لسان
ان اطلق (الحامي) اعنتهم غدت … نار الحماسة ملء كل جنان

واذا بدا غضب عليه توترت ... اعصابهم من شدة الرجفان
عجبٌ لبعض (ذيولهم) لما سعت ... بالشر بين (شقيقتين) يدان
ثاروا على الملك الحسين بقولة ... نكراء واتهموه بالبهتان
قالوا وما قالوا بغير دسيسة ... رقطاء: ان الحج غير امان
وتسفلوا فتطاولوا عنتاً على ... ملك الحجاز تطاول الجرذان
وهو الأبي فما نجهم بل سرى ... مثل النسيم على ربى الافنان
وسلوا الحجيج فما رأيت بمكة ... غير الامان ومستقر اماني
وقضيت خير اقامة وافاضة ... بين الجبال ومسرح الوديان
وشهدت مملكة من الاسلام قد ... قامت على حدّ الهدى بسنان
ورأيت آثار النهوض جليلة ... وحفيلة بالجدّ ـ رأي عيان
ووجدت اعمال (الحسين) ضمينة ... في مطلب الاصلاح خير ضمان
وعرفت ان (الحملة الشعواء) من ... أهل العماية ما لها عينان

***

كتّابُ سوء لا ضمائر لهم ... ابداً ولا يحيون بالوجدان
باعوا مواهبهم ببعض دراهم ... لمسخرين كلعبة الصبيان
فضحت سرائرهم وغاض حياؤهم ... لما أتى الحجاج بالبرهان
بئس السلاح الغدر في طلب الجدى ... بل قل وبئس قيادة العميان

***

أسفاً على الاسلام في اوطانه ... وعلى بنيه سادة الاوطان
أسفاً على مصر الكليم فؤادها ... مما الم به من الاحزان

أسفا على ابنائها وبناتها   مما يحيق بهم من الخسران
في لهوهم و فجورهم و فسوقهم   يتبادلون خصائص النقصان
يتهافتون على بناء (البرلما   ن) وغاب (هادمه) عن الاذهان
هم يرفعون له القواعد (حرة)   فاذا تنادوا جاء (بالخرسان)
هم (يندبون) له بصوت ضائع   فاذا تمادوا ثار كالبركان
القاهر (الحامي) اقام بمدفع   للهدم لا لاقامة البنيان
تركوه يبني حصنه في ربوة   (ليكون حصن البرلمان الداني)
فاذا تألب جمعهم وجدوا به   وهن الاساس ودكة الاركان

ياويلنا من شر طائفة غدت   هلكى السياسة من ذوي الاطيان
لا يعلمون من الامور صغيرة   ومن المعارف (سورة الفدان)
جاؤا بهم (ليشرفوا) اوطانهم   في البرلمان بضيعة الافطان
يتناطحون على الارائك بينهم   من كل (هدار) ومن (طمّان)
حتى النساء الحاليات يردن في   ذا البرلمان حكومة النسوان
مرحى لنا برجالنا ونسائنا   في حب مصر شذية الاردان
هممنا الى استقلالها (بقطيعة)   عادت لنا بقطيعة السودان

* * *

يا مصر لاتبكي اسى وتحرقا   فالدهر سلسلة من الحدثان
سيعود ذاك المجد مرتفع الذرى   ويسود بالاسلام والعرفان
ويفيء للرشد الذين تعلقوا   في غيهم بحبائل الشيطان
ويؤوب من تيه الضلال رشيدهم   ليرى الحجاز ومصر تتحدان

بلدان زادهما اليقين تآلفا ودعاهما لعلاهما الحرمان

* * *

ياعصبة الاسلام لاتهنوا ولا تتشبثوا بخيوط وهم ٍ ذان ِ
رب ّ اهدنا فالصبح اشرق نوره والنصح ينفع قبل فوت اوان ِ
(الترك) جنوا بالاصول واصلهم يعلو (بجنكيز) و (تيمرلان)
تركوا علا (عثمان) وانتسبوا الى الوطن العزيز لنشئهم (طوران)
قلنا وما شأن الخلافة بعدئذ طلعوا بجمهورية الفتيان
قالت سياستهم دعونا نستبق كالغرب ان الشرق اهل توان ِ
ونعش لجدوانا فما الاديان في هذا الزمان سوى سلاح الواني
والناس في الدول العظيمة انما تدعو مصالحهم الى (الكفران)
وحياة اوربا تقوم على المصا لح بينها والدين شيء ثان ِ
اما الخلافة فهي بعض متاعنا اما الرقي ّ فليس بالاديان ِ
اخذوا باسباب (الهدى) من ذا الطـ ـريق لانه يفضي الى اطمئنان
وتوسّعوا في مقتدى مدنية الا فرنج بالاشكال والالوان
شهدوا المراقص والمسارح جملة ونساؤهم من جملة (الاقران)
خلعوا العذار (اباحة) وصراحة لايعبأون بشرعة القرآن

* * *

سبحانك اللهم يارب ّ الهدى انت اللطيف بنا من الاهوان ِ
أنزل علينا حكمة نسعى بها للصالحات فانت غوث العانى
واحفظ يقين المسلمين برحمة مما يحيط به من الادران

وأعدْ لنا المجد القديم مشيّداً ... ومؤيداً بجنوده الشجعان
وأفض على مصر السلام ونجّها ... من كل ختال ومن خوّان
وأدمْ لها عهد الرخاء معززاً ... بفؤاد (احمد) صاحب السلطان
وانشر على مُلك الحجاز رعاية ... واشدد بها العضد المكين البانى
ربّ السيادة من سيادة جدّه ... فهو (الحسين) بن العليّ الشان
واجعلْ من القطرين خير مثابةٍ ... للمسلمين بوحدة الايمان
حيث السعادة قد تأرّخ : حكمها ... ان الحجاز ومصر منتصران

سنة ١٣٤٢ ٧٤ ٥١ ٥٠ ٣٣٦ ٨٣١

عبد العزيز صبرى

تم الجزء الاول

من « تذكار الحجاز »

بعون الله وقوته

ويليه « الجزء الثانى » ان شاء الله تعالى

في زيارة المدينة المنورة

على صاحبها افضل الصلاة وازكى السلام

فهرس

تذكار الحجاز

صفحة

صفحة

الفصل الاول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن



(وقعت بعض اغلاط مطبعية طفيفة لاتخفى على فطنة القارىء)

